الدوحة

اسجد والادم : خالد محمد خالد

العرب والعالم سنة ٢٠٠٠ ؟ : د. محمد جابر الأنصاري

حكاية الرحيل : قصة قصيرة بقلم الشهيد ماجد أبو شرار



كلمة

متى تنتهي هذه المأساة ؟

فى أوائل الشهر الماضى دخل شخصان يخفيان السلاح فى ثيابهما إلى مكتب « المؤسسة العربية للدراسات والنشر » فى مبنى « برج الكارلتون » فى بيروت واستأذن الشخصان فى مقابلة مدير المؤسسة « الدكتور عبد الوهاب الكيالى » ، ولم يكن هناك حرس حول الكيالى ، ولم تكن هناك صعوبة فى لقائه ، فقد كان مكتبه مفتوحا ، وكان بيته مفتوحا ، وكان قلبه وعقله مفتوحين بغير قيد او تعقيد ، ولكن الشخصين اللذين دخلا مكتب عبد الوهاب الكيالى ، كانا يحملان نية الغدر ، والغريب انهما لم يكونا على معرفة شخصية بالكيالى فقد ساله احدهما : هل انت الدكتور الكيالى ؟ فقال له : نعم انا عبد الوهاب الكيالى . وهنا اخرج الشخصان المجهولان ما تخفياه من سلاح واطلقا على عبد الوهاب الكيالى اربع عشرة رصاصة قضت عليه . وكان هذا هو اللقاء الأول بين القاتلين وبين عبد الوهاب الكيالى ، اى ان القاتلين لم يتعاملا مع الكيالى ابدا . وهما مع ذلك مكلفان من « جهة ما » لاغتيال هذا الانسان العربى الرائع الذى لا يعرفان عنه سوى ما قيل لهما من ضرورة اغتياله .

نحن امام ظاهرتين : الاولى هى الغدر ، حيث يتسلل الغادر كانه ضيف ، ثم يكشف فجاة عن وجه القاتل . اما الظاهرة الثانية فهى اطمئنان عبد الوهاب الكيالى إلى انه لم يفعل ابدا ما يستحق من اجله ان يتعرض للاذى . إن « الكيالى » كاتب مثقف وطنى عربى استطاع بحيويته وشبابه المتدفق وذكائه اللامع وإخلاصه العميق ان ينشىء دارا للنشر اصبحت فى السنوات الأخيرة اكبر دار للنشر فى الوطن العربى . ثم امتد نشاطه الثقافى والفكرى إلى اوروبا ، فانشا فى لندن مؤسسة لدراسات العالم الثالث . وكان يمد يده إلى الجميع ، ويعمل بكل ما يستطيع على خدمة الفكر العربى والثقافة العربية والقضايا الوطنية العربية ، وعندما بدات الخلافات تشتعل كالحرائق المدمرة فى الساحة السياسية العربية ، ابتعد عبد الوهاب الكيالى عن كل مناصبه السياسية وكان قد وصل إلى مناصب عليا وعلى راسها عضوية اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ومع ذلك فقد انسحب الكيالى من هذه المناصب البارزة ليتفرغ للعمل على الساحة القومية العامة ، من اجل هدف بعيد شامل اصيل اراد ان ينتقل من العمل



د. عبد الوهاب الكيالى

بالسياسية إلى العمل بالحضارة والثقافة ، واراد ان يبتعد عن الميادين التى يختلف فيها العرب ، إلى ميادين الاتفاق ، والمصلحة المشتركة التى لا خلاف عليها ، ولم يتردد عبد الوهاب الكيالى فى خدمة اى كاتب او مثقف عربى ، مشهورا كان او مجهولا ، كبيرا كان ام صغيرا ، ولم يتردد فى العمل على نشر الانتاج الفكرى العربى الجاد فى كل مكان ، فكان يحمل الكتاب الذى ينشره إلى اى ارض تنطق باللغة العربية ، ولذلك اصبح « الكيالى » معروفا ومحبوبا من الجميع ، وكان يتحرك باطمئنان وبلا خوف ، لانه كان يشعر انه يزرع الأرض للجميع ، ويعمل فى النور والشمس الساطعة ، وينطلق من الحب لوطنه وشعبه ولا ينطلق من الخلافات او تيارات الكراهية التى يفرضها اعداؤنا على النفس العربية ، حتى تتمزق هذه النفس من داخلها لا من خارجها ، وحتى تدمر نفسها بنفسها لا بايدى الاخرين ، وقد احاط « الكيالى » نفسه بمساعدين يسيرون على نفس الخط الذى يؤمن به ، خط الخدمة القومية العامة البعيدة عن الخلافات والصراعات ، وكان على راس هؤلاء المساعدين اخوه الشاب المثقف الوطنى الواعى « ماهر الكيالى » ، وكان من بين مساعديه ايضا زوجته الأمريكية « سوزى » تلك السيدة الرائعة ، التى نشات فى أعلى طبقات المجتمع الأمريكى ثراء وجاها وسلطة ، وقد تعرفت بالكيالى فاحبته وتزوجته ، ومن خلال الكيالى امنت بالعرب وقضاياهم واصبحت « موسوعة » متحركة فى المعرفة بالواقع العربى ، ثم اصبحت بعد ذلك صوتا حيا صادقا فى دفاعه عن العرب وقضيتهم الاولى وهى قضية فلسطين .

وهكذا عاش عبد الوهاب الكيالى يعمل بقلمه وجهده المستمر الخصب فى ميدان النشر ، والمؤسسات العلمية والفكرية ، وكان يعمل من اجل وطنه وقوميته وعروبته ، وكان الذين حوله يتعلمون منه كيف يعملون من اجل الوطن والقومية والعروبة ، وكان لا يفرق بين عربى وعربى إلا بمقدار إيمانه بعروبته وقوميته ، واستطاع ان ينتزع درجة الدكتوراه من الجامعات الانجليزية فى موضوع كان المفروض ان ترفضه هذه الجامعات وهو « تاريخ فلسطين الحديث » وقد كتب هذا التاريخ من وجهة نظر وطنية صريحة ، وهى نفسها وجهة نظر الحق والعدل ، ولكنها وجهة نظر ما تزال مرفوضة من الجامعات ومراكز البحث فى الغرب ، ومع ذلك فرض « الكيالى » امتيازه ونبوغه على الغربيين فمنحوه الدكتوراه فى بحث يثبت ان وجهة النظر الغربية فى القضية الفلسطينية خاطئة .

كان عبد الوهاب الكيالى مفكرا ووطنيا وصاحب قدرة نابغة على التاثير فى الغرب ، بالاضافة إلى ما كان له من تاثير عربى واسع .

ومن هنا كان مطمئنا إلى ان احدا لن يفكر فى قتله ، ومن باب هذا الاطمئنان دخل عليه اثنان يتحدثان باللجهة اللبنانية وقتلاه . فمن القاتل هنا ؟ إن القاتل هو « الصهيونية » حتى لو كانت تخفى وجهها القبيح وراء قناع عربى مزيف ، فالصهيونية هى التى ترفض ان يكون العرب اقوياء بالسلاح او بالثروة او بالعلم او النبوغ . ما افدح الخسارة فى وفاة هذا المثقف الوطنى الكبير وهو فى عز شبابه وانتاجه ونبوغه .

والسؤال الآن هو : متى تنتهى هذه المأساة ، ومتى يصبح « النبوغ العربى » امنا من طلقات الرصاص الغادرة على الصدور المطمئنة الشريفة ؟ متى يصبح اصحاب الأقلام فى امان من اصحاب الأسلحة المخفية وراء الأثواب ؟

متى يصبح الحبر العربى خاليا من لون الدم الذى يسيل من الراس والقلب ؟

متى يصبح الكاتب والمفكر الذى يمشى بغير حراسة ، محروسا من امته كلها ، كما ينبغى ان تفعل الأمم الحية مع اصحاب العقول الكبيرة ؟

متى تنتهى هذه المأساة فى الوطن العربى .

متى ... متى ... متى ... ؟ !

رجاء النقاش



تقع المنطقة العربية ـ الاسلامية فى قلب التفاعلات العالمية والانسانية شئنا أم أبينا . أقول فى قلب التفاعلات من الناحية المصيرية . وليس فى قلب العالم من الناحية الجغرافية والاستراتيجية فقط . كما هو مسلم به .

من هذه الزواية لا مفر من أن يكون العقل العربى والضمير فى قلب تلك التفاعلات أيضا . ليس على مستوى الأحداث اليومية فحسب ، وانما على مستوى التطورات والمستجدات ـ واشدد على كلمة مستجدات ـ الفاعلة فى العمق . والتى تعيد اليوم خريطة العالم الفكرية والاستراتيجية فى صياغة مستجدة من العلاقات والتوازنات بين القوى والامم والأجناس بحيث نوشك أن نستيقظ فى الغد القريب على عالم جديد ، هو الذى يولد اليوم من رحم هذا العالم المتوتر بمخاض الولادة . كما نرى فى كل ساعة . حروبا وعنفا وخروجا على كل ما هو مالوف وقلبا لكل ما هو متعارف عليه .



الرئيس الراحل جمال عبد الناصر



الرئيس رونالد ريجان

ونحن أمام هذه الدوامة إما أن نقع فى دوارها وفوضاها فنصاب باليأس والعجز والشعور المتشائم والمأساوى بعدم القدرة على التحكم فى المصير والاستسلام لكل ما يفرض علينا ، وإما أن نتجاوز كل الام المخاض العسير الطويل ، القاطع للأنفاس ، لنستشرف المشهد التاريخى بما يتجاوز منخفض الانحطاط وبأسه ، لنطل على الأفق الجديد الآتى مع الغد .. ونبصر معالمه التى نأمل أن تعيننا على رؤية أفضل .

ولقد أسهب الكتاب والمفكرون العرب فى الآونة الأخيرة فى تشخيص أدواء الواقع العربى ومعضلاته ، وهى عملية نحتاج إليها وإلى استمرارها بلاشك ، ولكن اكمالا لهذا التأمل المكثف فى وضع الذات العربية والواقع العربى من الضرورى أيضا التأمل فى الصـــورة الانسانية الواسعة الرحبة من حولنا ، لأن العالم أصبح اليوم كما يقال بمثابة « قرية صغيرة واحدة » وهى حقيقـــة ستزداد رسوخا فى الغد القريب مع تطور وسائل الاتصال والايصال الحديثـــة وظهور أنواع جديدة منها ذات طابع تغييرى جذرى للعلاقات بين البلدان والدول والأفكار والتراثات ، بل بالنسبة للتأثير على سلوك الانسان ونشاطه العقلى .

ودون أن نسهب فى وصف هذه الظاهرة ـ ظاهرة الانقلاب المذهل فى علم الكمبيوتر ومشتقاته الايصالية والتأثيرية ـ يكفى أن نشير الى أن أبرز معضلة تواجه العلماء فى الدول المتقدمة اليوم هى كيفية التوصل لاختراع أجهزة تقاوم الشلل الذى يمكن أن تحدثه أجهزة العدو فى جميع انظمة الدفاع وانظمة الطاقة وانظمة الانتاج فى دولة من الدول إذا أريد لهذه الدولة أن تقع فى حالة من الشلل التام لبعض الوقت يفعل خلاله العدو ما يريده بها وهى فى حالة شلل كامل للارادة والقدرة والرد ، بل لفهم ما يدور حولها وما يجرى بداخلها ، وليس بعيداً عن الذاكرة ما تواردته الانباء قبل مدة ليست بالبعيدة عن ظهور اجسام غريبة طائرة فى اجواء دولة عربية نفطية ، أو اكثر ، وكيف ان اجهزة الضخ توقفت عن الحركة فى فترة اقتراب الجسم الغريب منها .. ثم اختفائه دون القدرة على معرفته .

هذا لمجرد التذكير بمدى قدرة الكمبيوتر الحديث على قلب العلاقات البشرية وخلط الأوراق بعضها ببعض والتقريب بين أطراف العالم ، وجعل كل طرف فى حالة ارتباط لا فكاك منه بما تفعله الأطراف الأخرى وبما تخطط له وبما تتعرض له من تطورات ، وذلك بما يتجاوز جذريا كل ما أحدثه اختراع القطار والباخرة والطائرة والراديو من تغييرات فى الفترات السابقة ستبدو متواضعة جدا بالنسبة للانقلاب الالكترونى الحالى والمقبل فى القريب .

وفى الحالة هذه ، فانه من الحكمة أن نتنبه ، وبقوة ، الى أن علم الكمبيوتر ليس هو أجهزة الفيديو التى نســتمتع بتشغيلها كل ليلة مع شرب الشاى ـ وغيره ـ ومع تسالى السمر الأخرى ، وانه ليس بالمبالغة ولا المثالية المطالبة بتأسيس هيئة عربية عليا تشرف على الاسراع بغرس وتجذير علم الكمبيوتر وصناعته فى الوطن العربى ، كي لا يفوتنا هذا العلم الجديد ايضا ، كما فاتنا من قبل علم الذرة وعلم الطاقة وغيرهما من علوم العصر » .

العرب والعالم سنة ٢٠٠٠

وإذا كنا نطالب أهل الحل والعقد في الوطن العربي بذلك ، فانا نطالب انفسنا كمثقفين ومفكرين وباحثين ، ان ننتقل في قفزة نوعية من علوم الماضي الى علم المستقبل ، بحيث ينشأ لدينا في الفكر العربي « تيار مستقبلي » يعمل جاهداً على استبصار حقائق الغد حتى لا تفاجئنا بغرابتها وبمرارتها وبعجزنا عن مواجهتها ، كما فاجأتنا في الفترات السابقة وبشكل متكرر . وغني عن البيان ان هذا العلم المستقبلي هو الأكثر رعاية ودعماً في الأوساط القريبة من قادة الدول المتقدمة ومؤسساتها الحاكمة أو المختصة بصناعة القرارات المصيرية .

بعد هذا التوقف الذي لابد منه لتبيان اهمية « علم الكمبيوتر » و « علم المستقبل » نعود الى موضوعنا الأساسي وهو استشراف واستبصار الصورة الانسانية الرحبة المحيطة بوطننا العربي وعالمنا الاسلامي ، بما تحمله من معالم الغد القريب للعلاقات والتوازنات الأممية وبما تخبئه من تقلبات في مجرى الحضارة العالمية كلها .

لتكن محطتنا الأولى في هذه الرحلة الاستكشافية : اوربا .

ففي هذه القارة القديمة المتجددة تتولد ملامح مهمة من الغد الآتي . في اوربا الشرقية ثورة ، النظام الماركسي التقليدي وعلى الـ لة الشيوعية الرسمية وتطلع جريء الى نظام آخر . وما يحدث في بولندا بالذات قلب لكل مسلمات ومعطيات النظرية الماركسية . فهاهم « العمال » يتحركون ضد « دولة العمال » كما تسميها الماركسية ، ويطالبون بالحرية قبل الخبز ، بل يذكرون العالم ان الخبز ايضاً لم يعد متوفراً في ظل النظام الذي قام اصلا — واكتسب مبرر وجوده — من العمل على توفير الخبز !

على الضفة الأوروبية الأخرى ، تخرج الجموع اليوم لتتظاهر في هولندا والمانيا وفرنسا وبريطانيا ضد « الحليف الأميركي » ولتقول « لا » عريضة للمظلة الأطلسية كما تريدها أمريكا ، وللسلاح النووي الذي تريد امريكا ان تزرعه على امتداد القارة الأوروبية . يحدث هذا مع ميل بلدان أوربية عريقة في رأسماليتها الى النظام الاشتراكي المتميز عن الرأسمالية الأمريكية واتجاهاتها ، ومع بروز لتيارات اوربية غير معهودة منذ ما قبل الحرب العالمية الأخيرة ، تتراوح بين الثارية الجديدة ، والحيادية على طريقة العالم الثالث وهي الفكرة التي تستقطب اوسع التأييد .

وقبل الاستطراد في شرح هذه الظاهرة يلح علينا الآن سؤال نود طرحه على عالمنا العربي ودوله وأهل الرأي والقرار فيه :

● إذا كانت أوربا ، التي هي أوربا بكل طاقاتها وحضارتها ، ترفض مقولة التقسيم بين نفوذ سوفياتي ونفوذ أمريكي ، وبين نظام سوفياتي ماركسي ، ونظام أمريكي رأسمالي ، فهل هو الوقت المناسب لنا نحن العرب أن ندخل من جديد في استقطاب ثنائي حاد يمزق وحدة وطننا ووحدة إرادتنا واستقلالنا بين معسكر سوفياتي ومعسكر أمريكي ، وبين نظرية ماركسية ونظرية رأسمالية ؟

هل يجوز أن نقيد انفسنا بصيغ قديمة يخرج عليها العالم المتقدم ، كالأمم الأوروبية التي أخذت اليوم تطالب بالحياد وعدم الانحياز ، وهي الفكرة التي خرجت من قلب العالم العربي قبل ثلاثين سنة على يد القائد العربي جمال عبد الناصر يوم كان العالم منقسماً الى شرق وغرب ؟ نطرح هذا السؤال ، ونحن أقرب الى التفاؤل بالغد ، لأن مصر العربية ، القلعة التاريخية والمستقبلية للوحدة العربية وللحياد الايجابي وعدم الانحياز ورفض منطق تقاسم النفوذ والمعسكرات الدولية ، قد عادت لتاكيد ايمانها القاطع بفكرة الحياد وعدم الانحياز على لسان قيادتها الجديدة ، املين أن يتمكن العرب جميعاً من العودة الى ممارسة هذه الفكرة بالعمل والفعل .

أما بالنسبة لايمان أوربا الجديد بفلسفة الحياد ، فلقد بلغ الأمر الى حد طرح فكرة توحيد المانيا الغربية والمانيا الشرقية في دولة حيادية متحدة ومستقلة عن النفوذين السوفياتي والأمريكي معاً . وهي فكرة تجد لها صدى عميقاً في الشعور الألماني في القسم الشرقي والغربي على حد سواء .

ويرى الكاتب الدولي بول إردمان ، مؤلف كتاب « انهيار ١٩٧٩ » — الذي تنبأ فيه قبل سنوات بالتطورات الايرانية وحرب الخليج — يرى في كتاب جديد له صدر مؤخراً بعنوان « أيام أمريكا الأخيرة » بأن الولايات المتحدة ستضطر ان آجلا أو عاجلا الى ترك أوربا وشأنها أو الى تخفيض تورطها العسكري في الساحة الأوربية ، على أقل تقدير . وان هذا سيحدث ليس بسبب المعارضة الأوروبية الشعبية والرسمية المتزايدة للهيمنة الأمريكية ، وانما أيضاً بسبب الأزمة التي يعاني منها الاقتصاد الأمريكي وبسبب تحول الولايات المتحدة

من قوة اقتصادية عظمى كانت تتحكم فى اكثر من نصف الاقتصاد العالمى حتى الخمسينات الى قوة فوق المتوسطة بقليل لا تسيطر على اكثر من خمس الاقتصاد العالمى فى الوقت الحاضر . وهذا يجعلها امام خيار لا مهرب منه : إذا أرادت حل مشاكلها الاقتصادية فيجب ان تقلل من حجم انفاقها العسكرى الهائل فى أوربا بالذات . وعليها ان تختار فى النهاية : إما انقاذ الاقتصاد الأمريكى بالجلاء عن أوربا ، وإما البقاء فى اوربا والاستمرار فى تفاقم الأزمة الاقتصادية ومواجهة انعكاساتها على مختلف أوجه الحياة الأمريكية .

والرئيس ريغان سيحكم التاريخ له او عليه ، وسيقف أو سيسقط بمدى قدرته على التخفيف من هذه الأزمة الاقتصادية فهل سيستمر هو — وخلفاؤه — فى ممارسة تصعيد التواجد العسكرى الأمريكى فى القارة الأوربية ؟

أما الاتحاد السوفياتى الذى يعانى من مشكلات اقتصادية وغذائية اعترف بها الرئيس برجنيف نفسه ، فانه سيرحب بفكرة المانيا الموحدة وأوربا المحايدة وسيقبل باجراء تخفيض فى قواته المواجهة لاوربا ، لأن ذلك سيريح خاصرته الغربية وسيمكنه من تقوية خاصرته الأخرى المكشوفة فى الجنوب الشرقى ، أى بمواجهة الصين والشرق الأقصى . حيث سيتحالف هناك مع تايوان (الصين الوطنية) التى بـــدأ الأمريكيون بالتخلى عنها تدريجيا ، وسيحولها الى قاعدة ثابتة للأسطول السوفياتى فى بحر الصين ، بالاضافة الى توثيق تحالفه مع فيتنام التى دخلت فى حرب ضد الصين ايضا وهذا سيؤدى

فرانسوا ميتران

بدوره الى زيادة التقارب الاستراتيجى بين الصين الشعبية والولايات المتحدة ، وبين الصين واليابان اللتين تمثلان تكنولوجيا وبشريا — معا — القوة الضاربة للجنس الأصفر ، أو الكتلة الصفراء التى نرى انها على وشك استلام قيادة الحضارة العالمية من الجنس الأبيض فى مطلع القرن الحادى والعشرين . هذه حقيقة مستقبلية تستحق فى نظرنا تاملا طويلا .

وفى البداية فان الولايات المتحدة ستستخدم هذه « القوة الصفراء » فى مواجهة « القوة الروسية » وستمدها بالدعم والخبرة لتحقيق ذلك ، ولكنها ستكون قد ارتكبت خطا تاريخيا فاحشا آخر لأن القوة الصفراء ستعرف فى النهاية — بما لديها من ذكاء وتنظيم وقدرة على الانتاج والتحدى — كيف تستخدم الدعم الأمريكى لتصفية نفوذ


بريجنيف

روسيا وأمريكا — معا — أى تصفية نفوذ الجنس الأبيض فى آسيا والشرق ، ليبدأ عهد التفوق الأصفر ، عهد قيادة الجنس الأصفر للحضارة البشرية ، بعد قرون من السيطرة البيضاء على مقدرات الكرة الأرضية ، وما « المعجزة اليابانية » غير ارهاص بذلك .

اما الاجناس السمراء والسوداء — والعرب منهم — فان الطريق ما يزال أمامها طويلا وشاقا ووعرا . لأن الجنس الأصفر قد سبقها الى اكتساب مقومات الحضارة الحديثة — كما نرى فى هذا التفوق اليابانى التكنولوجى الهائل وفى العمل المنظم المنتج الذى تمارسه شعوب الشرق الأقصى الصفراء — واذا ما اردنا ان نهيىء لأنفسنا مكانا تحت الشمس فيجب علينا أن نتعلم بتواضـــع من اليابان والصين وكوريا كيفية قدرة



شعوب الشرق على استيعاب التقنية الحديثة وكيفية تحويل الفرد والمجتمع الى قوة عاملة منتجة قادرة على تجاوز التواكل والاعتماد على الغير والميل المسرف إلى الاستهلاك ، وهي الصفات التي تتصف بها مجتمعات عربية كثيرة حتى يومنا هذا ـ للأسف ـ رغم كل التحديات التي تحيط بنا .

اما ما يقوله بعض المفكرين العرب بأننا نحن المؤهلين لتولي القيادة بعد الجنس الغربي الأبيض ، فأرجو ان يكون صحيحا ، ولكنى لا أرى له اى سند موضوعى على ضوء استمرار تباطئنا وسرعة صعود القوة الصفراء الى مسرح التأثير والفعل .

غير ان العرب يمكنهم الاستفادة من هذا التحول فى ميزان القوى بين القوة البيضاء والقوة الصفراء .

فالقوة الغربية البيضاء بحكم طبيعتها التاريخية والعقيدية والاستعمارية قوة معادية للعرب والاسلام ـ فى التحليل النهائى ـ مهما كان الطابع « الدبلوماسي » الذى تغطى به حقيقة مشاعرها فى التعامل المصلحى مع العرب والمسلمين . وهى القوة التى اقامت اسرائيل بالاكراه والعنف والقهر على الأرض العربية ، وهى القوة التى مازالت تساند عدوانها وتتحالف معها استراتيجيا ضد اية ارادة عربية يتوفر فيها الحد الأدنى من مقومات الاستقلال والكرامة .

اما القوة الصفراء فانها غير ملتزمة تاريخيا ومصلحيا وشعوريا بالفكرة الصهيونية وباهداف الكيان العدوانى فى فلسطين المحتلة ، وهى أقرب للعرب بحكم الرابطة الشرقية والجوار التاريخى الطويل والرغبة فى مقاومة السيطرة الغربية .

لذلك فان الفكر الاستراتيجى العربى المستقبلى مطالب بان يدرس « الظاهرة الصفراء » ككل فى اليابان والصين وكوريا وفيتنام والا يكتفى بدرس « الاعجوبة اليابانية » لأن هذه الأعجوبة على ضخامتها ليست سوى العنوان والمؤشر لصعود القوة الصفراء الهائلة ، كما كانت النهضة الايطالية قبل اربعة قرون عنوانا لنهوض الجنس الغربى الأبيض كله فيما بعد ..

والاهم من دراسة الظاهرة ، الانتقال الى رسم ملامح التحالف المستقبلى بين العرب وهذه القوة الجديدة الصاعدة التى ربما أصبحت حليفهم الحقيقى فى مواجهة العدوان الصهيونى وتصفية النفوذين الروسى والأمريكى فى المنطقة العربية ، إذا عرفنا كيف نستفيد من خبرة القوة الجديدة وفهمنا تطلعاتها واندفاعاتها ، كما فهم اليهود كيف يستفيدون ، منذ اكثر من قرن من القوة الغربية البيضاء فى تحقيق مخططاتهم .

ونأمل ان نتمكن من تقديم دراسات اكثر تعمقا فى المستقبل لظاهرة القوة الصفراء ودورها العالمى فى القرن الحادى والعشرين على صفحات مجلة « الدوحة » الهادفة دائما لمتابعة هموم وآمال وطنها العربى الكبير بأسلوب البحث والعرض الهادىء والفكرة المبتكرة مع الالتفات بصفة خاصة ـ فى تلك الدراسات ـ الى ملامح التحالف الممكن بين العرب وتلك القوة فى عالم الغد الجديد .

ولتحديد معالم هذه الجولة الاستكشافية فى العالم الانسانى الرحب من حولنا ، نلخص رؤيتنا الاستراتيجية المستقبلية فى الملامح الهامة التالية :

أولا : تضطر القوتان الأعظم ـ أمريكا وروسيا ـ بحكم أزماتهما الاقتصادية والاجتماعية الداخلية الى التقليل من تدخلهما فى الشئون العالمية لمعالجة مشاكلهما الخاصة . هذا يخفف ضغطهما على شعوب العالم الاخرى ، ويترك لهذه الشعوب شيئا من حرية التحرك والتحكم فى المصير بعيدا عن التقاسم المتكرر للنفوذ بين العملاقين .

ثانيا : تبرز اوربا كقوة محايدة ، وتتوحد المانيا فى قلبها وتبتعد اوربا الشرقية عن موسكو ، واوربا الغربية عن واشنطن ، فى ظل نوع من الديغولية الجديدة الشابة التى تؤكد الاستقلال والحياد الأوربى بين العملاقين . وتصبح اوربا فى هذه الحالة اكثر قربا من شعوب العالم الثالث وأكثر تفهما لها وتفاهما معها كما يبدو من سياسة الرئيس الفرنسى ميتران فى الوقت الحاضر . ويمكن للعرب الاستفادة من اوربا المحايدة بشكل افضل نسبيا من اوربا الحالية الممزقة بين المعسكرين الدوليين .

ثالثا : غير ان القوة الدولية الأهم ، قوة المستقبل ، قوة القرن الحادى والعشرين ستكون القوة الصفراء (اليابان ، الصين ، كوريا ، فيتنام) التى ، ستتولى قيادة الحضارة فى وقت غير بعيد ..

رابعا : ان المنطقة العربية الاسلامية مازالت فى مخاضها الطويل ، ولكنها توشك أن تحسم أمرها فى صيغة حضارية واستراتيجية جديدة تؤكد خصوصيتها واستقلالها بين القوى ، و بامكانها التحالف مع قوة الشرق الجديدة لضرب النفوذ الأبيض الجاثم عليها ونقصد به النفوذ الأمريكى ـ الروسى ـ الصهيونى . غير ان دراسة تطورات المنطقة العربية الاسلامية تحتاج بدورها الى ابحاث معمقة تقع خارج نطاق هذا البحث الذى قصدنا ان يكون مجرد طرح أولى لبعض الأفكار ذات الطابع المستقبلى ونحن نستقبل فصلا جديدا فى تاريخ الانسانية ، نامل ان تكون امتنا العربية ، رغم آلامها ، بل من خلال آلامها ، إحدى القوى الخيرة التى ستصنعه بالكد والعمل والابتكار والتقدير لكرامة الانسان .

د. محمد جابر الانصارى
باريس

قـــالوا هـذا الشـهـر

● كلما غنيت باسم امرأة
أسقطوا قوميتي عنى وقالوا :
كيف لا تكتب شعراً للوطن ؟
فهل المرأة شىء آخر غير الوطن ؟
آه ... لو يدرك من يقرأنى
أن ما أكتبه فى الحب
مكتوب لتحرير الوطن

نزار قبـانى

● لماذا لا ارشح نفسى لرئاسة الجمهورية فى لبنان .. فأنا مارونى وزوجتى كاثوليكية من « زحلة » !!

فيليب حبيب ـ مبعوث الرئيس
ريجان إلى الشرق الأوسط والمعروف انه من أصل لبنانى

● لاشك أن نسبة القراءة قد قلت فى انحاء العالم وهذا يؤثر فى توزيع الكتب . وقد وجد الجيل الجديد أنه من السهل الجلوس امام التليفزيون من أن يفتحوا كتاباً يقرأونه ، وحتى العلوم التى تدرس فى المدارس أصبحت تذاع فى التليفزيون وتسجل فى الفيديو وكأنها تريد أن تقول لنا : نحن فى طريقنا لالغاء الكلمة !

احسان عبد القدوس

● لقد أغلقت صفحة الماضى ولن اتحدث عن ما حدث فى تجربة ٩٠ يوماً فى السجن ، ولكننى اسأل نفسى هل كان فى وسعى أن اكتم تجربتى لو لم يكن الرئيس حسنى مبارك قد قابلنى ؟ وقال : علينا جميعاً أن نطوى صفحة لنبدأ صفحة أخرى .. إذن فهذا على ما فيه من شجاعة أدبية فيه أيضاً ذكاء سياسى .

محمد حسنين هيكل

● يا امرأة .. تتمنى أن أحررها فى حين أبحث عن أنثى تحررنى !

نزار قبانى

● الأخطر من الحضارة الغربية التى هى بالنسبة لى عبث .. هو تقليدها .

أحمد بن بيللا

● لو كنت حاكماً عربياً لوقفت فى مؤتمر القمة العربى واختصرت كل خطابات العالم بكلمة واحدة أقول فيها !
« أيها السادة : اغلقوا ملفاتكم وتعالوا ننضم إلى أهالى الضفة الغربية » . ولكننى لست حاكماً عربياً ..

نبيل خورى

● إذا لم يوجد حزم قوى يربط الجماهير بحركة الحياة ، أى بأعمـــالهم التى يرتزقون منها بحيث يحترمون هذه الأعمال مهما كانت قيمتها وصورتها ، ستضطرب الأمور وتأتى المشاكل ..

الشيخ محمد متولى الشعراوى

● إذا نجح مشروع السلام السعودى عربياً فسوف يحرج الولايات المتحدة دولياً

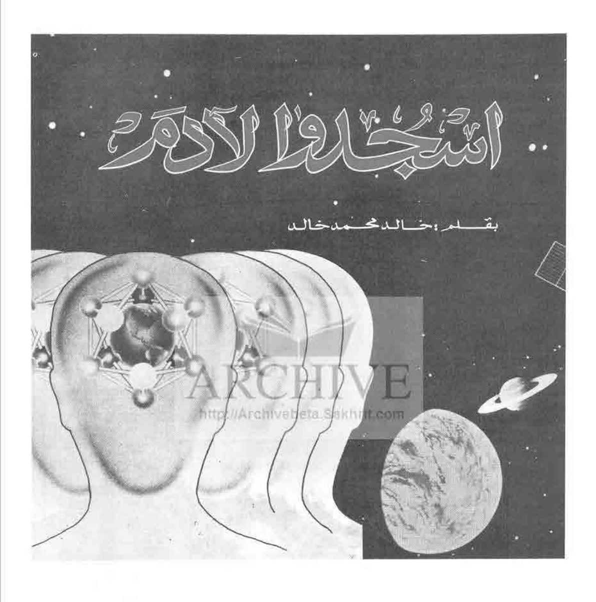
محمود عباس « ابو مازن »
عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة تحرير فلسطين


نزار قبانى


احسان عبد القدوس


محمد حسنين هيكل


نبيل خورى



اسجدوا لآدم

بقلم : خالد محمد خالد

كم هو رائع وباهر وعظيم .. هذا الانسان !!

درة الخليقة ، وأستاذ الحياة .. الانسان ..

هذا الاسم ، ذو الرنين الصادق ، الفاتن ، العذب ، المثير ..

هذا المخلوق الكبير الذى اؤتمن على أمانات الحياة وواجباتها ..

هذا المسافر الذى لا يضع عصاه عن كاهله لحظة ، والذى يولي وجهه دوما شطر كمال بعيد ..

هذا الانسان فى علمه وجهله .. فى ثرائه وفقره .. فى حريته وأغلاله .. فى تقواه وفجوره .. فى صحته وسقمه .. فى أمله وألمه .. فى عظمته وبؤسه ..

هذا الذى سواه الله بيديه ، واصطنعه لنفسه ، ونادى ملائكته كى يسجدوا له !!

كم هو رائع ، وباهر ، وعظيم .. !!

اعطى الأرض والوجود والحياة .. ومنذ بدأ وثمت من الأعماق البعيدة نداء

لا يفتا يتردد ويهيب به : كى يواصل السير ، ويرفع مراسيه ، ويبحر الى المستقبل العظيم .

سار مع القدر ، ومع الحظ ، ومع الذكاء ..

زامل اليأس ، وزامل الرجاء ..

ذاق مرارة الاخفاق وحلاوة الظفر ..

عاش بين السفوح وتذرى القمم ..

واجه الفجائع ، وعانق المباهج ، وسار على الشوك حافياً وعانى الصقيع عرياناً

وفى كل هذا وذاك كانت راية الأقدام تخفق عالية فوق قافلته التى راحت تحتدم شوقاً ، وتتضرم أملا ، وتتفجر عناء وذكاء وعزماً ..

وكان أروع ما فيه ، وأعظم خصائصه الشوق ..

أجل – كان الشوق رائده ، وحافزه .. ومن كل ظفر عظيم يتاح له تحقيقه ، كان ينبعث شوق جديد لظفر قادم ، وتعروه غبطة جديدة بمسئوليات تالية ..

كم تمنيت لو كنت شاعرا ! لانظم فيه القصيد ، واغنى لعظمته الفائقة .. فانا من عشاق الانسان ، العاكفين على حبه ، المأخوذين بعظمته ، المفتونيـــــن بأسراره .. !

● ●

هذا الانسان كون عجيب لايزال مجهولا . وما أوتينا من العلم به إلا قليلا .

ولقد ذهب علماء الدين ، وعلماء النفس ، وعلماء الحياة يجوسون خلال تلك القارة الغامضة ولايزالون يفعلون ..

أما الدين فقد رأى فى «الانسان» رأى الحق حين أعلن أنه «خليفة» الله فى الأرض .. والجرم الصغير الذى انطوى فيه العالم الكبير ، وهو مجلى مشيئة الله ، ومظهر عظمته واقتداره .

ويجيء العلم – علم الحياة ، وعلم النفس ، وعلم وظائف الأعضاء – فيضع الانسان تحت مناظيره ومختبراته ، فتفجاه أسرار وألغاز لا تؤذن بانتهاء !!

يقول العالم الدكتور «الكسيس كاريل» فى كتابه «الانسان ذلك المجهول» : «إننا لا نفهم الانسان ككل .. إننا نعرفه على انه مكون من اجزاء مختلفة . وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا . فكل واحد منا عبارة عن موكب من الأشباح . تسير فى وسطه حقيقة مجهولة .. وواقع الأمر أن جهلنا مطبق .. فأغلب الأسئلة التى يلقيها على انفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى ، تظل بلا جواب» .. !!

إن هذه الكلمات لا تعنى أن العلم عاجز ، إنما تعنى أن الانسان حقيقة ضخمة وعالم كبير ، وانه ليس من البساطة بحيث تكفى لادراكه تلك الجهود التى بذلت .. بل لابد من مواصلة مضنية لمحاولات فهمه ، وكشـــف حقيقته !!

ولابد أيضا من ترويض أنفسنا على تقبل الملاحظة الموضوعيةالتى تجعل الانسان موضوع سعيها ، والتى تعطينا نتائجها أصدق صورة لحقيقة الانسان ..

إن الدين ، والعلم ، والفلسفة ، والفن ، والأدب .. قد أبلوا جميعا بلاء صادقا فى تمهيد الحياة للانسان وتعبيد طرائقها .. أو قولوا : إن الانسان عن طريق هذه القوى قد وطأ أكناف الحياة لنفسه ، وعن طريقها جلى ذاته وأظهرها . ولايزال يجليها ويظهرها ..

وإن كلمة «إنسان» لتبلغ من الدفعة مبلغاً يجعل كل اضافة لها لغواً .. وتبلغ من السمو مبلغاً يجعل نعتــه بـ «السوبرمان» فضولا .. «السوبرمان» وصف نخلعه على الانسان لنرضى به جهلنا بحقيقة الانسان ، ولنعبر به عن أمنيات عزيزة – وإن تك طيبة – لمستقبلنا نحن البشر ..

ولكن ، لماذا «السوبرمان» .. ؟؟

لماذا الانسان الأعلى .. ؟؟

أولا يكفى أن يكون «الانسان» وحسب ؟

وهل وجد الانسان حتى نتعجل مجيء الأعلى ؟!

فى رايى أن الانسان لم يتم بعد ظهوره واكتماله .. وهو حين يتم ظهوره يجيء متضمنا كل كماله . ويصير وصفه بالأعلى شبيها لوصفنا الشمس بالمضيئة !!

ونحن نخشى أن تخدعنا كلمة «السوبرمان» عن حقيقة الانسان التى يجب أن نتقبلها ونحترمها بكل ما فيها من طين ونور .. وأشواك وأزاهير ..

إن الناس الذين عاشوا فى العصر الحجرى ، والذين سيجيئون بعد عصر الفضاء ، سواء فى التمجيد والتكريم .

والانسان فى بداية تطورنا على الرغم من جهله وعجزه ، لا يقل شأناً عن الانسان القادم فى نهاية التطور مع شموخه وسموقه .. بل إن الانسان القادم متضمن الانسان الذاهب .. وهو ابنه وحفيده ..

من أجل هذا نولى وجوهنا فى هذا الحديث شطر الانسان . الانسان الذى ليس أدنى ، وليس أعلى .. والذى لا يترك الى جواره فراغاً لأى وصف يتعاظم قدر الانسان .

الانسان ، الذى بدأ ظهوره ، ولم يتم بعد ، والذى يتجلى شيئاً فشيئاً ، سائراً عبر نفسه .. طاوياً أعماق كيانه الأزلى أو الشبيه بالأزلى على كل إمكانات تفوقه وكماله .

هذا الذى يحول بؤسه الى عظمة ، ورذائله الى فضائل ، وعجزه الى قوة ، وانحطاطه الى رفعة ..

هذا الذى يفرغ أمسه فى يومه ، ويهدى يومه الى مستقبله .

هذا الذى عندما تجلى فى سقراط وأفلاطون ، وعمر بن الخطاب ، وماركوس أوريليوس ، وبوذا ، وغاندى ، وهيجل ، وابن سينا ، وشكسبير ، والمعرى ، وأينشتاين ، وابن الهيثم ، وديكارت ، وابن رشد ، والفارابى ، والمئات من أمثالهم – لم يكن يعنى أنه حقق بهذا التجلى كماله .. بل كان يعنى أن يختبر معازفه التى ستعزف ذات يوم









سقراط — افلاطون — بوذا — غاندى





هيجل — ابن سينا — شكسبير — اينشتاين




ابن الهيثم — ديكارت — ابن رشد — الفارابى

هذه العبقريات جميعها وغيرها كانت «عينات» تجلت فيها قدرة الانسان على اكتشاف طبيعته واهداء يومه الى مستقبله .. من اجل الانسان

والى الأبد «سمفونية» وجوده ، واللحن العبقرى العظيم لحياته الوافدة الصامدة الصاعدة .. !!

أجل ـ كانت هذه العبقريات جميعها « عينات » يكتشف بها طبيعته واستعداده ، ويستبين بها وجهته ، ويدرس عليها قدراته ..

وإنه لماض الى يومه الموعود وايامه الآتية .. تلك الأيام التى يرتفع فيها جميع افراد النوع الى مستوى القدوة .. الأيام التى يصير فيها كل فرد جديراً بحمله كلمة «انسان» حيث تتحول كل الخصائص العظيمة التى تجلت فى عباقرة البشر ؛ لتصبح طبيعة عادية لكل أفراد البشر !!

هذا ، هو دور الانسان ، وهذه رسالته التى من آجلها يعمل ، والتبعة التى استحق بها الزعامة على الأرض وعلى الحياة ..

هذه هى المخاطرة الكبرى الظافرة التى كتبها الله له ، والتقى عندها باسرار الكون مسخرات لأمره ، مذعنات لمشيئته.

● ●

والى هذا الانسان البطل والجسور بعث الله انبياءه ورسله ليعاونوه على تحقيق انسانيته ، والاحتفاظ فى يمينه برايته .. ولقد كانت حفاوة الله بالانسان عظيمة اذ أرسل اليه من لدنه رسلا مبشرين ومنذرين .

وتخلقا باخلاق الله ، كانت حفاوة المرسلين بالانسان عظيمة . فاحتفوا به ، واحاطوه بكل ما فى قلوبهم الكبيرة من حب وحنان .

انظروا المسيح ، كم كان دائم الترديد الممعن لاسمه ، ودائم الحفاوة الصادقة به !!

إنه لايفتا يكرر ويعلن انه «ابن الانسان» .. !!

ها هو ذا يتحدث : «إن ـ ابن الانسان ـ لم يات ليهلك انفس الناس ، بل ليخلص» .. «ها نحن صاعدون الى اورشليم ، و ـ ابن الانسان ـ يسلم الى رؤساء الكهنة» .. «لا يذوقون الموت حتى يروا ـ ابن الانسان ـ اتيا» .. «ومن قال كلمة على ـ ابن الانسان ـ يغفر له» .. «إن ـ ابن الانسان ـ ماض كما هو معروف عنه» ..

وفى عشرات المرات يصف نفسه بانه «ابن الانسان» ويردد كلمة «الانسان» فى حفاوة وتمجيد .

اما اخوه «محمد» فما اكثر وما أعظم حفاوته بالانسان .

إن القران الذى تنزل عليه يتحدث عن الانسان خمسا وستين مرة ـ هذا عدا حديثه عن الناس وعن الأنس ، وعن الأناسي .

«أولا يذكر ـ الانسان ـ أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً» ..

«لقد خلقنا ـ الانسان ـ فى أحسن تقويم» .. «يا أيها ـ الانسان ـ إنك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه» .. «لقد خلقنا ـ الانسان ـ فى كبد» .. «علم ـ الانسان ـ ما لم يعلم» .. «إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملهـا ـ الانسان ـ» .

هكذا يشعرنا القران وهو يتحدث عن الانسان بحدبه عليه ، وتقديره لدوره ورسالته .

ولأن الانسان عظيم ، ولأن الانسانية جليلة فقد اختار الله رسله الأكرمين منه ومنها .

يقول الله سبحانه وتعالى : «ولو شئنا لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا» .

وهو لم ينزل ملكاً ، بل وجعل الملائكة فى عون الانسان وخدمته ، لأن الانسان الصامد أمام تجربة الحياة .. الانسان الذى حمل أمانة الوجود بعد أن أشفق من حملها خلائق كثر كانت تسير معه فى سباق التطور العظيم ..

الانسان هذا ، كان فى عين الله خليقاً بأن يتلقى من نفسه الدرس والمثل .. ومن هنا جاءته رسله منه : «لقد جاءكم رسول من انفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم» ..

ومن هنا يبدأ توقير الرسل عليهم السلام للانسان .. من إمعانهم فى توكيد بشريتهم ، وإعلان انسانيتهم ، ووضع وجودهم دوماً داخل هذا الاطار .

ولقد كانوا وهم يرفضون المبالغة فى اطرائهم ، والغلو فى توقيرهم . إنما يقررون القيمة العليا للانسان .

كأنهم يقولون لمن يحاول الارتفاع بهم عن مستوى الانسان فيهم : أى مقام هناك أسمى وأعظم تريد أن تذهب بنا اليه ؟!! وماذا فوق «الانسان» من خلق ؟ الملائكة مثلا .. ؟ إنهم فى خدمة الانسان الصالح الكادح . هكذا جعلهم الله ..

وحين أراد الله أن يصطفي فى الأرض خليفة ، تعالت ترنيمات الملائكة ضارعة مبتهلة أن تكون صاحبة الحظ فى هذا الاصطفاء . بيد أن الله سبحانه رمق الانسان بعين حانية ونظرة راضية ، وأشار اليه فى حب غامر وقال : هذا هو الخليفة .. !!

والانسانية إذن ، هى الجنسية المشرفة التى يحملها المسيح ومحمد والمرسلون جميعاً عليهم صلاة ربنا وسلامه .



عيسى يقول : أنا ابن الانسان ..

ومحمد يقول : إنما أنا بشر مثلكم .. ويرتل هذا النداء كل الأنبياء .

ولماذا لا يفعلون ، وفى أسماعهم اليقظى يرن الصدى القوى لقول الله لملائكته «اسجدوا لآدم» .. !!

الا من كان يعرف تمجيداً للانسان أصدق من هذا التمجيد فليأتنا به ..

ومن كان يعرف قدر الانسان ، فليختبر نواياه تجاهه .. حاكماً كان أو محكوماً .

إن أى إساءة للانسان .. أى تثبيط لعزمه .. أى كبت لطاقاته وكظم لأنفاسه .. أى استغلال لعرقه وامتهان لشأنه .. أى ترويع له وتعطيل لرغبة الله فى ارتقائه .. أى تقنيط لآماله وكبت لأشواقه .. أى تعويق لمسيرته بالكلمة أو بالحركة بالقول أو بالفعل .. أى شيء من ذلك كله لن يكون سوى تمرد على قرار الله بأن «الانسان» سيد كونه ، والمهيمن باذنه على أرضه ، والواعد بما لا يخطر على قلب بشر من الرقى والصعود .

وإن أمر الله «اسجدوا لآدم» ليس تكريماً وتمجيداً للانسان بأقل مما هو تحذير له ألا يسمح بأن يخرج من بين صفوفه من يتمردون عليه ويسيئون اليه ، ويبغون حياته عوجا ، وينتقصون من حقوقه الكاملة فى الحرية والأمن والعدل وبقية الحقوق التى يحلق بها فى آفاق حياته ووجوده .

كما أن أمر الله ملائكته «اسجدوا لآدم» نذير رهيب لكل من يسهم بالكلمة أو بالحركة ، أو حتى بالصمت فى استعباد الانسان ، وتعتيم رؤاه عن الحقيقة ، وكبح ارادة السيادة والتفوق فيه .

فيا من ترجون لله وقارا .. قدموا كل وقاركم ، وكل تمجيدكم ، وكل عونكم للانسان .

خالد محمد خالد

عبد الله جفري

اللسان لساني .. والمسافة ملكنا جميعا

والآن توقفوا !!
استعيدوا انفاسكم اللاهثة ، ثم آه .. خذوها إلى صدوركم ، وتفرجوا على وقفتكم !!
ثم .. شاهدوا صدوركم من الداخـــل .
المهمة صعبة .. بالغة الارهـــاق !
أيضا ـ من الوجه الآخـــر ـ المهمة سهلـة . بليغـــة التنـــاول !!
دعـــوا عقولكم تمارس الألعـــاب السويدية : روضوهـــا . دلكـــوها .. بعد ذلك اغسلوها بكل محتوى صدوركم ، وزحـــام العالم ينتظرهـــا بلا مجامـــلة .
افرجـــوا ـ على مهـــل ! ـ عن خفقاتـــكم .. فليس كل الركـــض حريـــة .. احيانـــا هو يعبر عن التيـــة ، والتيـــة حرية الضيـــاع !
دعـــوها ـ خفقاتكـــم ـ تقف تحـــت أشعـــة الشمـــس ، وخـــذوا انفاســـكم !
الآن توقفـــوا ..
هذا ليـــس اقتراحـــا .. انه نـــداء يلـــغ حقيقتي ، وتلقفني الرؤيـــة ، ويستفـــزني الصـــدى الصاخـــب !
عفوكـــم .. إنى اتكلم من مسافـــة طولهـــا « عقلة » اصبع لشـــخص مطلق !
اللسان لساني .. والمسافة ملكنـــا جميعا ، و « العقلة » اداة خاصة .
وقد يعوزنا التشبيـــه فنضطـــر ان نحـــفظ « المعلقـــات » !!

إن ندائى .. مخاض ليلة استمتعت فيها بسامى الطويل ، وسئمت فيها من كتابى الضخم الذى أقرأه من زمن طويل أيضا .. موضوع الكتاب يمكن أن نضغطه فى كلمات . ربما يكتبها اديب اصابه الملل ، وتعب من الحقائق واشتاق للخيالات ، فكتب قصيدة رديئة مترنحة الأبيات .

لكن .. ليس أمام هذه الأشياء نضطر للوقوف ..

توقفوا امام ليلكم . امام نهارِكم .. أمام عقولكم ، وخفقكم .

إن « متاريس » العالم تتساقط فى الليل ، ويستحكم رتاجها فى النهار !

غير مفهوم ؟!

حسنا .. ماذا يقول هذا الكاتب ؟؟ فى البداية ، هو لم يقل شيئا .. كان يمسك قلمه ، ويحبس قرطاسه تحت كف يديه ، و « يحك » شعر راسه بعِدَاء ، ولم يكتب حرفا ، ولم يطق السكوت الداخلى فى صدره ، ولم يحتمل الصخب من حوله .. غير انه لا يستطيع ان يتوقف .. إنه يمشى حتى وهو جالس .. إنه يرحل بين اربعة جدران !

مع ذلك لم يقل شيئا .. اللسان لسانه ، والمسافة ملكنا جميعا !

وبقي ينتظر من يساله .. من يفتح جمجمته ليأخذ ما بداخلها ، ويريحه !

داخـــل الجمجمـــة الصغيرة هذه مسافات عريضة لكنها داخل « فريزر » ..

داخل الجمجمة أفكار يتمنى لو تفجرت ونسفت راسه ومات مقتولا بافكاره بدلا من ان تبقى جُوانِيَّة .. تؤخزه ، وتسبب له الصداع المزمن وتستعدى الآخرين ان يسالوه .

● أليست هناك فكرة بدون سؤال مسبق ؟؟

● الا يمكن ان يصحو ذات يوم ، فيكتشف ان محتوى جمجمته يماثل محتوى جمجمة « عم عثمان » بائع اللفت والسلك والزبانخ ؟؟

لحظة من فضلكم . رجاء .. رجاء توقفوا قليلا ..

إنه يحاول ان يبصر .. يحاول ان يسمع .. يحاول ان يقول شيئا !!

ـ قال : نعم . قال هذه العبارة التى اسمها : يتيمة الناس !!

ـ قال : مساء الخير يا نجمتى الطالعة فى ليلة غائمة !

ودوت جمجمته بالتصفيق . العبارة رائعة . العصر هو زمن الخطف ، وهذه عبارة مخطوفة من التبلد ، مخطوفة من الرغبة في التوقف . مخطوفة من « الوصل » .. مخطوفة من «الأصول» !

ـ قال مثالا : اسمعوا .. الم تحسوا أن عبد الوهاب « خطف » أم كلثوم من سنواتها الطويلة واعادها الى السنة التى غنت فيها « جددت حبك ليه » ؟ .. لقد جعل صوتها يرقص « الفالس » لقد جعلها اكثر شبابا من عايدة الشاعر فى زمانها عندما غنت لحنه : إنت عمرى !

ـ قال مثالا اخر : الم تشاهدوا كيف يخطف « بيرت لانكستر » فتاته الحسناء « ديبوراه كير » فى فيلم : (من الآن والى الأبد) ويجرى بها ليقتلها بمعانيه ، ولم تقتله بمعاناته ؟ .. وكيف خطف دكتور بيرنار شباب عروسه « بربـاره زولنر » وواراه فى خمسيناته .. وكيف تخطف الدول الكبيرة المستعمِرة خيرات الشعوب النامية واستقلالها لتضيفها الى تاريخها ؟!

قال امثلة .. واشـعل لفافته على طريقة « سومرست موم » ، وصمت !!

● ●

وتناهى إلى سمعه صوت يسأله : لماذا هـو « عالم مخطوف » ؟! .

كان ينتظر ـ قبل الاجابة ـ ان يصل الاحتراق الى عقب سيجارته ليتكلم ، لكنه ملول .. كسر اللفافة ، وقال :

ـ العـالم مخطوف وخاطف .. ان سكانه يخطفون انفسهم ، فلم يعد الوقت كاف للتريث .

ان الناس يخافون الحرب الثالثة وقد وقعوا فيها .. فهل بدأت فى ٥ يونيو ١٩٦٧ ؟!

وهل مات الناس فى السادس من اكتوبر عام ١٩٧٣ ؟!

وقد ماتوا مرتين قبل ذلك فى عام ١٩١٤ ، و ١٩٣٩ ، وقبل ذلك كانوا يموتون بالقنص .. تقنصهم الحروب الأهلية والمقـاصل ، وتقنصهم الاضطرابات الجانبية .

ان كل شىء توسع ، والأصوات تضخمت ، والفرحة قصيرة .. فاذا احب الشاب فتاة سئمها بعد شروق الشمس ، واذا كتب شاعر قصيدة .. عارضها فى اليوم الثانى ، واذا استقلت دولة رزح على صدرها الاستعمار قرونا .. تناحرت داخليا بعد أسبوع ، واذا اكتشف العلماء علاجا للشلل ابتكروا بعد شهر سلاحا للحصد ، واذا يئس شاب من فرص النجاح فى العمل تحول عند منتصف الليل الى « هيبى » يلبس بنطلونا مرقعا ، و « ينكش » شعر رأسه ، ويفترش الرصيف ، ويقول كلاما نظريا فقط !!

● أتعنى أن الناس يموتون لكثرة ما هم أحياء ؟؟

ـ قال : العجيب هو العكس .. انهم يزدادون حياة لكثرة ما يموتون كل يوم !!

● إنهم لا يموتون يا سيدى .. انهم مخطوفون فقط . هكذا قلت !

ـ بلى .. غير أن تكرار الاختطاف دليل على الفوضى النفسية .. دليل على البعثرة الخلقية .. دليل على أن من يختطف يحمى ، ومن يحمى مريض بالاختطاف .

● لكننا مضطرون للمعرفة .. عليك ان تجرب لتعرف . وهذه احلام فى ذهنك .. انك « انفصامى » ومقهور الركض !

ـ احد علماء الفضاء قال مرة : « مثل هـذه الأحلام خير زاد للتغلب على الواقع » !!

● واحد الشعراء الانجليز الشبان قال بعد هبوط « ابوللو » على سـطح القمر : أريد الآن أن انظم قصيدة على سطح القمر لأرسم صورة للالوان كيف تتحد ؟!

ـ مخطوف .. إنه يخطف نفسه من واقعه . إنه لم يستطع ان يرسم الـوان مشاكل الأرض . هل رأيت صورته ؟!

● لا .. لكنى أهتم بكلامه !

ـ لا .. « ان الاديب حجم انسانيته » وكَيَّفَ نفسه !!

● سؤال اذن : لماذا نطلب من العـالم ان يتوقف ؟!

ـ جواب : لكى يلتقط انفاسه ، لكى يعيدها الى صدره . ان انفاس الناس اليوم فى عيونهم . إن صدورهم مهشمة !

● سؤال : ماذا يخطف الناس ؟؟

ـ جواب : يخطفون انفسـهم من انفسهم .. انها « حالة » من القلق .. حالة من التفريط والفقد معا !

● سؤال : الى اين يهربون ؟؟

ـ جواب : الى بدايتهم .

● سؤال : وماذا نحتاجه ؟

ـ جواب : نحتاج الى جيل جديد .. يفهم ما يقرأ .. يعي ما يفعل .. يفرق فيما يشاهد .. يسمع جيدا !

● سـؤال : والاديب ، انت ماهو عملك ؟؟

ـ جواب : أعالج المشكلة باسلوبها !

● سؤال : كيف تتمكن ؟؟

ـ جواب : باختصـار ... بمثل ما جاء فى هذه العبارة التى قراتها : (لابد من اختطاف بحر الأمية الى مرفأ الأدب .. لابد من اختطاف زبائن الكلمـات المتقاطعة وبختك هذا الاسبوع . ونوادر جحا ، وزبائن النكتة ليقراوا مفيدا ، أو يلمسوا متعة اكبر » !!

● سؤال : لكن العالم اليوم ثقافى ، وحضارى ، ومتمدين ، وسفلح ان العبارة متوقفة !

ـ جواب : إننى اريد أن تقرا بعينيكَ ، وذهنك ، ولا تدع غيرك يقرا لك .

● ●

والآن ؟؟ ..

توقف هو . أشعل السيجارة الحادية عشرة ثم ضحك ، وانهى الكلام قائلا :

ـ « يبدو اننى أدمنت كل شىء .. رغم أن المسافة « عقلة » أصبع !

لقد احببت « تبغى » لانه أصبح كلمات اغنية مرحة وجذابة .. ترددها بعض الاذاعات التى تنطق بالعربية .. فلم يتبق لنا من لغتنا إلا النطق !!



حلم الحضارة

بقلم : د. حافظ الجمالي

لو أن انسانا ما ، أى انسان من العالم الثالث ، لا على التعيين سئل عن أغلى امانيه ، وأسعد احلامه ، لأجاب ، أو لظننت انه سيجيب : إن حلمي هذا هو أن تصبح بلادى متحضرة ، تصنع الماكنات ، والطائرات ، وغير ذلك من وسائل اخضاع الطبيعة لحاجات الانسان ، والدفاع عن وجوده ضد أعدائه . وحقاً فان هذا الحلم مشترك بين جميع الشعوب المتخلفة ، من أقاصي اسيا ، الى اخر ادغال افريقيا مروراً بالوطن العربى .

لكن الشعب العربى يتميز عن غيره من هذه الشعوب من حيث أن له ماضياً حضارياً متألقاً ، بدا ، فى حينه ، وكأنه كل الحضارة ، لا بعضها ، تماماً كما نقول الآن ، عن الشعوب المتقدمة ، بأنها تملك كل الحضارة . فاذا بدا للعربى اليوم ، أن حنينه الى استعادة ماضيه ، بالصورة المعاصرة ، هو الحنين الأول ، فان هذا الشعور يتضاعف دوما بواقع التخلف الذى انحدر اليه بعد تاريخ عريق فى التقدم والمدنية .

وكذلك يتميز العربى ـ على مثال الواعين من قادة الدولة العثمانية ، بانه اول من شعر ، فى البلاد المتخلفة ، بواقعه البائس ، وحاجته الى التقدم ، بسبب من المجابهات المخفقة الكثيرة ، التى كانت تتعرض لها الدولة العثمانية اولا ، وبسبب من تقمص العربى ، فى تلك الأيام ، لمشاعر الدولة التى كان يخضع ، طوعاً او كرهاً ، لسيادتها . إن تلك الاخفاقات المتتالية التى اتضحت من جراء الهزائم التى كان يصاب بها العثمانيون ، فى كل حرب ، مع الروس أو مع غيرهم من الشعوب الأوروبية ، كانت كافية ، منذ منتصف القرن السابع عشر ، لفضح الواقع العثمانى المتخلف ، تجاه واقع غربى متقدم . ولئن كان السلاطين العثمانيون يعزون بعض هزائمهم الأولى الى «سوء الحظ» أو الى ضعف المنجمين ، وعجزهم عن حسن اختيار «البرج» والساعة ، والمكان ، فان تتالى الاخفاقات كان كافيا لحمل الواعين على التفكير بان الهزيمة ، لم تعد قضية «برج» وساعة ، ومكان ، أى لم تعد قصورا فى علم التنجيم ، بل هى تعبير عن قصور حضارى ، لم يكن معه بد من الهزيمة ، «وان الحرب لو تكررت مئة مرة» ، لما كان وراءها إلا النتيجة نفسها ، أى الهزيمة . ومن هنا كان القادة الأتراك ، أو قل بدأ هؤلاء بملاحظة السبب الموضوعى الذى يجعل النصر فى اية معركة ، حليف الآخرين ، لا حليفهم ، ومن هنا ايضاً بدأ عهد التفكير بالاصلاح او بما كان يسمى باسم التنظيمات الخيرية ، والخطوط الشريفة ، مثل خط كولخانة الشهير عام ١٨٣٩ ، والاستعاضة عن الانكشارية بالجيش الحديث ، وانشاء المدارس العسكرية ، والمدارس جملة ، ونشر المعرفة ، واقتباس علوم الغرب ، لينتهى المطاف الى ضرورة انشاء حكومات دستورية تستغنى عن الحكم الفردى ، وتجعله مسئولية مشتركة بين أهل الحل والعقد ، أى بالدرجة الأولى ، بين رجال الفكر ، والعلماء ، والاختصاصيين وكان السبب الآخر الذى اسرع بعملية الوعى هذه ، لدى العرب ، هو اصطدامهم بفرنسا فى مصر ، على يد نابليون عام ١٧٩٩ .

وكان يكفى بطبيعة الحال ان يدرك الواعون ان اول قراءة للهيروغليفية ، وأول ترجمة لها ، وأول كشف عن أسرارها لم يتم على يد مواطن ، يعيش جانباً ضخماً من حياته بجانب الأهرامات ، والأقصر ، والمعابد الأثرية المتناثرة ، وما كان عليها من كتابات مصرية قديمة ، بل على يد أول عالم بالآثار ، وفد مع نابليون الى مصر . ولا يعنى هذا أن علم الآثار نفسه علم حديث ، نما وتطور بين ما نما وتطور من علوم عصر النهضة ، بل يعنى أن العالم الأثرى شامبوليون طرح على نفسه هذا السؤال : «كيف تقرأ الهيروغليفية ؟» فاكتشف الجواب ، ولكنه لم يكن اول من طرحه ، بل إن «ذا النون» الصوفى المصرى الذى توفى «عام ٢٤٥ هـ ـ ٨٥٩ م» كان يدعى أنه يعرف قراءة الهيروغليفية ، ويزيد قدراً فى عيون الناس لمعرفته هذه . ولولا أن هذا النوع من المعرفة يعلي شان صاحبه إذن لما أعاده صوفينا العظيم . وبالتالى فانه لابد أن التساؤل حول أسرار الكتابة المصرية القديمة كان قائما لدى نخبة مفكرة ، ولو انها صغيرة ، بل إن اكتشاف هذا السر ، كان ينبغى أن يكون أسهل فى

نابليون

محمد علي

زمن ذى النون ، منه فى زمن شامبوليون . لكن صوفينا إدعى المعرفة مجرد دعوى

أما شامبوليون فقد عرف وجعل الآخرين يعرفون . غير ان هذه المعرفة لم تكن إلا جانباً هامشياً من الصدام الحضارى الكبير الذى تم بين الفرنجة والعرب فى ذلك الحين .

ويبدو لي أن محمد علي باشا هو الذى فهم معنى هذا الصدام أكبر الفهم ، واستفاد منه أكبر الفائدة ، واوفد البعثات العلمية من اجله ، وانشا جيشه ودولته على اساسه ، وبدا اول نهضة جدية فى مصر ، بوحى منه . وإنى لأحسب احيانا أن الدرس العظيم ، لايستفيد منه إلا العقل . ولأول مرة كان السلطان العثمانى هو الذى يطلب من محمد علي باشا مؤازرة ثقافية ، على حين ان هذا الأخير كان يظن انه يستوحى ما يعمل مما سبقه اليه السلاطين .

وعلى ذلك فان العرب كانوا اول من استيقظ على الواقع المتخلف الذى يعيشون فيه ، وحتى قبل اليابان بنحو من ستين سنة ، ومع ذلك فان شعوبا كثيرة متخلفة قفزت فى الحضارة قفزات أوسع . مما فعله العرب ، على تخلف اليقظة لديهم عن اليقظة العربية (مثل الهند ، والصين وامريكا الجنوبية) ، وإذا كان الناس يرددون دوماً عندنا ان امريكا اللاتينية متخلفة ، مثلنا ، فلابد من الاشارة ، على سبيل المثال ، الى أن متوسط دخل الفرد فى امريكا اللاتينية (وبدقة أكبر متوسط انتاجه الخام) يبلغ ٢٠٠٣ دولارات فى الارجنتين ، و ١٦٩٩,٣ فى الشيلى ، و ١٣٠٩ فى البرازيل ، و ١٣١١ فى السلفادور و ١٦٦٨ فى الاوروغواى و ١٤٨٨ فى البارا غواى ، على حين انه ما من متوسط دخل فى الدول العربية يبلغ الألف دولار ، او يزيد عليها إن لم يكن من دول النفط وحدها . أما الصين والهند ، فحسبهما ، على فقرهما ، انهما ، على ما لديهما من اعداد سكان ، هائلة ، تملكان أسرار الطاقة النووية ، والقدرة على صناعة الأسلحة منها ، واننا ، فى هذا المجال ، وفى غيره أيضا ، نتسكع على ابواب الميسورين ، ليقدموا الينا فتاتاً غير ذات خطر من هذه المعرفة .

ابتداء من الابرة !

لابد من التساؤل اذن : لم يطول بنا الحنين الى الحضارة ـ الصناعية طبعاً ، لا الأخلاقية بالتاكيد ، ذلك اننا محلقون فى عالم القيم ، بلا ريب ـ لم يطول ويتطاول حتى لكانه ليل امرىء القيس الذى لا ينجلى ، ثم لا يسفر صبحه أو ما يقال انه صبحه عن الأمثل والأفضل ؟ ولم تبدأ النهضة فى مصر منذ ١٧٠ سنة وتبدأ فى سورية منذ ستين سنة ، وفى المغرب منذ عام ١٩١٢ ، أى مع اتصال هذا القطر بالحضارة الفرنسية ؟ هذا إن كان كل ما سبق هذا التاريخ قطيعة كاملة ، ويبدأ فى الأقطار العربية الأخرى ، فى لحظة ما ، قبل سورية او بعدها ، ثم تنظر فتجد انه ما من قطر عربى إلا ويقع تقريباً ، على المستوى الحضارى نفسه ، بلا فارق نوعى ملحوظ ، لا فى الأدب ولا فى العلم ولا فى الصناعة ؟ ولم توجد دويلة اسرائيلية ، اكثر سكانها من بلادنا المتخلفة جداً ، او المتطورة بعض الشىء ، دون ان يقصر بها هذا كله عن بلوغ المستوى الحضارى الذى نعرفه لأوروبا الغربية ؟ ولم تذكر جامعاتها ومراكز البحث فيها ، كما لو انها على قدم المساواة هى واوروبا ؟ بل لم سهل عليها هذا الذى نراه غاية فى الصعوبة عندنا ؟

إنى اتذكر الآن عرس «بوران» على الخليفة المامون ، وما حفظه لنا التاريخ عن ليلة هذا العرس ، وكيف نثرت الدنانير بين المدعوين ، أو على الناس ، كما لو انها تاتى من كنز لا اخر له ، وكيف وزعت رقاع كتب عليها اسم بعض القرى والمزارع ، فمن أصاب رقعة منها ، امتلك مباشرة ما كتب عليها . لكنى لا اذكر هذه التفاصيل إلا لأتصور ان «بوران» هذه كانت بلا ريب حتما تلبس ثيابا انيقة جداً ، وأن هذه الثياب مخيطة بالابرة حتماً ، لا كالأثواب الهندية أو الباكستانية اليوم التى تلف على الجسم لفاً بسيطا ، بلا خياطة ضخمة ، واقول : من اين كان الناس فى ذلك الحين يحصلون على الابر ؟ إن اوروبا لم تكن متقدمة انذاك ، ولم تكن ذات حضارة صناعية ، فباى الوسائل ، أو من أى المصادر كان الناس فى بلادنا يأتون بالابرة ؟ لقد سألت منذ ايام قليلة بعض المهندسين الصناعيين عما اذا كنا فى بلادنا نملك مصانع للابر والدبابيس ، أعنى فى سورية . فاذا بى أفهم أن الدبابيس موجودة دون الابر . ولماذا ؟ لأن صناعة الابر تحتاج الى مستوى أعلى من التقنية لكنى أتساءل : كيف تهون علينا إذن صناعة المدفع ، اذا كانت تصعب صناعة الابرة ؟ وكيف نطمح الى امتلاك الطاقة النووية ، إذا كنا لا نحسن لا هذه ولا تلك ؟

ولكم يضحكني ، ولكن بمرارة كبيرة ، ان أجد صنبوراً من الماء ، لدي او لدى الآخرين ، يحتاج الى بعض الاصلاح ، وان انتظر «السباك» شهراً بعد شهر ، لافوز به ، كنصر كبير ، وانجاز ضخم ، فاذا اتى واصلح مافسد ، بدا لي بعد قليل انه زاد الفساد بدلا من أن يحسن الاصلاح . واقول : رباه ! أهؤلاء الفرنجة يصنعون لنا كل شىء ، وحتى الصنابير ، ونحن لا نحسن إصلاح أبسط الأشياء من أقل فساد ... وتتابعت فى ذهنى صور اخرى شبيهة بالمثال الذى ضربته ، وتساءلت فى نفسى : فى العام الماضى نجح لدينا فى سورية ١٤ الف طالب فى القسم العلمى .. ولكن ايهما افضل للوطن : أحامل بكالوريا بعلامات دون الوسط بكثير او بقليل ، ام «سباك» يصلح الحنفيات ؟ ولكن الأنكى من ذلك اننا نملك عدداً ما بين الطلاب أدنى بكثير من عدد الناجحين فى البكالوريا ، الأدبية والعلمية ، إلا انهم يحملون البكالوريا الصناعية . ترى أيمكن حقاً ان نطمئن الى كفاءة هؤلاء ، من أصحاب الاختصاص المناسب ، لاصلاح صنابير الماء ؟ اما انا فاشك فى ذلك اكبر الشك .

سيارة وليست لعبة !

لكن هذا كله ليس إلا جانبا أسود من



الحياة الحاضرة . فهل غاب الجانب الأبيض نهائيا ، أو هو موجود أيضا . حسبي إذن أن أروى بعض الملاحظات .

● يحتاج كل صاحب سيارة الى اصلاح خلل ما فيها في يوم أو آخر . ويحتاج خاصة الى بعض قطع التبديل ، ويروعه انها بسيطة جدا ، وأن سعرها عال أو غال . ويدفعه الفضول الى السؤال : الا تستطيع يا صاحبي ان تصنع انت هذه القطعة البسيطة » بدلا من استيرادها من الخارج ، ودفع هذا المبلغ الباهظ ثمنا لها ؟ ويكون الجواب في أكثر الأحيان :

– يا سيدى ، إننا قادرون على صناعة هذه السيارة كلها ، من أولها لآخرها ... لا انا وحدى ، بل مجموعة معينة ، أو عدة مجموعات منا ، نحن معاشر الميكانيكيين لكن هل يسمح لنا بانجاز مثل هذا المشروع ؟

والاحظ ان هنالك قناعة ضمنية عميقة بأنه لن يسمح لأمثال هؤلاء بانجاز من هذا النوع ، ولابد ان لهذه القناعة العميقة المشتركة ، من مبرر قائم في الواقع ، ليس أصحابها هم المسئولون عنها حتما .

● وتحتاج ابنيتنا المسكينة الى اصلاحات شتى في جانب أو آخر . ولكن قطع التبديل كلها مستوردة . وتطرح نفس السؤال ، على النجار ، والحداد ، واختصاصي التدفئة والتبريد ، فاذا بك تجد الجواب نفسه ، وتقول في نفسك : لابد من أن يكون لهذه القناعة المشتركة بين جميع هؤلاء الصناع ، من كل الأنواع ، مبرر من خارج نفوسهم ، لا من داخلها .

● لكن الأهم من ذلك تجربة قادها وزير التموين السورى وكانت تجربة ناجحة جدا . وخلاصة الأمر ان أزمة التموين في الخبز كانت قائمة على أشدها في طول البلاد وعرضها ، عندما جاء هذا الوزير ، وتسلم منصبه ، حتى ان المواطن ليحتاج الى انتظار على باب المخبز يتراوح بين ربع الساعة ونصفها ، على أقل تقدير .

ودعت الحاجة الى استيراد مخابز آلية ، تصنع لنا خبزنا التقليدى .. إن أولئك الذين لا يألفون في بلادهم خبزنا ، هم الذين يتولون ، بدلا منا ، صناعة المخابز له ، ولو شئنا ، ذات يوم ، ان نطلب من الغربيين مصانع أخرى لحلوياتنا التقليدية ، من كنافة ، وبقلاوة ، وقطائف ، وتورتات ، وسنبوسك ، و «أم علي» المصرية ، لكنا متأكدين انهم سيمدوننا بها . وعلى كل فقد استوردت المخابز الآلية ، وخفت الأزمة الى حد كبير .

وخطر ببال الوزير ذات يوم ، أن يستدعى مهندسيه وأن يعرض عليهم تقليد هذه المخابز الغربية ، بما يشبهها ولكن بالصناعة المحلية . ولقد تردد هؤلاء ، واطالوا التردد وخافوا من عدم النجاح .. لكن الوزير طمأنهم ، وقال لا عليكم ، إن خسرنا التجربة ، فسنرد حديدها الى مصنع «الخردة» كمادة أولية .

وعلى أكبر دهشة من المهندسين أنفسهم ، نجح الرهان ، وصنع المخبز الآلي الأول ، وتلاه الثاني بكلفة لا تزيد على ربع الثمن الذي يدفع للمصانع الغربية ، وبالعملة المحلية بالدرجة الأولى . وعلى ما أعلم فان عدة مصانع من هذا النوع ، أو قل عدة مخابز ، هى الآن قيد الانشاء ، وخلال مدة ما ، يسيرة ولاشك ، سيكون في وسع سورية أن تقدم



هذه المخابز الأفضل من مثيلاتها الأوروبية بغير قليل ، الى كل من يطلبها .

ولئن تكلمت في هذا المجال على ما أعرف ، فلاشك ان الاختصاصيين السوريين قد انتجوا في مجال آخر ، ما يعادل الصناعة الأوروبية . بل إن مهندساً سورياً ، اخرج للناس ذات يوم ، سيارة من صناعة دمشقية ، أو اكثرها دمشقي ، سميت باسم سيارة الشام ، ولو ان المسئولين في وزارة الصناعة اذاعوا على الناس ، بكل الوسائل ، ما يجب ان نفهم منه ان هذه السيارة تزييف في تزييف . ومع ذلك فان سيارة تمشى امامك في الطريق ، لا يمكن أن تكون مجرد لعبة أطفال .

عوائق مصطنعة

والذى استخلصه من هذا كله هو أن المعطيات الموضوعية لقيام حضارة صناعية ، حتى ولو كانت مجرد تقليد في البداية ، اصبحت جاهزة ، وفي وسعها ان تبدأ الانتاج ، والقفز بالمستوى الحضارى القائم في سورية . ولاشك ان مثل هذه المعطيات ، متوفر في غير سورية ، وبدرجة اكبر أو أصغر ، تبعا لمستوى ثقافة البلد . لكن العلة ، كل العلة ، هى ان هذه المعطيات لا تستثمر .

أقول هذا وفي ذهني معلومات عن عدد الجامعيين من الطلاب ، لا من الأساتذة . إنهم أكثر عدداً في سورية الآن منهم في فرنسا نفسها عام ١٩٣٩ ، وبينهم كل انواع المختصين ، من الهندسة الذرية ، الى علم الاجتماع ، أفيمكن الا يستطيع هؤلاء بناء حضارة صناعية كالتى كانت في فرنسا عام ١٨٥٠ أو عام ١٩٠٠ ؟ ولاريب أن في مصر خمسة أمثال عدد الطلاب والمتخرجين والأساتذة الجامعيين في سورية ، أفيمكن الا يستطيع هؤلاء أن يجعلوا بلادهم على مثال ايطاليا عام ١٩٠٠ أو المانيا عام ١٨٨٠ – ١٨٩٠ ؟

إن من الصعب أن يفهم الانسان ذلك . ولكن الواقع يوضح ان بلدينا لايزالان متخلفين عن مستوى أوروبا عام ١٩٠٠ ، وكذلك كل الدول العربية ، نفطية كانت أم

غير نفطية .

وهنالك طبعاً من يقول : إن الحضارة بنت تطور طويل ، لابد من قطع مراحله ، خطوة فخطوة ، ومن الصعب أن يتم ذلك كله فى غضون خمسين أو مئة سنة . وهذا صحيح من حيث المبدأ ، لأن تقدم العلم فى الغرب كان هو الذى صنع الحضارة الغربية ، وكان مسار العلم ومسار الحضارة متوازيين . وكان تقدم العلم بطيئاً نسبياً ، ولئن تضاعف حجم المعرفة مرتين منذ الميلاد حتى عام ١٥٠٠ ، ثم تضاعف مرة أخرى بين عام ١٥٠٠ و ١٨٠٠ ، وثالثة بين ١٩٠٠ و ١٩٤٥ ، ورابعة بين عام ١٩٤٥ و ١٩٦٠ ، وخامسة بين ١٩٦٠ و ١٩٦٨ ، فانه كان لابد من أن تتضاعف الحضارة الصناعية على هذا النسق ، وببعض التأخر أيضاً . أما عندنا فانه لا مجال لانتظار تقدم العلم . فهذا قد صنعه الآخرون ، ويكفينا جيل واحد من الأذكياء لتمثل كل أو أكثر علوم العصر ، على نحو ما فعل اليابانيون . وأما التراكم الراسمالى ، والسوق الداخلية للصناعة مما يعتبر لدى بعض المنظرين شرطاً لنمو الحضارة الصناعية ، وحاجة ذلك كله الى التراكم الرأسمالى ، فاننا نحمد الله على أن هذه الشروط متوفرة موضوعياً ، ولا حاجة بها لشىء آخر غير انعكاسها فى النفوس ، أعنى أن ندرك ، نفسياً ، توفر هذه الشروط موضوعياً .

كل شىء إذن مهيأ لنمو الحضارة . فاذا كانت خطاها تتعثر عندنا ، فلأن «إنساننا» ، والانسان المسئول خاصة ، لا يحسن استثمار هذه الشروط الموضوعية .. وعبثاً نملك أرضاً خصبة ، إذا لم يكن هنالك من يريد استثمارها ، أو من لا يحسن هذا الاستثمار . فلو قيل إن التخلف طبيعى فى بلادنا فى العشرينات ، والثلاثينات والأربعينات ، وحتى الخمسينات ، لكان هذا القول صحيحاً جداً ، أما أن يبقى هذا التخلف حتى الآن ، فهذا هو الأمر اللامعقول واللاطبيعى ، لا فى سورية وحدها ، بل فى أكثر من بلد عربى واحد . ولئن عذر التخلف فى بلاد أخرى ، ينقصها المال ، أو الأرض ، أو الأنهار ، أو الماء ، لما وجد له عذر عندنا ، بأية حال . فكأن هنالك عوائق مضافة ، أو مصطنعة ، أو مخترعة ، أو لنقل هنالك ما يشبه اللاعزم أو اللاارادة أو التآمر على التقدم .

التعبير عن الذات

لابد إذن من «إخلاء سبيل» المبادرات الفردية ، ومن دراسة أفضل الحدود التى يفرج فى إطارها ، عن «حرية المواطن» ولاسيما حرية التعبير عن الذات ، سواء أتجلت هذه الحرية فى التعبير المقول ، أو المكتوب ، أم كانت فى القيام بالمشاريع بحفز من الدولة ، أو بالاستغناء عن هذا الحفز ... وبصورة علمة لابد من التخلى عن المستبقات الايديولوجية التى لا تبرهن ضرورة التطور على سلامتها ، وبكلمة أفضل وأوضح لابد من عقلنة الحياة العامة ، وإبعادها أكثر ما يمكن عن عالم الرغبة والنزوة والهوى والميل وكل ما هو ذاتى لا يخضع للمقاييس الموضوعية . ولو رحنا نتقصى خطوط التطور المتوازية لوجدنا ، أول ما نجد ، توازياً شبه كامل بين كبت الحريات الفردية ، وبين الهبوط المتزايد فى هوة التخلف ، وبين التزايد فى غلبة النزوات الفردية ، وضعف العقلانية فى الحياة العامة ، وتصلب الشرايين الفكرية .

وأنا أعرف أن جانباً ما من جوانب الحياة العامة ، سيظل أرعن ، أهوج ، مفعماً بالطيش واللاعقلانية ، وأن فى هذا الجانب ما يكفى ويزيد عن حاجة الطائش والأرعن . ولا أطالب ، تبعاً لذلك إلا بشىء من العقلنة يزيد عن حصة «الجهلنة» . فاذا انتفى ذلك ، فاقرا على التقدم السلام .

الفارس العربى المنهك !

ولقد قضيت شطراً كبيراً من حياتى وأنا أدرس الفلسفة والعلوم الانسانية فى الثانويات والجامعة ، وكانت الصفوف التى أدرس فيها صغيرة تارة ، وكبيرة أخرى . ولكنى لم أجد فى حياتى مرة واحدة ، صفاً واحـداً بلا طلاب أذكياء ، وآخرين على شىء من الغباء . وعندما أنظـر إلى الدول العربية الثلاث والعشرين ، على ما أظن ، ولا أجد واحدة منها متقدمة بوضوح على غيرها . فسرعان ما أقول فى نفسى : هذه الدول كلها تشبه أى صف فى أى مدرسة ، أفيمكن أن يكون كل طلابه متواضعى الذكاء ؟ لئن صح هذا فانه يتنافى كل القوانين الطبيعية . وعلى ذلك فانه ليست الحضارة هى الصعبة ، أو المستحيلة ، وليست عقولنا هى الكسيحة أو الغبية ، وليست الامكانيات العامة هى المفقودة .. ولكن كل ما فى الأفق يشير الى أن التقدم معطل بشىء ما قد أستطيع تحديده ، ولكنى أؤثر أن يكون هذا التحديد من عمل جماعة مختصة .

وأخيراً فليست الحضارة كلها تقدماً فى الصناعة ، أو فى الانتاج ، أو فى مقدار الدخل المتوسط ، على ما لهذه القرائن من دلالة كبيرة ، ولكنها كذلك قيم ، وصور تعامل انسانى ، وهدوء بال ، وراحة نفس ، واطمئنان على الغد ، وحد أدنى من الخوف ، لا حد أعلى ... فان فقدنا «حسنى» الحضارة الصناعية ، فلا أقل من أن لانفقد «حسنى القيم .. أمـا الاستغناء عن الحسنيين معاً ، والكبت من الداخل والخارج ... فذلك كثير وخطير ... ولا أدرى إن كان تاريخنا لم يهب أجدادنا كل أنواع الشر فلم يمنعهم بأكبر الأذى ... ولعله قد آن الأوان لطى صفحة الشرور المتلاحقة ، لنوازن بعض الشىء بين أيام الشر وأيام الخير ، أيام الشقاء وأيام الهناء ، أيام البؤس وأيام الأنس ... فاذا لم يئن هذا الأوان ، فينبغى أن نعرف كم من القرون يجب علينا أن نقضيها فى الشقاء ، بعد القرون الماضية ؟ .. وكما قالت مرة أسماء بنت أبى بكر الصديق ، بعد أن طال صلب ابنها عبد الله بن الزبير : أما آن لهذا الفارس أن يترجل ، فيجب ، أو قل لعله يجب أن نتساءل ، وقد طالت أيام الشقاء علينا ، ترى أما آن لهذا الفارس العربى المنهك أن يستريح ؟

حافظ الجمالى
دمشق

فـــؤاد كـــامـــل



كثر الحديث فى الآونة الأخيرة عن وضع نظام اقتصادى عالمى جديد . وقد نشأت الحاجة إلى وضع هذا النظام نتيجة للهوة العميقة الواسعة ، التى تزداد عمقاً واتساعاً على مر الاعوام ، بين الدول الفقيرة والدول الغنية ، أو بين الدول النامية ـ دول العالم الثالث ـ وبين الدول المتقدمة صناعيا ، أو بين الشمال والجنوب كما يقال اليوم إيثاراً للبساطة فى التعبير .

وقد عقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى سبتمبر من هذا العام دورة خاصة لمواصلة الحوار بين الشمال والجنوب بهدف حل للشكلات المعلقة بينهما ، وكان من المقرر ان تستمر هذه الدورة عشرة ايام ، ولكنها امتدت إلى اسابيع ثلاثة على امل التوصل إلى شيء .. وانفضت اخيرا دون ان تبلغ مما ارادت شيئا ، اللهم إلا الاتفاق على عقد دورات اخرى وإجراء مزيد من المناقشات ، ومزيد من الحوار.

وعندما يطرح موضوع للمناقشة على مائدة المفاوضات بين الأغنياء والفقراء ، فمن المتوقع دائما ، كما تقضى بذلك طبيعة الاشياء ، ان يكون الاغنياء هم المتحكمون فى سير المفاوضات ، وفى مصير الفقراء الذين يجلسون معهم ـ غير متكافئين ـ على مائدة واحدة . ومن المتوقع ايضا ، أن تكون المعونة التى يتكرم بها الاغنياء على الفقراء هى محور الازمة ، وهى مفتاحها فى آن واحد .. وتقديم مزيد من المعونة والمساعدة هو بلاشك مطلب البلدان الفقيرة تتقدم به فى توسل ورجاء ، أو بالحاح وإلحاف ، حسب الظروف والأحوال ، إلى البلدان الغنية . ولكن ، هل هذه هى الصورة الوحيدة ، أو الصيغة الواحدة التى ينبغى أن يكون عليها الموقف بين الشمال والجنوب ، بين دول العالم المتقدم الغنية ، وبين دول العالم الثالث الفقيرة ؟ وما هو « المبدأ » الذى يتحكم فى هذا الموقف والذى يدفع الدول الكبيرة إلى تقديم المساعدة للدول الصغيرة ؟ أهو المصلحة ؟ الا يمكن أن يكون ثمة « مبدأ » آخر غير المصلحة ، دافعا إلى تقديم يد العون من هذه إلى تلك ؟ الا يمكن أن يكون هناك « حق » للدول الفقيرة على الدول الغنية فى طلب المعونة ، يجعل هذا الطلب صادرا عن عزة وكبرياء ، لا عن ذلة واتضاع ؟ أو فى عبارة موجزة : هل يمكن ان تصدر الدول الكبرى فى موقفها من الدول الصـــغرى عن « التزام اخلاقى » يلزمها بتقديم المساعدة طائعة مختارة لا تبغى مصلحة ولا نفعا ، بدلا عن تقديمها مجبرة مكرهة بحكم تبادل المصالح والمنافع ، وإذعانا لموازين القوى ، وانصياعا لشهوات السيطرة والهيمنة والاستعلاء ؟ هذا ما نحاول ان نجيب عليه فى هذا المقال ، معتقدين ان الكلمة المكتوبة هى فعل فى حد ذاتها ، او هى سلاح ، فإن لم تكن فعالة بما فيه الكفاية ، فهى على أضعف الايمان دالة على قدر الإمكان .

المعيـــار الأخلاقى

لا جدال فى ان دافع « المصلحة » هـــو الدافع الرئيسى فى العلاقات الدولية ، ولم يكن للدافع « الاخلاقى » اية سيادة او سيطرة فى مجال هذه العلاقات إلا فى النادر من العهود ، والقصير من الحقب . وليس عصرنا الحاضر بدعا فى العصور ، فما زال « دافع المصلحة » هو سيد الدوافع وهو سلطانها ، ولكن الجديد حقا هو ظهور نوع جديد من المفكرين ينادون بالنظر إلى عملية المعونة على انها عملية اخلاقية إنسانية فى المقام الاول ، بعد ان كان النظر إليها مقصوراً على انها عملية سياسية اقتصادية ، وبالتالى فانهم يضفون عليها « قيمة إبداعية » ، بعد ان كانت مجرد قيمة « مالية » او « نفعية » ، وبهذا تتخذ عمليـــة « التنمية » معناها الاصطلاحى الحقيقى ، بأن تكون تطويراً وتقدما للشعوب والأفراد لا مجرد نمو للموارد والانتاج ، وهو ما يستهدفه رجال التخطيط ويعتزون به ، وتصبح عملية التنمية حينذاك علاقة جوهرية بين الانسان والانسان ، إنسان العالم المتقدم وإنسان العالم النامى ، لأن الانسان هو الانسان فى كل زمان ومكان ، وهنا يكون إلهاب الحماسة ، وإثارة المشاعر الانسانية والبواعث الوجدانية أهم الجوانب فى عملية التنمية ، ويكون الهدف الرئيسى هو إقامة « المجتمع العالمى » و « الحضارة العالمية » .

وفى الوقت الذى ترتفع فيه هذه الأصوات الانسانية داعية إلى « التضامن العالمى » ، منادية بمزيد من الترابط بين شعوب العالم متقدمها ومتخلفها ، غنيها وفقيرها ، تتعالى اصوات اخرى فى الدول الكبرى تستحث حكوماتها على تخفيض برامج المعونة الخارجية ، وعلى التركيز على الانفاق الداخلى وحل المشكلات الداخلية اولا وقبل كل شيء . وعلى أساس هذه الدعوة الأخيرة اخـــذت المساعدات الحكومية التى تمنحها الدول الكبرى للدول الصغرى تتناقص وتنكمش ابتداء من عام ١٩٦٨ ، وبعد ان كان اسهام هذه الدول فى مساعدة الدول النامية يمثـــل ٥٤ر ٪ من دخلها القومى فى ســـنة ١٩٦١ ، انخفض فى سنة ١٩٧١ إلى ٣٩ر ٪ من ذلك الدخل ، وهذه هى الأرقام التى وردت فى تقرير بيرسون الشهير الذى اشار أيضا إلى ان برامج المعونة الخارجية تتم فى جو « مثقل بالريبة وانقشاع الوهم » .

ذلك أن الدول الكبرى كـــانت تحتضـــن « أوهاما » معينة تصبو إلى تحقيقها وراء ما تقدمه من معونة . كان تبدد هذه الأوهـــام نابعا من الكشف عن « حقائق داخلية » اخرى فى تلك البلدان المتقدمة نفسها . إذ تكشف الامر عن وجود « جيوب من الفقر والبطالة » قابعة فى أعماق مجتمعاتها ذاتها ، وكان التفاوت بين الجماعات والطوائف فى المجتمع

الواحد ، وهو تفاوت يزداد شدة وحدة مع السرعة التى تنمو بها تلك المجتمعات فى مجال التقدم الصناعى ـ حافزا على « التمركز القومى » لتلك الدول ، انعكاسا « للتمركز الذاتى » الذى تتخذه تلك الطوائف والجماعات دفاعا عن مصالحها وذودا عن منافعها ، وتطلعا إلى الرفاهية التى تنعم بها الطبقات العليا من تلك المجتمعات فى الشرق والغرب (وما احداث عمال بولندا ببعيدة ، وكذلك ثورة الطلاب واضرابات العمال المتلاحقة فى العالم الغربى) . وكان هذا الانسحاب إلى القومية والذاتية والانانية من جانب الدول الكبرى مدعما بادراك نوع من الجحود الذى لقيته جزاء معونتها للدول الصغيرة ، وكانت تامل بوعى قل او اكثر ـ أن تعود عليها هذه المعونة بشىء من الفائدة بعد أن تشرع الدول النامية فى التقدم ، وتكون هذه الفائدة على هيئة اعتناق لافكارها ، ولطريقتهـــا فى العيش ، واسلوبها فى الحياة ، اى ان تحالفهـــا فى السراء والضراء ، بيد ان الأمر جاء على غير ما تتوقع ، إذ قامت فى تلك الدول الصـــغرى سلسلة من الثورات والانقلابات والصراعات . وهكذا انتهت الدول الكبرى إلى هذه النتيجة وهى انها قد اضاعت اموالها فى غير طائـل ، واستثمرتها فى غير عائد .

وهنا اخذت الدول الكبرى تتساءل عن دوافعها إلى تقديم المعونة . إن الهـــدف الذى تزينه لها المحافل الدولية هو مساعدة الدول النامية على تنفيذ خططها للتنمية . وها هى تبوء بالفشل فى إنجاز تلك الخطط بالاضافة إلى ما قدمناه من أسباب دفعت الدول الكبرى إلى تخفيض معونتها . ولكن هل يتوقف الأب فى الانفاق على ابنه إذا رسب فى احد الامتحانات ؟ هل يحجم المواطن عن ولائه لوطنه لمجرد ان حكومته تنتهج سياســـة اقتصادية او خارجية لا ترضيه ؟ بالطبع لا ، ولكن هذا هو ما يحدث فى العلاقات الأصيلة التى لا تنفصم عراها ولا تتغير مهما تعاورت عليها التقلبات ، وطرأت عليها الأحداث ، وهى التزامات غير قهرية تنبع من الذات ، ويقبلها المرء راضيا مختارا .

فهل يمكن ان تقوم بين بلدان العالم هذه العلاقة الحميمة من الالتزام الاختيارى الذى يترابط به افراد مجتمع واحد لا انفصـــام للعلاقات التى تقوم بين بعضـــهم والبعض الآخر ؟ وبعبارة اخرى : هل يمكن ان تقوم المعونة على « أساس دائم » لا يخضـــع للمتغيرات والتقلبات التى تطالعنا بها وسائل الإعلام صباح مساء فى انحاء العالم كله : شرقه وغربه .. شماله وجنوبه ؟

وهنا تبرز للعيان حقيقة لا ريب فيها وهى ان بلدان العالم لم تلتزم بعد بقانون اخلاقى يتحكم فى تصرفات بعضها تجاه البعض الاخر فحتى مع وجود دستور للأمم المتحدة وقوانين تخضع لها العلاقات الدولية هذا الدستور ، وتلك القوانين ليست معتمدة فى السلوك الفعلى للدول . وهذا راجع إلى تنازع المصالح وتضاربـها من جهـــة ، وإلى اختــــلاف الايديولوجيات والاديان والثقافات من جهـــة اخرى . والسؤال المطروح الآن هو : هل يمكن ان ينبع من تلك العقائد المختلفة « التزام واحد » وإن اختلف التعبير عنه فى كل منها ؟ هل هناك « امر مشترك » واحد بين شـــعوب الأرض جميعا ، « امر عالمى » يمكن ان يواجه « تحديا عالميا » ؟ هل هناك « معيار اخلاقى » واحد يمكن ان تتخذه دول العالم قاطبة وتؤمن به ؟

ثلاثة مواقف

والحجج التى تساق لتقديم المعـــونة إلى الدول النامية تنبع من ثلاثة مواقف اخلاقية :

● الصدقة او الاحسان : بمعنى ان يتصدق الغنى على الفقير لكى يتخفف من شـــعوره بالذنب ، ويتخلص من تانيب الضمير ، ويخفف فى الوقت نفسه من الام الفقراء الذين يعترضون سبيله ويشعرون نحوه بالحسد . وتنظر المجتمعات التقليدية إلى الفقراء بوصفهم ضحايا ابرياء لنظام محتوم للاشياء ، فهى تنظر إلى الفقر نظرتها إلى الكـــوارث الطبيعية التى تقع قضاء وقدرا ، ومن ثم لا يمكن القضاء على الفقر قضاء مبرما . وإنما من الممكن تخفيفه فحسب .

● المسئولية تجاه الفقراء : بمعنى أن يشعر الرجل الغنى بانه مسئول إلى حـــد مـــا عما يعانيه الفقير من فقر ، وبالتالى كان لزاما عليه ان يمنح الفقير نسبة ضئيلة من ثروته التى لو احسن توزيعها ، لكانت كافية لتلبيـــة احتياجات الجميعهنا كانت الدعوة إلى العدالة الاجتماعية فى توزيع الثروة ، وقيام الجمعيات والهيئات الخيرية التى تهدف إلى تصـــحيح التفاوت بين الفقراء والأغنياء .

● اتقاء العنف من جانب الفقراء : ذلك أن الجماهير الفقيرة يمكن ان تلجا إلى أعمال العنف تجاه الاغنياء ، مدفوعة بياسها من حالة الاملاق التى تعانيها . وتتوقى طبقة الاغنياء هذا العنف الذى قد تلجا إليـــــه « الطبقات الخطرة » بالتنازل عن اجزاء من ثروتها .

وفى الحالات الثلاث تكون الدوافع إلى تقديم يد العون للفقراء هى على التوالى العطف والشعور بالذنب والخوف ، وهى بلاشك دوافع تمد جذورها العميقة فى الضمير الانسانى والنفس البشرية ، وكان لها تاثيرها الذى لا سبيل إلى إنكاره على الراى العام فى الدول المانحة للمعونة . وثمة قطاع من الناس فى تلك الدول يندفع متطوعا متبرعا بطاقته واحيانا بحياته لتقديم معونة منزهة عن الغرض ، وهو يعتقد أنه إنما يفعل ذلك علاجا للشرور الذى ارتكبتها امته فى استعمارها للبلدان الفقيرة او كانت مسئولة عنها . فلا جدال فى أن شطرا كبيرا من التخلف فى العالم الثالث يرجع إلى استنزاف الاستعمار لموارده الطبيعية . وكبت حريات ابنائه وتعطيل نموهم الثقافى والمادى والروحى .. الخ . فكان طبيعيا ان تشعر الدول الامبريالية بشعور من الذنب تجاه مستعمراتها السابقة ، وبرغبتها فى اصلاح شىء مما افسدته . ولا يقتصر هذا الشعور على الدول الاستعمارية الكبرى ، بل يشمل ايضا الدول الصناعية المتقدمة بوجه عام التى اعتمدت فى تنمية مجتمعاتها على تصدير منتجاتها إلى البلدان النامية واستيراد المواد الخام من تلك الدول بابخس الأسعار ، واستغلال الأيدى العاملة فى صناعاتها وحروبها على السواء . ولعل اسوا مثل على هذا الموقف هو تجارة الرقيق التى كانت تمارسها الدول الغربية الكبرى . وهى الدول التى تعد مسئولة عن افقار افريقيا السوداء ، كما كانوا يسمونها . وعلى الرغم من انحسار الاستعمار عن معظم دول العالم ، فقد ظلت تلك الدول تدور فى فلكه إقتصاديا وثقافيا ، إن لم يكن سياسيا ، ومازالت معتمدة فى تحقيق اهدافها الانمائية على الدول المتقدمة صناعيا ، ولهذا كانت شروط التبادل الاقتصادى مجحفة ـ بوجه عام « للدول النامية ، ذلك ان الـــدول الكبرى تاخذ المواد الخام من البلدان النامية باسعار غير ثابتة تحددها الاحتياجات الموقتة للدول الغنية ، ثم تبيع منتجاتها المصنعة من تلك المواد الخام باسعار أعلى من الأسعار

● لاجدال في أن "المصلحـــة" وليس "الأخلاق" هي الدافـع الرئيسي في العلاقـات الدوليـــة

● الدول الكبرى تحتضن أوهـامًا معينـة تصبـو إلى تحقيقـها وراء ما تقـدمه من معـونـــة

السائدة فى الدول المتقدمة حيث تؤدى المنافسة إلى إغراق الاسواق بتلك السلع ، وموجز القول ان البلدان النامية تلعب دورا ثانويا فى عملية السوق العالمية ، على حين تربح الدول الغنية ربحا إضافيا من البلدان النامية ، عند طرفى الدائرة الاقتصادية بائعة ومشترية .

الشعور بالذنب

اضف إلى ذلك ان الثقافة الغربية مسئولة إلى حد كبير عن الدعوة إلى العقلانية التاريخية والتقدم التكنولوجى ، مما حدا بدول العالم كله ــ ارادت ذلك او لم ترد ــ ان تاخذ بأسباب التقدم الحضارى فى الاطار الذى رسمته الثقافة الغربية ، اعنى إطار « العلمنة والتصنيع » . فاذا أراد الفكر الغربى ان يكون متسقا مع نفسه ، فينبغى عليه ان يقبل نتائج تلك النزعة العالمية الشاملة » التى جعلها من مبادئه .

بيد ان الشعور بالذنب لا يمكن ان يدوم طويلا ، لانه من المشاعر التى يود المرء التخلص منها سريعا ، وبالتالى فان المتهم يصبح متهما ، ويقوم بتوجيه النقد إلى البلدان التى سبق ان استعمرها لانها لم تستطع ان تفيد من استقلالها . والعطف نفسه يمكن ان يكون دافعا إلى الضجر والملل ، بل إن البلدان موضع العطف تميل إلى التخلص منه لانه مهين لها محقر لشانها . وكذلك الخوف لا يمكن ان يستمر حافزا على المعونة ، وقد يؤدى الخوف من العنف إلى اصطناع العنف . ولهذا لا يمكن ان يقوم « التزام اخلاقى » دائم على هذه الأسس العاطفية الثلاثة التى تتسم بالتقلب والتحول والوقتية .

و « الالتزام الأخلاقى » معناه أن نرى كل حياة إنسانية جديرة بالاعتبار وأن لكل إنسان علينا حق الاحترام بوصفه إنسانا .

والصيغة التى وضعها « كانت » للامر المطلق فى الأخلاق : « اعمل بحيث تعامل الانسانية فى شخصك وفى اى شخص آخر كغاية لا كوسيلة » ما برحت هى الصيغة التى يقوم عليها « الالتزام الأخلاقى » تجاه الآخرين. فهل يمكن ان يكون هذا القانون الأخلاقى هو نفسه القانون الذى تتاسس به العلاقة بين الدول ؟ قد يكون من المفهوم ان يلتزم الفرد فى مجتمع ما بهذا القانون الاخلاقى تجاه مواطنيه نظرا لوحدة المصير المشترك التى تربط بين ابناء الوطن الواحد . ولكن ، كيف نقنع فرداً فى دولة متقدمة بان يلتزم بهذا المبدأ نفسه تجاه بلد متخلف ، وان ياخذ نفسه بشىء من التضحية من اجل ابناء بلد لا ينتمى إليه ؟

نحو سلام دائم

إن للامر المطلق الذى وضع « كانت » صيغته المشار إليها صفة الشمول والكلية ، ولكنه من حيث التطبيق فى العلاقات الدولية فانه يحتاج إلى قيام حكومة عالمية ، وهذه الحكومة العالمية مازالت حلما طوباويا لم يخرج بعد إلى حيز الواقع . ولهذا يقترح « كانت » فى كتابه « نحو سلام دائم » ان تبرم دول العالم فيما بينها « عقدا اجتماعيا » مع احتفاظ كل منها باستقلالها وسيادتها ، ويتاسس على هذا العقد حق جديد هو حق « المواطنة العالمية » وهو شرط مبدئى ينبغى ان يتحقق قبل أن تتمتع كل دولة ــ وبالتالى كل فرد ــ بسلام دائم بدلا من ان تظل دائما عرضة للقرارات المتعسفة وللتهديد بالحرب .

كان ذلك فى القرن التاسع عشر . اما فى عصرنا الحالى فان اشتراك دولة ما فى القانون الدولى يتطلب شروطا اقتصادية واجتماعية معينة وتتضمن هذه الشروط اقصى استغلال ممكن لمواردها من جهة ، وزيادة فى حجم تجارتها من جهة اخرى . ومن ثم لم يعد السلام مجرد تهيئة الظروف السياسية التى تسمح للدول بعقد اتفاقات تجارية فيما بينها ، بل إنه يقتضى إقامة النظم والمؤسسات واتخاذ الوسائل التى تتيح للدول كافة ــ وبخاصة الدول النامية ــ ان تستغل مواردها افضل ممكن بمساعدة الدول الأخرى ، وهكذا لم يعد السلام مطلبا سلبيا بتجنب الحرب ، بل اصبح مطلبا إيجابيا ينشا عن تنسيق او تنغيم تطلعات الدول المختلفة التى يسعى كل منها إلى تنمية نفسه بطريقته الخاصة . وبذلك لا يتوقف السلام على التجمعات بقدر ما يتوقف على الترابطات الديناميـة التى تستهدف غايات إنمائية متبادلة .

وكما نعلم ان التخصص قد اصبح سمة من سمات العصر الحديث بين افراد الأمة الواحدة فكذلك يمكن ان نعده سمة من سمات الامم المختلفة داخل الاطار العالمى ، بحيث اصبح احتياج الامم بعضها إلى البعض الآخر حقيقة لا مراء فيها لا نستثنى من ذلك امة كبيرة او صغيرة . ولهذا يفترض التعاون بين الدول ترشيداً لاستخدام موارد العالم لرفع مستوى الأمم والأفراد فى آن واحد ، وبالتالى تكون التنمية هى المبدأ وهى الغاية من تقديم المعونة ، ويكون الاساس الذى يقوم عليه القانون الدولى ــ من ناحية التطبيق العملى ــ هو الرغبة المتبادلة فى التنمية . فلو أن التفاوت بين البلدان المتقدمة والبلدان النامية اخذ يتزايد لاستحالت التجارة بينهما ، ولتوقفت العلاقات الدولية تماما ، واصبح الجو مهيئا لنشوب الحروب ، وسيادة الهمجية

ومساعدة الشعوب الاخرى على التنمية معناه إعانتها على تأسيس حقها فى الانضمام إلى عضوية المجتمع الدولى التى لا يمكن بدونها أن تتمتع الدول بسلام دائم ، وحياة مستقرة . والبديل الوحيد لهذه النزعة الانمائية الشاملة هو هيمنة دولة كبرى على العالم أو التنافس على هذه الهيمنة بين اكثر من دولة ، وبالتالى العودة إلى استعمار الشعوب التى ظفرت حديثا باستقلالها ، او لستعمار شعوب لم تعرف الاستعمار من قبل .

إحياء الناس جميعا

وهذا هو ما يدفعنا إلى القول بان الدول الكبرى حين تساعد الدول الصغرى فانما تساعد نفسها فى حقيقة الامر من حيث انها تنتمي إلى مجتمع دولى واحد ، وتشارك فى سلام منشود ، ولهذا الغرض انشات الامم المتحدة ومنظماتها ووكالاتها الدولية المتخصصة ضمانا وتنظيما للعلاقات المتبادلة السليمة بين الدول المانحة والدول المتلقية . ومهما تكن العثرات والعقبات التى تعترض طريق هذه المؤسسات الانمائية الدولية والوليدة ، فانه لا مندوحة عن الاعتراف بانها تتحدث باللغة العالمية الوحيدة التى تتجاوز حدود القوميات والايديولوجيات وبانها تمثل البدايات الصحيحة على طريق المجتمع العالمى الجديد .

وكما أن « الالتزام الأخلاقى » يخلو من مضمونه ، ويتجرد من معناه ان لم يخرج الى مجال التطبيق والفعل ، فانه لا يتقدم فى مسيرته ان لم تزدد الدائرة التى يشملها اتساعا . فالمتتبع لتاريخ التقدم فى الأخلاقيات البشرية يجد أن هذا التقدم يتم على هيئة توسع وامتداد للواجبات والالتزامات لتشمل تجمعات بشرية أوسع وأكبر . القبيلة ،

الطائفة ، المدينة ، الأمة ، الدولة ، العالم كله ، وهذا ما يمكن أن نسميه التقدم الأفقى للأخلاقية ، وأن يكون من الواجب أن يواكبه تقدم راسى ، أى تقدم فى طبيعـــة الأخلاقيــة نفسها حين تزداد عمقا وتعقيدا . وربما لمسنا هذين الاتجاهين للتقدم الأخلاقى فى هذه الآية الكريمة من سورة المائـــدة : « من اجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس او فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعا ..... » (آية ٣٢) .

الالتزام الأخلاقى يمكن أن يكون إذن رسالة ذات شعبتين : تحقيق الذات والمساعدة على إحياء ذوات الآخرين ، أو بمعناها الشامل إحياء الناس جميعا . وهنا لا تكون التنمية مجرد نشاط خارجى ، أو واجب على المجتمعات أن تؤديه ضمن سائر الواجبات الأخرى ، بل تصبح ضرورة مرتبطة بماهيــة الانسان وحريته ورسالته الروحية ، وتعبر حينئذ عن طموح الانسان إلى النمو والتقدم والكمال ، فلا تكون التنمية مجرد واجب أخلاقى قائم على أساس مبادىء أخلاقية معينة ، بل تكون هى الموقف الأخلاقى نفسه بلا منازع ، من الذات ومن الانسانية ككل .

ويقتضى هذا الموقف الأخلاقى أن نساعد الآخرين على أن يصبحوا أكثر إنسانيـــة ، والمساعدة معناها تقديم الوســـائل وتوفير السبل . ولا يكون ذلك إلا بالعمل على استخدام الموارد الطبيعية لصالح البشرية جمعاء ، وتنمية الثروة وتوزيعها بالقسط على الناس ، فالمطلوب هو إضفاء الطابع الانسانى على ضروب التبادل الاقتصادى الدولية بحيث تتجاوز النظرة الحسابية الضيقة ، نظرة الربح والخسارة ، وأن نجرى أنواعا أخرى من

● إن الخطوات التي يخطوها العالم الآن نحو التعاون تدل على أن البشرية تتقدم على جبهة واحدة لمواجهة خطر مشترك

التبادلات تكون أكثر اتساعا وتنوعا من التبادلات القائمة حاليا . وبفضل هذه الأنسنة ـ إن صح هذا التعبير ـ تفقد السلع تدريجيا أهميتها الكمية والنقدية لتصبح علامات على النشاط الابداعى ودعوات للحوار الاجتماعى ، والمعرفة ، والحياة الحافلة بالحيوية والتنوع . وتصبح الرغبة فى العطاء ـ وهى من أهم الدوافع الانسانية ـ أساسا من أسس الاقتصاد الدولى ، على ألا يفهم هذا الدافع بوصفه مرادفا للاحسان ، بل بوصفه مقوما من مقومات الروح الانسانى ، وعنصرا أساسيا من عناصر النزعة الغيرية فى الانسان . وهــــذا الاقتصاد الجديد يدفعنا إلى التخلص من اقتصادنا القديم القائم على التنافس ، ويشمل تدريجيا على أمور لا سبيل إلى التعبير عنها بالأرقام كالعلاقة بين الأفراد والعلاقة بين الأمم ، وأسلوب الحياة ، وتقدم الثقافة ، والسعادة والحرية .. الخ . ولم تعد هذه الأمور كلها الآن مجرد أحلام طوباوية ، وذلك أن الوسائل التى أصـــبحت فى متنـــاول التكنولوجيا بلغت حدا من القوة يجعلها مؤدية إلى الخراب والدمار إن لم توجه إلى التنمية المشتركة . فمن الممكن توجيه الصناعة المتقدمة وبخاصة الصناعة النووية إلى الأغراض العسكرية أو الأغراض السلمية على حد سواء وهذا إنذار كاف للبشرية : ألا تتوانى فى الاختيار بين الفناء الشـــامل أو الخـــلاص الشامل .

بين التنمية والتقدم

وهذا الطابع الحيادى للتكنولوجيا يجرنا إلى تفرقة هامة بين التنمية والتقدم . فقد يحدث فى كثير من الأحيان أن ينشىء الاستعمار من الأنظمة وينشر من المعرفة والعادات ما يؤدى إلى « التقدم » التقنى ، بيد أن هذا التقدم لا يتجاوز حدود الاستيعاب أو المحاكاة أو التبعية . أما التنمية فهى استغلال القيم والامكانيات الخاصة بكل شعب على حدة ، وهى تفترض الايمان بقدرة كل المجتمعات على استخدام « أدوات » التقدم لصالحها . فليس من الضرورى أن يكـــون النموذج الغربى ـ أى الاستجابة الغربيـــة للتقدم التكنولوجى ـ هو المعيار المحتوم لكل تنمية . وهذه التفرقة ضرورية للتمييز بين المساعدة الحقيقية على التنمية والمساعدة التى يتستر وراءها الاستعمار لاستعادة سيطرته على دول العالم الثالث . والتضامن ليس مرادفا للتجانس بل إن التنوع هو أساس التبادل النافع بين الشعوب . والشعب المتمسك بتقاليده ، المدرك لشخصيته هو وحده الذى يستطيع أن يقيم علاقة سليمة مع شعب آخر يختلف عنه ، إذ يكون لديه حينئذ ما يقوله . وكثيرا ما يصاحب الطموح إلى التنمية تطلع للبحث عن الهوية ، ورغبة فى أن يكون الشعب ذاته ، فلا عجب أن تكثر فى هذه الآونة الأبحاث المكرسة لقضية التراث فى بلدان العالم الثالث .

ولا يتعارض البحث عن الذات مع الانفتاح على الآخرين ، كما لا تتنافى القومية مع التضامن العالمى ، ذلك المثل الأعلى الذى وضعته الثقافة الغربية لشعوب العالم كافة . فمن التناقض البين إذن أن تأتى الدول الكبرى اليوم فتمتنع عن مساعدة بلدان العالم الثالث التى اعتنقت هذه المثل العليا فى الحرية والاخاء والمساواة بعد أن أوشكت هذه التعاليم أن تؤتى ثمارها ، ولا يمكن أن تعيش أية مدينة إن هى غلقت على نفسها الأبواب ولم تشارك غيرها فى ثمار حضارتها ، خاصة وأنها هى التى عملت على نشر هذه المبادىء ما وسعها الجهد وتحملته الطاقة . فهى عندما تتنكر لمطالب الشعوب الصغيرة فإنما تتنكر لصورتها ، وترفض النموذج الذى أقامته للاحتذاء .

وربما كان هذا التناقض الواضح فى موقف الشمال من الجنوب هو الذى يفسر لنا موجات الاحتجاج الصارخة التى انطلقت من الشباب المثقف فى الدول المتقدمة ضد النظم القائمة . فقد صدمهم فى حقيقة الأمر ذلك التعارض الواضح بين ما ينادى به ساستهم من مبادىء سامية ، وبين ما يمارسونه من سياســـات مكيافيلية . فهناك سباق التسلح والعنصرية والتخلف ، وانقسام العالم إلى أغنياء وفقراء ، كل هذا لا يكف عن وخز ضمائر البلدان الصناعية ، وما سخط الأجيال الشابة إلا علامة على سوء الطوية الذى يضمره الشمال للجنوب . والسؤال المطروح الآن هو : متى تسلك الدول الكبرى سلوكا يتفق مع مبادئها المعلنة ومثلها العليا التى تبشر بها منذ أواخر القرن الثامن عشر ؟

مواجهة الخطر المشترك

إن الخطوات الأولى التى يخطوها العالم الآن نحو التعاون تدل على أن البشرية تتطلع إلى الوحدة ، وأنها تتقدم على جبهة واحدة لمواجهة خطر مشترك . ولن يحقق الأفراد والأمم رسالتهم الخاصة إلا إذا قبلوا التنمية بوصفها مهمة تتجاوزهم وتوحدهم فى آن معا ، وقد أصبح استغلال موارد العالم واكتمـــال الجنس البشرى غايتين لا تنفصل إحداهما عن الأخرى ، وصارت المساعدة الانمائية ضرورية للشمال ضرورتها للجنوب .

فؤاد كامـــل





ومـــرّت أربعـــون ســـنـــة : مـي زيـادة حيـاتـهـا ومأسـاتـهـا

بقلم : الدكتور كمال نشـأت

في يوم ٢٠ اكتوبر (تشرين أول) من العام الماضي تكون قد مرت على وفاة الأديبة النابغة «مي زيادة» أربعون سنة كاملة ، إذ أنها توفيت في العشرين من أكتوبر عام ١٩٤١ ، وحيدة منسية .

وعلى الرغم من ألمعيتها ، والشهرة التي حققتها ، في وقت كانت المرأة العربية فيه قعيدة المنزل ، بعيدة عن الاشتراك في الحياة العامة ، فان هذه الشهرة لم تستطع أن توطد لها مكانا بحيث تفرض نفسها على الناس ، فتحتفل بذكراها المجلات والجرائد والاذاعة والتليفزيون كما يحدث لغيرها من الأدباء والمفكرين .

وإننا نتساءل : ايرجع ذلك إلى انها كانت من الكتاب المنشئين الذين كان أدبهم يدور في قالب المقالة والخواطر النثرية كالرافعي وأغلب كتابات المنفلوطي ؟ أيرجع إلى أن كل اهتمامها الأدبي انصب على تصوير خوالج ذاتية وأنها كانت مهتمة ـ إلى جانب ذلك ـ بقضية المرأة العربية ، في فترة أصبحت الآن تاريخاً ، بعد أن شاركت المرأة في الحياة العامة هذه المشاركة الفعالة في مجالات الحياة المختلفة ؟

ربما تكون الاجابة على هذين السؤالين هي السبب ، فان المرحلة التي عاصرتها مي قد ابرزت كثيرا من الكتاب والمفكرين ، ولم يبق التاريخ القريب منهم إلا العمالقة الذين تجاوزوا شكل المقالة والخواطر الذاتية والقضايا العامة الآنية فكتبوا الدراسات والأبحاث كما كتبوا في النقد التطبيقي ، وفي الترجمة المحللة لشخصيات تاريخية كبيرة ، وفي القصة والرواية كما فعل طه حسين والعقاد ، وظل في الحدود الزمنية لهذا الجيل كتاب مرحليون ، كان لهم أثرهم في هذه الحقبة من تاريخنا الأدبي منهم الرافعي والمنفلوطي .

••

ولدت «ماري إلياس زخور زيادة» في الناصرة عاصمة الجليل في فلسطين ، من أب لبناني يعمل معلما ، وأم فلسطينية من الناصرة ، ولم ينجبا إلا ابنتهما هذه ، فكانت «مي» طفلتهما الوحيدة ، اشتغل الأب بالتعليم في هذه المدينة الصغيرة التي نالت شهرة لأن المسيح عاش فيها صباه وفترة من شبابه ومن هنا أصبحت مزارا معروفا . عاشت «مي» ثلاثة عشر عاما فيها ، وقضت أربعة أعوام في معهد للراهبات ، ثم انتقلت إلى لبنان حيث قضت خمسة أعوام في معهد للراهبات أيضا في قرية «عينطورة» وليس من شك في أن جو المعاهد الدينية ـ وكان غالبا في أديره والمدرسات راهبات ـ قد ترك أثره في نفسها الحساسة ، خاصة أنها كانت تحس بوحدة قاسية ، فهي وحيدة والديها .. وهي وحيدة في الدير الذي تغادره الطالبات في المناسبات كالأعياد ، وها هي «مي» تسجل في مذكراتها صورة لهذه الفترة من حياتها .. تقول على لسان (عائدة) وهو الاسم الذي كتبت المذكرات ونسبتها إليه (اخذت «عائدة» تكتب ، ولا سيما أن عيد الميلاد قد دنا ، واخذت أيام العام الأخيرة تسرع نحو هوة العدم

كانت تكتب لأن رفيقاتها الصغيرات أخذن يغادرن الدير ليصرفن الأسبوع بين أهلهن المقيمين في المدينة أو ضواحيها . وعائدة من بلدة بعيدة كل البعد ، لذلك لا يزورها من ذويها في العيد أحد . وستقضي هذه الأيام وحدها بين أولئك النسوة الصائمات المصليات الزاهدات ، اللائي كانت تشعر بأن منهن غير السعيدات رغم امتثالهن الظاهري ، فتودع رفيقاتها الواحدة بعد الأخرى متمنية لهن عيداً سعيداً . حتى إذا مضت آخرهن انطلقت إلى الكنيسة وحجبت وجهها بيديها واجهشت بالبكاء وكـان مساء العيد حزينا ، وجوّه مكفرا ، والدير صامتا كتوما ، مرمريا كالمقابر القديمة يضن بخفاياه ، وكان لعائدة

« إنما حياة الانســان على الأرض جهــاد مستمر رغم كونها محض عبور ورغم اننا نموت فى ذاتنا كل يوم .. »

« مى زيادة »

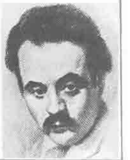
يومئذ أن تفعل ما شاءت دون قانون يقيدها فتقضى اكثر أوقاتها فى غرفة الموسيقى المنفردة فى أطراف الحديقة تخيم عليها الأشجار ذات الغصون العارية . هنالك جلست طويلا والسماء تمطر رذاذاً ، ثم نهضت إلى البيــانو وما كادت تمس أصابع العاج حتى سحبت يدها قائلة : «ما اشــد برد البيانو !» ثم أضافت : بل البرد فى يدى ، البرد فى روحى ، البرد فى وحدتى وغربتى والقت براسها إلى خشب الآلة الموسيقية ، على أن يدا لطيفة اجتذبتها مداعبة شعرها وخدها ، فصرخت الفتاة قائلة «اتركنى» لا أريد أن يشفق علىّ احد لأنى لا أطلب الشفقة ..) .

... إلى القاهرة

وعادت «مى» إلى الناصرة بعد ان انتهت من دراستها فى «عينطورة» ، عادت لتعانى فراغا كبيرا حاولت أن تبعده بقراءات فى الأدب الفرنسى ، فقد كانت تجيد الفرنسية وبعضا من اللغات الأجنبية الأخرى . الا أن هذه القرءات قد توقفت زمناً لانتقال الأسرة إلى القاهرة عام ١٩٠٨ . سافرت الأسرة إلى هذه المدينة التى كانت منارا أدبيا وفكريا على الساحة العربية الكبيرة ، وهناك عمل ابوها فى الصحافة فترة أصدر بعدها جريدة (المحروسة) ، وفى مصر تفتحت مواهب «مى» فابتدأت تكتب فى جريدة أبيها ، وأخذت كتاباتها تظهر بعد ذلك على صفحات الجرائد والمجلات المصرية كما كثر وقوفها خطيبة أو محاضرة فى النوادى المختلفة ، وفى عام ١٩١١ أصدرت ديوانا باللغة الفرنسية أسمته (أزاهير حلم) واختارت اسماً مستعاراً هو «ايزيس كوبيا» ، إلا أن «مى» كشخصية ادبية لم تعرف على نطاق الصعيد الأدبى إلا بعد ان استقبلت كبار الأدباء والمفكرين فى منتداها الأدبى بمنزلها كل يوم ثلاثاء . كانت «مى» فى هذه الفترة شابة متالقة ، جميلة ، لبقة تعرف كيف تدير الحديث ، وكيف تجالس صفوة المفكرين والمثقفين المصريين والعرب الذين كانوا يزورون القاهرة . لقد كان يوم الثلاثاء عيداً للفكر ، ولقاء خصبا للأرواح الخصبة .. لطفى السيد ، وطه حسين ، وعباس العقاد ، وحافظ ابراهيم ، والرافعى ، وإسماعيل صبرى ، والبشرى ، وولى الدين يكن ، ومنصور فهمى ، ومطران ، ومصطفى عبد الرازق ، والمازنى ، وغيرهم .



اسماعيل صبرى



جبران خليل جبران

يقول اسماعيل صبرى ذاكرا يوم الثلاثاء فى بيتين اشتهرا بعد ذلك :

روحى على دور بعض الحى هائمــة
كظامىء الطير تواقا إلى المــــاء
إن لم امتع بمى ناظرى غـــداً
لا كان صبحك يا يوم الثــــلاثاء

ويصف طه حسين هذا المنتــدى الأدبى .. يقول : «كان الذين يختلفون إلى هذا الصالون متفاوتين تفاوتاً شديداً ، فكان منهم المصريون على تفاوت طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية ، وعلى تفاوت أسنانهم أيضا ، وكان منهم السوريون ، وكان منهم الأوربيون على اختلاف شعوبهم وكان منهم الرجال والنساء ، وكانوا يتحــــدثون فى كل شىء ، ويتحدثون بلغات مختلفة بالعربيــــة والفرنسية والانجليزية خاصة ، وربما استمعوا لقصيدة تنشد او مقالة تقرأ ، او قطعة موسيقية تعزف ، أو اغنية تنفذ إلى القلوب . وقد أتيح لى أن اكون من خاصة «مى» بفضل الأستاذ لطفى السيد فكنت اتاخر فى الصالون حتى ينصرف الزائرون ، وما أكثر الليالى التى انصرف فيها الزائرون جميعا ، ولم يبق منهم إلا الأستاذ لطفى السيد ، ومحمد حسن نائل المرصفى ــ رحمهما الله ــ وأنا .. وفى ذلك الوقت كانت «مى» تفرغ لنا حرة سمحة ، فنسمع من حديثها أو إنشائها ، ومن عزفها أو غنائها ..» .

ويقول العقاد عن براعتها فى الحديث كاديبة وسيدة صالون : (لا يحضرنى مثل لذلك أدل على البراعة من إدارتها الحديث فى مجلس حضره نحو ثلاثين كاتبا وأديبا ووزيرا للتشاور فى الاحتفالات بالعيد الخمسين للمقتطف وكان اجتماع هذا المجلس عندها فى إبان المنازعات السياسية التى وصلت بكثير من الكتاب والأدباء إلى حد التقاطع والعداء .. قضينا عندها ساعتين نسينا



فيها أن فى البلد أحزابا أو منازعات سياسية بفضل براعتها فى التوفيق بين الآراء والأمزجة ، وقدرتها على توجيه الحديث إلى أبعد الموضوعات عن الخلاف والملاحاة) .

وعلى الرغم من أن ميا قد أثارت مشاعر زوارها وإعجابهم ، ومنهم من أحبها ، ومنهم من ادعى أنها تحبه ، فإن أحدا منهم لم يجرؤ على مفاتحتها فى الزواج منها ، ولا نستثنى غير المتزوجين .. لا لأنها مسيحية وأغلب المعجبين بها مسلمون ، ولكن لأن ظروف المجتمع المصرى الشرقى فى ذلك كانت تقف سدا قويا أمام هذه الفكرة .

خطرت لى هذه الخاطرة وأنا شاهد فى شهر أكتوبر الماضى فى تليفزيون بغداد مسلسلة عن حياة عباس العقاد أسماها كاتبها عامر العقاد ـ والعقاد عمه ـ «العملاق» . وقد تعرضت المسلسلة إلى علاقة العقاد بمى ، وإذا بالعقاد فى هذه المسلسلة يبدو فى صورة المحب المتحفظ ، والرجل الجرىء فى مخاطبة النساء ، وإذا بمى عاشقة مولهة تذرف الدموع وتطارد العقاد باكية ذليلة .. وهنا وقفت حائرا .. فالمعروف أن الرافعى كان يحبها ويدعى أنها تحبه ، ويقول بعض من كتبوا عن العقاد أنها كانت تحبه ، أما زكى مبارك فقد كان يغص بعطف لطفى السيد على مى ، ويقال إنه كان يُعمل لسانه فى هذه المسألة ، وقد تناولت فى كتابى عن مصطفى صادق الرافعى الذى صدر عام ١٩٦٨ فى سلسلة الأعلام هذه القضية خاصة ما يتعلق منها بالرافعى ، ولكن الذى لاشك فيه هو أن ميا أحبت جبران خليل جبران ، فرسائلها ورسائله دليل مادى على هذه العلاقة الروحية التى قامت بينهما ابتداء من عام ١٩١٢ حين أرسلت «مى» خطابا إلى جبران تعرب فيه عن إعجابها بأدبه واستمرت المكاتبات بينهما حتى قطعتها الحرب الكبرى ثم عادت بعد الحرب لتنقطع بموت جبران عام ١٩٣١ .

مى تعتزل الناس

وبموت يعقوب صروف مرشدها وصديقها عام ١٩٣٠ ، ثم موت أبيها الذى تلاه موت أمها وموت حبيبها جبران بعد هؤلاء اشتدت أزمة وحدتها ، فاعتزلت الناس ، وأدمنت التدخين ، فاهتزت أعصابها وانهارت نفسا وجسدا . وقد حكى لى الصحفى أسعد حسنى منذ سنوات أنه فى هذه الفترة الأخيرة من حياتها ذهب بصحبة سلامة موسى لزيارتها ، ولكنهما فوجئا وهى تفتح لهما باب شقتها بامرأة نال منها الشحوب والهزال وهدمتها شيخوخة مبكرة ، فانصرفا بسرعة منعا لإحراجها .

ابراهيم المازنى



لطفى السيد



وقد سمع أهلها بحالتها المتردية ، فجاء قريبها الدكتور جوزيف زيادة من بيروت وصحبها معه إلى لبنان ، وهناك أدخلوها مستشفى (العصفورية) وهو مستشفى للأمراض العقلية .

واندلعت الحرب العالمية الثانية ، وشغل الناس بأخبارها ، وفى العشرين من شهر أكتوبر عام ١٩٤١ ماتت «مى زيادة» وحيدة ، مكسورة الجناح والمشاعر . وقد أقيم لها حفل تأبين شاركت فيه صفوة من الأدباء ، كان منهم العقاد الذى رثاها بقصيدة قال فى بعض أبياتها :

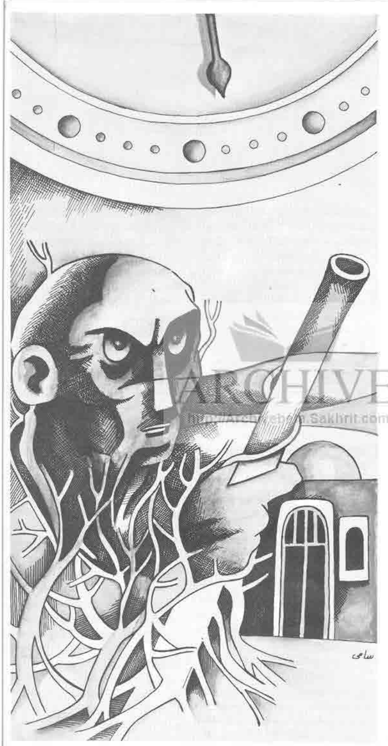
أين فى المحفل مى يا صحاب
عودتنا ها هنا فصل الخطاب
عرشها المنبر مرفوع الجناب
مستجيب حين يدعى .. مستجاب

خلفت «مى» وراءها ١٥ كتابا تدور كلها حول خواطر منثورة أقرب إلى روح الشعر إن لم تكنه ، وأحاديث ومقالات تتناول قضية المرأة العربية وتحررها . وقد كانت صاحبة أسلوب شاعرى شفاف ولعلنا نلمس هذه الصفة فيه حين نقرأ قولها فى رثاء عصفور من عصافير الكناريا : « طائر صغير نسجت أشعة الشمس ذهب جناحيه ، وانحنى الليل عليه فترك من سواده قبلة فى عينيه ، ثم سطت عليه يد الانسان ، فضيقت من دائرة فضائه وسجنته فى قفص كان بيته فى حياته ، ونعشه فى مماته . طائر صغير أحببته شهورا طوالا ، غرد لكآبتى فاطربها ، ناجى وحشتى فآنسها ، غنى لقلبى فأرقصه ، ونادم وحدتى فملأها حنانا » .

د. كمال نشأت ـ بغداد

الانتظار

قصة بقلم : يوسف الشاروني



فى حجرة التحقيق جلس صابر ـ ابن تلك القرية شبه الجبلية شبه الريفية حيث يضيق وادى النيل ـ يروى للمحقق كيف استراح أخوه فى قبره :

منذ اربعين سنة سهرت قريتنا احتفالا بزفاف أخى عامر . ووسط انطلاق الزغاريد والرصاص ابتهاجا بالزفاف ، انطلقت رصاصة فى قلب اخى ، وسالت دماؤه امامنا فوق ملابس عرسه .

اغمى على العروس وولولت النساء ، وأعلن شهود الحادث ان القاتل زيدان ، انتقم من عامر لأنه تزوج سعدية التى كان يحبها .. عندما أفقنا من ذهولنا حاولنا الفتك به ، لكنه كان قد اختفى عن القرية كلها . أربعون عاماً لا نعرف عنه شيئا . لكننى كنت قد اقسمت على الانتقام ولو بعد مائة سنة .

واليوم عاد زيدان ـ بعد ان اصبح تاجراً كبيراً من تجار الاسكندرية ، وجدا لأحفاد ، والبياض فى شعر راسه ـ محملا لأهله بالهدايا وبالشوق لرؤيتهم وبتوهم الامان بعد سنوات الهرب والخوف . تغير كل شىء ، حتى سعدية ماتت ، كل شىء .. الا انتظارى . راح يعانق اقرباءه لتنهال عليه قبلاتهم ، ووسط انطلاق الزغاريد انطلقت رصاصتى فى قلبه . كان عائدا يظن أن دم اخى عامر راح هدراً لكنى كنت انتظر . قضيت على فرحتهم كما قضوا على فرحتنا منذ اربعين عاماً . والآن يمكننى أن اقيم العزاء فى وفاة أخى .

وأخرج صابر ـ ذو الستين عاماً ـ مظروفاً من جيبه ناوله للمحقق قائلا : هذه مائتا جنيه ـ هى كل ما ادخرته خلال هذه السنوات ـ لهذه المناسبة ، سلمه لأهلى ليقيموا سرادقاً للعزاء ويشيعوا جنازة عامر من جديد .

وقبل انتهاء التحقيق ، فجأة سقط رأس صابر على مكتب المحقق ، وعندما جاء الطبيب أعلن أنه فارق الحياة .

عملية "أم القطن"

التي أشعلت الثورة وأضاءت الطريق



يقول الكاتب والمحلل العسكري العربي المعروف السيد الهيثم الأيوبي ، « ان نجاح الثورة الفلسطينية فى البقاء حية حتى الآن ، يشكل فى حد ذاته انتصاراً يرقى إلى مستوى المعجزة » .

ويروى السيد هاني الحسن ـ المستشار السياسي لرئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، ان الزعيم الصيني الراحل « ماوتسي تونغ » قال لوفد فلسطيني زار بكين فى عام ١٩٦٤ ما يلى : « لقد درست قضيتكم ، والظروف المحيطة بها بدقة .. انها قضية صعبة ، تتداخل فيها المشاكل تداخل اسنان القرش (سمك القرش) ، فاذا تمكنتم من تفجير ثورة والاستمرار فيها ، فانني سأكون سعيداً لدراسة قوانين جديدة لحرب شعب فى ظروف لا تنطبق عليها قواعد حرب الشعب التقليدية » .

ثم يروي السيد هاني الحسن حادثة اخرى فيقول ، انه زار بكين فى عام ١٩٧٤ ، واجتمع إلى رئيس وزراء الصين انذاك ، والرجل الثانى فى القيادة الصينية « شوآن لاي » ، الذى ابلغه ما يلى :

« لقد درست قضيتكم ، ووجدت فيها شيئاً محيراً ، وهو أن ظروفها الصعبة ، ولياليها السوداء لا تطول إذا ما استمريتم فى النضال ،والمهم أن تجدوا جبهة تستمرون فيها بعمل مسلح ذي صوت مسموع » .

ومن الواضح هنا الفارق بين التقييم الصيني للثورة الفلسطينية فى عام ١٩٦٤ ، وبين التقييم فى عام ١٩٧٤ ، وهذا الفارق يعود إلى الظروف الصعبة بل البالغة الصعوبة ، التى نشأت فيها الثورة الفلسطينية التي اطلقت رصاصتها الأولى نحو العدو الصهيوني فى ١ ـ ١ ـ ١٩٦٥ .

وقد تمثلت هذه الظروف العصيبة ، فى واقع التجزئة الذى خلفه الاستعمار وراءه فى العالم العربى ، وفى حجم السيطرة والهيمنة التى كانت للامبريالية فى ذلك الوقت ، وفى الأهمية الاستراتيجية للمنطقة العربية وثرواتها اضافة إلى الطبيعة التوسعية ـ الاستيطانية للحركة الصهيونية ، وحالة التشرد والضياع التى عاشها الفلسطينيون الموزعون بين اقطار العالم المختلفة .

لكن الثورة الفلسطينية اخترقت جميع الحواجز الموضوعة فى طريقها ، وتغلبت على جميع قوى العدوان الخارجى الضخمة التى جابهتها خلال مسيرتها طيلة السبعة عشر عاماً الماضية ، وكان ذلك كله بفضل إدراكها لمسالتين فى غاية الأهمية والخطورة :

الأولى : ان الكفاح المسلح ودماء الشهداء هما الطريق إلى اكتساب الشرعية وحق الوجود والاعتراف سواء فى ذلك من الاصدقاء أو الاعداء .

والثانية : أن التناقض الرئيسي الذى يتوجب عليها أن تواجهه ، والا تغفل عنه لحظة واحدة ، انما هو التناقض مع اسرائيل وحاضنتها الولايات المتحدة الاميركية ، وأن اى انتصار او تقدم تحققه الثورة الفلسطينية وجماهيرها العربية ، فى مواجهاتها مع هذا التناقض الرئيسي سوف ينعكس على الوطن العربى بأسره ، ويؤدي بالتالى إلى ضمور التناقضات الداخلية او الذاتية والتى هى فى المحصلة النهائية تناقضات من الدرجة الثانية .



هانى الحسن

العملية الأولى

ولنعد إلى التقييم الصيني للثورة الفلسطينية حين كانت ما تزال جنيناً فى الرحم ، وحين صارت وليداً قادراً على المشي وتلقي الضربات ، بل وتوجيه اللطمات ، ولندرس ذلك على خارطة الواقع ، فالعملية الفدائية الأولى ، بدأت ونفذت بأسلحة ووسائل شبه بدائية ، وبامكانيات محدودة فى العتاد والرجال .

وقصة العملية الاولى توضح ذلك :

« قبل ان تختفى الغزالة خلف الأفق ، والشمس تبعث بآخر خيوطها الذهبية ، أومأت لزوجتى « ام ابراهيم » أن تحمل « الجرة » التى كنا قد ملأناها بالمتفجرات المصنوعة محلياً فحملت أم ابراهيم الجرة ، وسارت فى طريقها إلى « العين »



المقاومة الفلسطينية

(عين الماء)، وهناك وضعت الجرة، ثم عادت أدراجهـا.. »

ويمضى « ابو ابراهيم » (احمـــد ابراهيم الشمالى) قائلا : سرنا .. انا .. وعبد العزيز جبران، والشهيد وديع، وموسى محمود، فى حوالى الســاعة التاسعة من ليل ٣١ ــ ١٢ ــ ١٩٦٤، وسلكنا طريق « بيت علام » ثم « وادى ابو الخيل »، ثم « خلة النعجه » من اراضى قرية « وادى نخاس »، ثم إلى « دير نخاس » نفسها، ومنها إلى « أم القطن » حيث يوجد « موتور الماء » هدف عمليتنا ..

ويستطرد « ابو ابراهيم » فيقول : كانت « غرفة الموتور » مغلقة، و « خلة أم القطن » تنام حالمة فى وهدة الليل .. والسكون مطبق تماما على الموقع، وكان « الموتور » محاطاً بكمية كبيرة من براميل الوقود، فوضعنا الجرة فى الموقع ووصلنا بها فتيلا بطيء الاشتعال يبلغ طوله حوالى متر، ثم وصلنا الفتيل بالصاعق، واشعلنا الفتيل. وهنا .. اخذت افئدتنا تخفق بشدة، ونحن ننتظر « القمر » وهو اسم عمليتنا الفدائية الاولى ــ وكنا نوجس خيفة من ان لا تنفجر جرة الديناميت .

وارتفعت درجة الحرارة فى اجسادنا على الرغم من البرد القارص، الذى كان يلفح اجسادنا، فقد كان البرد شديداً فى تلك الليلة، فيما كانت ساعات الانتظار تبدو قاتلة، بالرغم من اننا قمنا باكثر من عملية واحدة لاستطلاع العدو، حيث كان اثنان منا ينتظران خارج مبنى الموتور للحراسة، فيما تولى اثنان اخران تثبيت العبوات الناسفة، اما ساعة التثبيت فقد كانت محددة على الدقيقة البكر من اليوم البكر من الشهر البكر من عام ١٩٦٥، ومضت ربع ساعة كانت من أدق اللحظات فى تاريخ عمرنا .. وفجأة تطايرت أشلاء البناء فى الجو، فقد كان الانفجار شديداً إلى درجة أن « أم ابراهيم » التى كانت تنتظرنى سمعت الصوت، كما سمعه آخرون فى قرية « اذنا » ــ كما اخبرونا عند عودتنا إلى القرية .. ولدى سماعنا صوت الانفجار الذى هزنا من الأعماق، شعرنا اننا نطير فى الهواء، ولا ندري اكان ذلك من الفرح، أم من قوة الانفجار .. وغادرنا موقعنا فى أرض الوطن لننتقل إلى موقع آخر .

واختتم « ابو ابراهيم » روايته عن العملية الفدائية الأولى بالقول : « وفى طريق العودة، شاهدنا سيارات العدو تتحرك من « بيت جبرين » إلى « دير نخاس »، وهى تطلق نيرانا غزيرة فى كل اتجاه، كما شاهدنا سيارات اخرى تتحرك مسرعة من « أم القطن » إلى « موقع الموتور » .

البلاغ الأول

وفى بيروت صدرت الصحف في ١ ــ ١ ــ ١٩٦٥، وهى تحمل البلاغ الأول للثورة الفلسطينية على صدر صفحاتها :

« اتكالا منا على الله، وايمانا منا بحق شعبنا فى الكفاح لاسترداد وطنــه المغتصب، وايماناً منا بواجب الجهاد المقدس .. وايماناً منا بموقف العربى الثائر من المحيط إلى الخليج، وايماناً منا بمؤازرة احرار وشرفاء العالم، لذلك فقد تحركت اجنحة من القوات الضاربة فى ليلة الجمعة ٣١ ــ ١٢ ــ ١٩٦٤، وقامت بتنفيذ العمليات المطلوبة منها كاملة، ضمن الأرض المحتلة، وعادت جميعها إلى معسكراتها سالمة .. واننا لنحذر العدو من القيام بأية اجراءات ضد المدنيين العرب الآمنين اينما كانوا، لأن قواتنا سترد على الاعتداء باعتداءات مماثلة، وسنعتبر هذه الاجراءات من جرائم الحرب .. كما واننا نحذر جميع الدول من التدخل لصالح العدو بأي شكل كان .. لأن قواتنا سترد على هذا العمل بتعريض مصالح الدول للدمار اينما كانت » .

عاشت وحدة شعبنا
وعاش نضاله لاستعادة كرامته
« القيادة العامة لقوات العاصفة »

مولد الثورة

ومع العملية الفدائية الاولى فى «أم القطن» كان مولد الثورة الفلسطينية، وقد سجل تاريخ هذه الامة العظيمة، صفحة مشرقة جديدة ــ هى صفحة النضال والثورة، بعد هجوع طويل فى ظل الاحتلال الصهيونى العنصرى، وفى ظل التشرد والبؤس والحرمان والقمع الذى فرض على الشعب الفلسطيني .

ومنذ انطلاقتها، اعلنت الثورة الفلسطينية، أن هدفها هو تحرير ارض فلسطين، وتحرير الانسان العربى، والاجهاز على الكيان الصهيوني المزروع فى قلب الأمة العربية .

لكن الثورة الفلسطينية، مع تشددها على التمسك بالهوية الفلسطينية وايقاظ الشخصية الفلسطينية، لأسباب موضوعية تتعلق بمرحلة الكفاح المسلح الراهنة، فانها كانت وما تزال عربيــــة

عملية "أم القطن" التي أشعلت الثورة وأضاءت الطريق

« الوجه واليد واللسان » ، وطليعة حرب التحرير القومية الشاملة ، إذ ان تحرير فلسطين يعني في نهاية المطاف ، تحرير العالم العربي بأسره من الكابوس الصهيوني والاستعماري ، ومنطلقا لنهوض عربي شامل ، ولقيام وحدة عربية حقيقية تقف سداً في وجه المطامع الاستعمارية ، وتعمل من اجل ولادة عالم افضل .

من أم القطن الى فندق سافوى

لقد ظن كثيرون لدى سماعهم بالعملية الفدائية الأولى للثورة الفلسطينية ، ان المسألة لا تعدو ان تكون زوبعة في فنجان ، أو نوعاً من انواع المغامرة ، وان العدو الصهيوني قادر على سحق مثيلاتها ، اذا ما فكر الفلسطينيون بذلك . لكن الذين عاشوا بعد الفاتح من كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٦٥ ، رأوا بأم اعينهم كيف تنامت الثورة الفلسطينية حتى تعملقت وسارت من انتصار إلى آخر ، واجتازت حاجزاً بعد حاجز ، كما شهدوا التطور المذهل في نوع العمليات الفدائية وكميتها .

بل إن العدو الصهيوني نفسه ، اضافة إلى الدوائر الاستعمارية الحاضنة له ، أصيبوا بالذهول لذلك التنامي والتطور ، ولم يستطع هؤلاء إخفاء ذهولهم وارتباكهم ، بعد عملية « فندق سافوى » بتل ابيب ، حيث اقتحم تسعة فدائيين قلب الكيان الصهيوني في تلك المدينة في اذار (مارس) ١٩٧٥ ، وخاضوا مع العدو معركة طويلة ، ابتدأت في الحادية عشرة ليلا ، وانتهت في الثامنة والنصف من صبيحة اليوم التالي ، أوقعوا خلالها في صفوف الصهاينة ، أكثر من خمسمائة اصابة بين قتيل وجريح ، اضافة إلى تدمير الفندق وعدد من المباني المجاورة .

ولم تكن عملية فندق سافوى ، هي العملية الفدائية الوحيدة المتطورة ، ولكنها النموذج الأكثر تطورا في الواقع من حيث التقنية العسكرية ونوع العمليات ، فهناك على سبيل المثال « عملية معلوت ـ ترشيحا » التي قتل فيها اكثر من ثمانين صهيونيا ، وعملية « سينما حين » في تل ابيب التي قام بها فدائي واحد ، وعملية « ثلاجة القدس » التي اسفرت عن مقتل ١٤ صهيونيا وجرح اكثر من سبعين اخرين .. الخ ، وقد كانت عملية فندق سافوى التي تمثلت في الانزال البحري الفلسطيني على شاطيء تل ابيب واجتياز الفدائيين لحاجز الحراسة البحرية الاسرائيلي في عرض البحر ، ثم حاجز الحراسة على الشاطيء ثم حواجز « حرس الحدود » و « الحرس الأهلي » و « الشرطة » و « الجيش » ، التطور الطبيعي لعملية « ام القطن » .. ويكفي هنا ان نستشهد بأقوال العدو الصهيوني نفسه بعد عملية فندق سافوي ، لنحكم على أهمية الثورة الفلسطينية وقدرتها كطليعة لحرب التحرير القومية الشاملة .. ففي المناخ العام من الاضطراب والقلق الذى اسفرت عنه العملية بين مليون صهيوني من سكان تل ابيب ، عقد رئيس بلديتها مؤتمرا صحفيا قال فيه : « عندما وقعت العملية الفدائية السابقة في « سينما حين » بقلب تل ابيب قلت : لا يمكن اغلاق تل ابيب بصورة كاملة ومحكمة ، والآن أستطيع بعد عملية فندق سافوى ، ان أكرر ـ وانا عسكرى ايضاً ـ ما قلته قبل ثمانية اشهر : « لايمكن اغلاق المدينة بإحكام » . اما وزير الشرطة الصهيوني « شلومو هليل » ، فقد قال : « يجب ان نعترف بأن هذه العملية متطورة جداً من جانب الفدائيين ، ويمكن القول انها محكمة » ، واضاف : « لا يمكن اغلاق تل ابيب ، كما لم يكن ممكناً إغلاق الحدود الشمالية » .

ولايضاح حالة الهلع التى انتابت المستوطنين الصهاينة في أعقاب عملية « فندق سافوى » لا بأس ان نورد الحادثة التالية :

« بعد ايام من الانزال البحري الفلسطيني على شاطيء تل ابيب ، قطعت الاذاعة الاسرائيلية برامجها لتعلن الخبر التالي : في نحو الساعة الحادية عشرة توجهت سيارات الشرطة بسرعة نحو « مدرسة غولومب » الابتدائية في « كفر شليم » بعد عدة اتصالات ، أبلغت الشرطة خلالها ، أن أشخاصاً مسلحين سيطروا على المدرسة وقد تم إبعاد مئات الطلاب عن المدرسة ، وعن مدارس اخرى ، وسادت الفوضى ، وقفز الطلاب من النوافذ وهربوا إلى منازلهم ، ثم وصل مئات من ذوى الطلاب إلى المكان ، بعد انتشار النبأ ، للمساعدة في نقل الأولاد ، وبعد أكثر من ساعة ، عادت الاذاعة الاسرائيلية لتعلن : « بعد ان تمت عملية الاخلاء ، تبين ان الخبر عن وجود مسلحين في المدرسة ، لم يكن صحيحاً .

عملية دلال المغربي

وقد جاءت « عملية الشهيد كمال عدوان » ، التي قادتها الشهيدة البطلة « دلال المغربي » في ٢١ـ٣ـ١٩٧٨ ،

ماوتسي تونج



شواين لاى



لتسجل ملحمة اسطورية فى صفحات النضال العربى الفلسطينى .. فقد وضعت تلك العملية العدو الصهيونى فى « حجمه الطبيعى » الذى لا تراه سوى العيون الثاقبة ، كيانا هشا ، يضم خليطاً متنافراً من البشر المشوهين عقليا ونفسيا ، يعيشون على ذكرى اساطير بالية ومتحجرة ، ويحلمون « بارض الميعاد » من النيل إلى الفرات !!

ولعل أهم النتائج التى أسفرت عنها « عملية الشهيد كمال عدوان » على الساحل الفلسطينى بين حيفا وتل ابيب انها اثبتت بجدارة وبجراة نادرتين ، ان الذراع الفلسطينية التى تناضل من اجل تحرير الارض ، قادرة على الوصول إلى اية نقطة فى أرض فلسطين المغتصبة متجاوزة بكفاءة معزوفة النظريات الامنية ، والاحزمة العسكرية من الكترونية وبشرية .

إن بضعة رجال ، تقودهم فتـــــاة ، تمكنوا من اختراق جميع تلك الاحزمة وقوضوا جميع تلك النظريات الامنية ، عندما تمكنوا من الوصول إلى وطنهم ، وإلى مسرح العملية المحـــــدد لهم ، ونفذوا المهمـــة المطلوبة منهم والتى « سافروا » إلى فلسطين من أجل تحقيقها وقد فعلوا ذلك بوحي من ايمانهم بوطنهم غير عابئين بحسابات العدو وزوارقه الحربية وحواجزه البشرية ، وتم لهم فى النهاية السيطرة على المنطقة الواقعة ما بين حيفا وتل ابيب فى عملية نمت عن تطور فى نوعية العمليات الفدائية ، ويومها تصدرت فلسطين واجهة العالم كله ، وعاد إليها لونها النضالى الأصيل عبر وسائط واجهزة الاعلام العالمية ، ويكفي انه كان من نتائجها المباشرة ان رئيس حكومة العدو مناحيم بيغن اضطر إلى تأجيل زيارة لواشنطن بسبب العملية ، كما أن وزير الحـــــرب انذاك « عيزر فايتسمان » قطع زيارة للعاصمة الاميركية ، وعادمسرعاالى تل ابيب ، بل ان حكومة العدو أعلنت للمرة الأولى فى تاريخ الكيان الصهيونى حظر التجول فى « اسرائيل » ..

تاريخنا المعاصر

عندما يكتب تاريخ العرب المعاصر ، فسيقف المؤرخون طويلا امام القضـــية



دلال المغربي



مناحيم بيجن

عزرا وايزمان

الفلسطينية والنضال الفلســــطيني ، وستكون الصفحات الفلسطينية محطـــة تقف عندها الاجيال العربية الصـــاعدة طويلا ، لتقرأ فيها كيف استطاع الشعب العربى الفلسطينى ، التمرد على حيـــاة المنفى والاغتراب القسرى ، والتشريد والضياع ، ثم الانطلاق من ارضية صلبة وعزيمة لا تعرف اللين أو التراجع لتخطى جميع الصعاب المستعصية والعوائق المنيعة ، والانطلاق نحو تحرير فلسطين ـ كل فلسطين ، ورفض هزيمـــة عـــام ١٩٤٨م وامتداداتهـــــا وتشعباتهـــا .

ولسوف تتوقف الأجيال العربيــــــة الصاعدة أكثر ما تتوقف عند قراءتها التاريخ اعتباراً من ١ـ١ـ١٩٦٥ ، حين انطلقت الرصاصة الفلسطينية الأولى نحو العدو الصهيونى ، المغتصب للأرض والوطن ، معلنة ميلاد الثورة الفلسطينية بعد سبعة عشر عاماً من النزوح والتشرد والعذاب .

ففى الأول من يناير لسبعة عشر عاماً خلت ، استطاع الشعب العربى الفلسطينى ، أن يخرق جدار الضياع والهزيمة والتمزق ، الذى انتصب فى وجهه ، وأن يلـــد باصالته وروحه النضالية العالية ، ظاهرة فذة فى التاريخ العربي المعاصر .. فلقد كانت الثورة الفلسطينية منذ اللحظة الأولى لميلادها ، تحمل جميع معاني الأصالة العربيـــــة مـــن تضحيـــة وفـــداء ونكران للذات ، وبعد أن كان العربي الفلسطيني يعيش تحت شعار «الفلسطيني اللاجيء» ، صارت صورته بعد عام ١٩٦٥م تحتل الاحلام الثورية لجميع الشعوب المستعبدة والمقهورة والمستعمرة ، فلقد لقنت الثورة الفلسطينية الأصدقاء قبل الأعداء درساً بالغ الأهمية ، يتلخص فى أن البندقية هي الأسلوب الوحيد لانتزاع الحق السليب ، وأن طريق الكفاح المسلح هو اقصر الطرق لاسترداد الأرض والحرية والكرامة ، وإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وان طريق الشهادة والشهداء ، هو السبيل الوحيد لاختصار الزمن ، وإفهام العدو ، انه لن ينام ملء جفنيه على وسادة من حرير ، كما كان يعتقد قبل اغتصابه الأرض والوطن ، بل سيظل ساهراً لياليه ، يلملم قتلاه ، ويلعق دماءه حتى القطرة الأخيرة .

اجل .. لقد كانت انطلاقة الثورة الفلسطينية لسبعة عشر عاما خلت ، بارقة الأمل التى وضعت نهاية لمرحلة الضياع والتباكي على الحق السليب والوطن المغتصب ، والتى بشرت فى المقابل بميلاد مرحلة العمل الجاد من اجل رفض مقولة الأمر الواقع ، والانطلاق فى طريق التحرير .

الحق لا يموت

وما لابد من تاكيده هنا ، ان النضال الفلسطينى خلال السنوات السبع عشرة الماضية ، قد ابرز اهمية الثورة الفلسطينية فى اطلاق مرحلة جديدة من الكفاح فى سبيل تحرير الأرض والوطن ، وتثبيت حق تقرير المصير ، وفى كون الثورة الفلسطينية وقدرتها على إحياء روح النضال ، واشعال نار الكفاح ، مثبتة بذلك ان حق أى شعب لا يمكن ان يموت ، مادامت جذوة النضال مشتعلة وراية الكفاح خفاقة .

ولقد كانت الثورة الفلسطينية ، بانطلاقتها المظفرة ، استمراراً ثورياً أصيلا للنضال الفلسطينى العربى منذ عام ١٩١٨ ومجيء الانتداب البريطانى الى فلسطين .

عملية "أم القطن" التي أشعلت الثورة وأضاءت الطريق

المخيمات فى جنوب لبنان

فمن ثورة عام ١٩٣٦ الى معارك عامى ١٩٤٧ و ١٩٤٨ ، وحتى صدور البلاغ الأول عن العملية الفدائية الأولى فى مطلع عام ١٩٦٥ ، الى معركة الكرامة فى عام ١٩٦٨ ، الى الغزو الصهيونى لقواعد الفدائيين والمخيمات الفلسطينية فى جنوب لبنان فى عام ١٩٧٨ ، الى معارك تموز (يونيو) الماضى (١٩٨١) فى جنوب لبنان وشمال فلسطين المحتلة ، نمت حركة النقض الوطنى الأصيل للاغتصاب الصهيونى للارض العربية فى طول العالم العربى وعرضه ، فى تلاحم وتفاعل مدهشين مع النضال الفلسطينى ، مما جعل مرحلة ما بعد عام ١٩٦٥ ، كفيلة بتأهيل النضال الفلسطينى والعربى ، للدخول فى مرحلة امتداد الوعى القومى بالحق القومى فى فلسطين المغتصبة ، وقد جاء الالتفاف العربى حول الثورة الفلسطينية ، ليسهم فى كسب تاييد قطاعات واسعة فى العالم الخارجى الى جانب الحق العربى ، مما دفع ببعض حلفاء العدو الصهيونى ، الى مراجعة حساباتهم ، وتكوين نظرة اكثر موضوعية عن ذى قبل واقل انحيازاً ودعماً للمحتلين الصهاينة.

وهكذا يكون مبدأ الكفاح المسلح نفسه ـ لا غيره ـ قد ضمن الهوية الحقوقية والشرعية الدولية فى مواجهة الادعاءات الصهيونية ، وأخذ فى الحد من نمو العدو الصهيونى إن لم يكن قد أوقفه فعلا ، كما أسهم فى زعزعة أركان الكيان الصهيونى الذى بناه العدو وهو يعتقد انه سيكون كيانا ازليا ، لا تضربه الأمواج ، ولا تهب عليه الرياح والأعاصير . لقد كان لظاهرة الكفاح المسلح ، اثر واضح فى اثارة التناقضات داخل الكيان الصهيونى من طائفية وعنصرية اثنية ، وكان من نتائج بروز هذه التناقضات ان بدأ كل يهودى داخل ذلك الكيان يضع علامة سؤال كبيرة حول مستقبله فى فلسطين المغتصبة ، ثم حول مستقبل الصهيونية التى شحنته بالأوهام المستحيلة . وما بين عام ١٩٦٥ وعام ١٩٨١ ، قطعت الثورة الفلسطينية اشواطاً بعيدة فى بناء كيانها الوطنى ، وفى تنظيم وحشد طاقات الشعب الفلسطينى ، فاعادت بناء نفسية هذا الشعب بايمان وطنى وقومى عاليين ، وبعثت فيه روح العمل والكفاح من جديد ، لتصبح قواته المسلحة ، قوة رئيسية فى الصراع الدائر على الأرض العربية مع الحركة الصهيونية ، كما تمكنت الثورة الفلسطينية من تحقيق استقطاب دولى وعالمى واسع حولها ، واستطاعت التواجد فى جميع المحافل والمؤتمرات الدولية التى اعترفت بنضالها العادل ، وبالحقوق الوطنية للشعب الفلسطينى وفى طليعتها حقه فى تقرير المصير فوق أرضه وترابه الوطنى .

اما المفاجأة التى كانت احدى ثمرات الكفاح المسلح ، والتى لم تخطر على بال العدو الصهيونى ، فقد كانت انتفاضات المواطنين العرب داخل الأرض المحتلة فى عام ١٩٦٧ ، بل وداخل الوطن المحتل فى عام ١٩٤٨ ، فلقد جاءت الانتفاضات المتلاحقة ضد العدو ، لتكشف عن مدى قوة الثورة الفلسطينية وطول ذراعها الضاربة ، ففى الوقت الذى ظن فيه الصهاينة انهم نجحوا فى تفتيت الشعب الفلسطينى وتجزئته وبعثرة قواه فى كل ارض وصقع ، وعزل من فى الداخل عن اخوانهم فى عمق الأرض العربية ، فوجئوا بان الكفاح الفلسطينى وحدة لا تتجزأ ، وان هذا الكفاح يكتسب يوماً بعد يوم ، مواقع جديدة ، داخل فلسطين المغتصبة ، لأنه نابع من عمل شعبى متفاعل ، ونضال بطولى متلاحم ، وهو يشكل بداية مرحلة جديدة من مراحل النضال . وإذا كان لابد من كلمة أخيرة فى الذكرى السابعة عشرة لانطلاقة الثورة الفلسطينية البطلة ، فهى أن الآفاق امام الأجيال العربية الصاعدة لتحرير فلسطين وتحقيق الأطماح العربية ، قد غدت رحبة وواسعة .

بل ان كل متمعن فى قراءة المعنى العميق للأحداث المتوالية فى مسيرة الصراع العربى ـ الصهيونى ، يلمس فعلا ، أن الثورة الفلسطينية ببعدها القومى الشامل ، تقف الآن على أبواب مرحلة جديدة مشرقة واكثر املا فى تحقيق النصر ، وما الهبوط والانحسار اللذين تشهدهما الثورة فى غمرة مسيرتها الطويلة ، سوى النذير بنهاية مرحلة ، والانتقال الى مرحلة اكثر تقدما وغنى بالقدرة على الفعل والحسم .. ولن يطول الزمن بعد ، حتى تنفجر بدايات المرحلة الجديدة ، والقفزة النوعية الوثابة .

عصام شريح

قصة أول مدرسة إسلامية في غابات سيراليون

بقلم: عبد العزيز السيد المصري



سيراليون .. جبل الأسود كما سماها البرتغاليون مستعمروها الأوائل حين تناهى إلى أسماعهم هزيم الرعود يدوى فى صدور الوديان، وتهوم أصداؤها من وراء الجبال .. فترددوا طويلا قبل أن تطأ قدامهم أرضها.

سيراليون هى طرف حزام المد والجزر على شاطىء افريقيا الغربى حيث كانت تتصادم أمواج الاسلام مع أمواج الوثنية سنين طويلة فى عهد الأمبراطوريات الافريقية العتيدة، بدءاً من امبراطورية مالى.

سيراليون .. بلد الماس، والأناناس، ونخل الزيت، والكسادا، والكاكاو، والسمسم، والفول السودانى.

سيراليون موطن القبائل المتعددة المتباينة اللغات والعادات، التمنى، والمندى والماندنجو، والفولا، والكورانجو الخ ..

سيراليون مقر الكريول العبيد الذين حررهم الصراع السياسى والاقتصادى بين قوى الاستعمار، واقام لهم الانجليز مستعمرة سموها «فريتاون» المدينة الحرة.

سيراليون التى آلت الى المستعمر الانجليزى ففتح مصاريع أبوابها واسعة للمبشرين الذين تعاقبوا عليها لأكثر من مائة عام وحرم على مسلمى الشمال أن يدخلوها الا متسللين فرادى أو رعاة بقر أو تحت شعارات صوفية باهتة هشة.



سيراليون بلد جماعة البورو المقدسة الوثنية والديانات المختلفة المذاهب ومدارس المبشرين ذات الملل واللغات المتباينة ، والمساجد التى يخص كل منها قبيلة ويصطبغ كل منها بمذهب صوفى يتشيع له .

واخيرا سيراليون البلد الواقع فى حضن غينيا وليبيريا أشبه بحدوة الحظ على جبين الشاطىء الغربى لافريقيا .

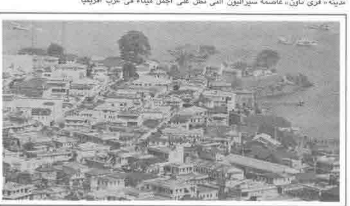
••

كان اول عهدى بها فى أواخر عام ١٩٥٩ م حين أوفدت مبعوثا إلى جماعة الأخوة الاسلامية .. كنت لا أملك الا حماسة الداعية الذى يتوق الى ان يفعل شيئا نافعا أى شىء ، ولم تكن لدى الخلفية التاريخية أو الاجتماعية اللازمة للتعامل والتكيف مع هذه البيئة الغريبة الجديدة التى وجدت فيها ، فكل ما قراته عنها هو كتاب « سيراليون او مقبرة الرجل الأبيض » . كان على ان استمد معرفتى مباشرة من سكانها وأهليها ، كان على أن أجد الوسيلة لتتحدث تلك الشفاه الصامتة وتنظر اليك بعينين ثاقبتين تستشف اعماقك وتصل إلى أغوارك ، فقد تعودت أن تستريب فى كل غريب .. وكانت جماعة الأخوة الاسلامية مجرد فكرة واسم دعا إليها رجل صلب من قبيلة التمنى اسمه الحاج سورى ابراهيم كانو ، تعلم فى مدارس المبشرين فغيروا اسمه ودينه وهو طفل ، فضاق بهم وخلع كل شىء وعاد لاسمه ودينه . وصاحب دعاة الأحمدية القاديانية ليتعلم عنهم الدين والقرآن ، ولكنه رفض باصرار عقيدتهم فى فتح باب النبوة وبعث نبى مجدد للدين الاسلامى بعد محمد بن عبد الله خاتم النبيين .. وفى طريقه الى الحج طلب العون من سفارة مصر فى أكرا .. وكانت حرب اكتوبر سنة ١٩٥٦ وما أن خمد دخانها وعادت العلاقات السياسية نوعا ما الى طبيعتها حتى كنت فى طريقى الى سيراليون .

كان الرجل فقيرا يعمل « جزارا » وكانت سنه قد كبرت . ولكن حماسته لدينه وغيرته عليه جعلته يركب الصعب ـ كما يقولون ـ وأى صعب ؟! ان عليه ان يصمد أمام جماعات التبشير بثقلها الثقافى والدينى والمالى ، ونفوذها فى دوائر الحكم آنذاك ، وعليه أن يقاوم الدعوات الاسلامية القبلية التى ترفض ان تتحد لأنها لا تريد أن تنطوى تحت لواء زعامة من قبيلة اخرى ، وعليه أن يثبت أمام الأحمدية القاديانية التى ينتشر دعاتها ويمتد نفوذها فى أوساط أنصاف المثقفين من المسلمين ، ثم أمام نفوذ الفولانية الذين يرون أنفسهم وحدهم أصحاب هذا الدين وأولياء شئونه والقائمين على امره ، لأنه قدم على أيديهم الى هذه البلاد . ثم أمام مجمع الأئمة فى « فريتاون » العاصمة وهو المجمع الذى يرى فى الرجل دخيلا جاهلا على مجتمع علماء المسلمين . ثم أمام جماعة البورو السرية الوثنية برصيدها الرهيب من أساطير السحر وقدرات « السوكوبانا » ساحرها الأعظم الخارقة التى تثير الفزع فى نفس كل مواطن مهما كان قدره وبلغت ثقافته .

لقد كان نبأ وصولى أشبه بكارثة أصابت الرجل .. كيف يتدبر الأمر ؟ .. كيف سيعد لى مسكنا ؟ .. كيف يرتب لعملى ونشاطى فى إطار قوانين ونظم الدولة .. كيف وكيف ؟ وماذا يكون الحال لوصرت إلى ما صار إليه غيرى من الدعاة المتطوعين الذين كثيرا ما قدموا من صحارى المغرب والجزائر وموريتانيا

مدينة « فرى تاون » عاصمة سيراليون التى تطل على اجمل ميناء فى غرب افريقيا



من شيوخ الصوفية ، ولم يصمدوا أمام جدل الأحمدية ومحاورات المبشرين الافريقيين المدربين ، فتركوا المنطقة ورحلوا عائدين .. ان كل ما فعله مسلمو العالم ممثلين فى مصر انهم ارسلوا هذا المعلم .. على حين أن دولا لها ثقلهاتدعم الجماعات الإسلامية ذات الصيغة القبلية الانفصالية بكل وسائل الدعم وتمدها بكثير من اسباب القوة ..

الاخوة يرحبون

وبقيت فى « فريتاون » أنتظر وانتظر وطال الانتظار حتى دعيت أخيراً الى مقابلة وفد جاء لزيارتى .. كان وفداً لا يزيد على عدد أصابع اليد الواحدة على رأسه رجل فاره الطول ذو ابتسامة خفيفة فيها من الحياء والتواضع ضعف ما فيها من الغبطة والبهجة ، فقد كانت هناك سحابة كثيفة تغيم على هذه الابتسامة .. دخلت وسلمت فردوا السلام وأدهشتنى طريقتهم فى التحية .. كان الرجل منهم يخلع حذاءه ويتقدم نحوى منحنياً واضعا يده اليسرى على ذراعه الأيمن مسلما على بيده اليمنى ، ثم يتراجع بظهره الى مكانه لا يحول ناظريه عنى .. ثم أعقبت التحية فترة من الصمت شعرت فيها أن عيونهم تنفذ الى أعماقى تحاول أن تستطلع صورة لمستقبل مبهم يرجونه ، ولحلم طالما صوروه . وطال الصمت فسالت : هل فيكم من يتكلم الانجليزية ؟ فأجاب الرجل الفاره الحيي بلغة انجليزية راقية : نعم .. ولكنهم لا يريدون أن يتكلموا .. انهم يريدون فقط ان ينظروا إليك .. لقد طال شوقنا وشوق ابائنا وجدودنا الى رؤية معلم عربى مسلم .. دعهم يملئوا عيونهم بصورتك ليصفوك الى ذويهم عندما يعودون .

وكانت هذه بعثة أوفدها القوم هناك ليتعرفوا على المعلم القادم ويبدوا رأيهم . ويبدو أن ماروته البعثة حين عادت قد راق القوم ، وشد أزر الحاج سورى كانو فما لبث أن عاد بعد أيام ليأخذنى معه إلى « ماجبوركا » عاصمة الاقليم الشمالى وحاضرة مديرية تونكوليلى ، وأخطر مراكز الالتحام بين العقائد والثقافات .. وتبرع شيخ قبيلة التمنى فى المنطقة «الحاج ماساكما» ببيت جديد لاقامتى قرباناً لله وتأييداً لجماعة الأخوة الاسلامية .. ورحب بنا أخواننا المهاجرون اللبنانيون هناك وأبدوا من كرم الترحيب ما يحمده لهم الله والعروبة وتبرع لخدمتى رجل طيب اسمه «مومو» أى محمود وبقيت أياما وليالى طوالا أشبه بأولئك المعزولين فى الحجر الصحى ، لا أزور ولا أزار ولا أرى بين الحين والحين سوى الحاج سورى وبعض الأخوة اللبنانيين .. وذات مساء ارتقى سلم الشرفة الممتدة أمام البيت قسيس افريقى يطأ الأرض باعتداد وتثاقل تحوطه مجموعة من المثقفين .. كان كلامه خشنا على غير المعتاد من القساوسة ، فيه عنف وتهجم وتجريح ، ورفض أن يشرب تحيتي لأنها على حد تعبيره نوع من الرشوة .. ودار حوار يتسم بالهدوء والصبر والحلم من جانب الضيف العربى القادم من بعيد ، وبالغلظة والتبجح وابذأ الالفاظ من الجانب الأخر .. وكان للحكمة ــ والتى هى أحسن ــ الكلمة العليا .. وانطفأت نيران كثيرة .. وانكسرت سهام جارحة عديدة ، وتواضعت رءوس شمخت بالكبرياء الكاذب .. وشرب الرجل تحيتى !!

وأصبح الصباح لأجد وفود الناس من كل مكان فى المنطقة قادمة للترحيب بي والاستماع إلى .. لقد كان الجميع يلتقطون أنفاسهم فى انتظار هذا اللقاء . كانوا يخشون أن يرحل داعيتهم كما رحل اخرون .. ولكنه لم يرحل .

الكتاب .. كان البداية

لقد كان الصمت المتأمل والقراءة المستفيضة عن المنطقة وتاريخها وناسها وعاداتها ، والانصات الواعى لكل ما يقال وتحليله ووزنه بادق الموازين هو المرحلة الأولى فى العمل هناك .. وتبرع السيد يوسف شامل المهاجر اللبنانى بمخزن قديم ليتعلم فيه الأطفال اللغة العربية والدين .. ووضعت فيه دكك بدائية ، وأقبل عدد ضخم من البنات والأولاد على

ضاحية من العاصمة .. على تل وسط جمال الطبيعة الساحر





المخزن .. وبدا الكتاب .. وتساءلت : الم يكونوا فى مدارس ؟ فقيل : نعم ، لم يكونوا فى مدارس .. لأن تعليم المرحلة الأولى كله فى يد المبشرين والأحمدية القاديانية ، من دخل هنا خلع دينه واسمه وصلته باسرته ، ومن دخل هناك شوهت عقيدته بفكرة المهدى المنتظر والمسيح الموعود الذى جاء ..وامن بنبى جديد بعد محمد صلى الله عليه وسلم .. ومن هنا كان لابد ان تبدا الخطوة الثانية .. لابد من بناء مدرسة .. مدرسة حقيقية يتعلم فيها ابناء المسلمين جميع المواد التى يتعلمها نظراؤهم فى المدارس الأخرى الى جانب اللغة العربية والدين الاسلامى . وطرحت الفكرة، كما تلقى بحجر فى نهر راكد – امام مجموعة الأخوة الاسلامية المحدودة العدد والدخل من عمال وفلاحين وحرفيين .. وكان الجواب .. الصمت .. فهم لا يملكون فى أيديهم شيئاً ، وليس لهم من يساندهم فى الداخل او الخارج .. يمضغون حسرتهم والمهم فى صبر عجيب وإصرار على الحفاظ على دين ابنائهم هؤلاء الذين كان يقرا خطيبهم خطبة الجمعة من الديوان المطبوع وهم يؤمنون وراء كل كلمة حتى على الدعاء للسلطان الناصر قلاوون ، لا يفهم ولا يفهمون شيئاً مما يقول .. هؤلاء الذين كان الرجل منهم إذا مرض يذهب الى احد الحجاج فيدفع ما يستطيع لياخذ ورقة مطوية صفراء من كتاب إحياء علوم الدين للغزالى ليضعها على موضع الألم ليشفى .. هؤلاء الناس الذين اختلفت العقيدة الاسلامية فى رءوس بعض الفواتهم « معلمى الدين » فجعلوا المسيح إلههم والنبى محمداً مبعوثه إلى العرب لانهم ادنى من ان يفرغ لهم المسيح نفسه .. هؤلاء الناس هم انفسهم الذين كانوا يرفضون ان يدخلوا ابناءهم وبناتهم هذه المدارس حفاظا على إسلامهم غير ناظرين الى ما قد يفوتهم من مناصب أو ثروة او جاه .. لابد من بناء مدرسة لهؤلاء الأطفال .. وما السبيل الى ذلك ؟ لقد هدى الله سبحانه السبيل .. واخترت من بين أطفال الكتاب خمسة عشر طفلا وطفلة تتراوح اعمارهم بين ٦ و ١٢ سنة واستاذنت ذويهم فى ان ينفقوا وقتهم عندى فى البيت .. واعد لهم برنامج خاص .. كنت اشعر ان النتائج العملية هى وحدها خير ما يقنع الافريقى ويحفزه .. واعددت ثلاث مسرحيات : الاولى عن « زيد بن حارثة » العبد الذى رفض الحرية وآثر البقاء فى رعاية النبى فرفع النبى صلى الله عليه وسلم قدره وتبناه والثانية عن « بلال » مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم واول اسود يعتنق الاسلام . والثالثة عن « حليمة » مرضعة الرسول صلى الله عليه وسلم التى اغناها الله ببركة النبى الفقير .

وكان جهد يفوق الطاقة فى التدريب على النطق العربى ثم فى تمثيل الأدوار بعد فهمها فهما تاماً ، وما صحب ذلك من فقرات تشرح بعض تعاليم الاسلام ، وسور قصار من القرآن الكريم ، ومحادثات مبسطة بين الأطفال واناشيد وترجمة ذلك كله إلى الانجليزية واللغة القبلية المحلية الغالبة وهى التمنى .. وبعد شهرين متواصلين اجرت صاله العرض فى الفندق الوحيد بالمدينة ، فندق « ادمز » .. واعددت المسرح بنفسى مستفيداً من خبرتى اثناء عملى بالمدارس النموذجية فى مصر .. ودعوت الى الحفل صفوة قليلة من أعيان المدينة وعلى راسهم المحافظ وشيخ قبيلة التمنى فى المدينة .. وبدا الحفل بتلاوة طفل لآيات من القرآن الكريم ، ثم اعقبت التلاوة محادثة بين طفلين بالانجليزية أولا عن معنى الآيات التى تليت ، ثم محادثة بالتمنى .. عجبا . ان فى استطاعة طفل عادى أن يفهم القرآن الكريم .. هذا الطفل الافريقى الصغير يفهم ما يتلو .. لا يعرف بكلمات لا حس فيها ولا فكر .. ان القلوب تستطيع – إذن – ان تتصل بنبع القرآن الالهى مباشرة لتستضىء وتتجدد .. ان ذلك يعنى ان المسجد لن يعود آخر مكان تسمع فيه شيئاً يفهم كما يقول اعداء الاسلام .. واندفع بعض الحاضرين فى حماسة شديدة والدموع تسيل على خدودهم يختطفون الممثلين من فوق المسرح ويدسون فى أيديهم بعض المال .. وتكرر المشهد .. فاقترح احد الحاضرين ان يوضع طبق كبير على جانب المسرح فمن اراد ان يدفع لهؤلاء الأطفال شيئاً يضعه فى الطبق ليكون نواة لبناء مدرسة يتمون تعليمهم فيها . وانتهت الحفلة بمبلغ من التبرعات لا بأس به تجمع فى الطبق ، وإحساس غامر بالغبطة والسعادة والفخر يملأ جوانب كل افريقى شاهد هذا الحفل الصغير .. وتنازل « ادمز » صاحب الفندق عن أجر الصالة تبرعاً منه واظهاراً لاعجابه بهذا العمل الذى سماه معجزاً .. لقد كان احمدياً قاديانياً ولكنه كان افريقياً مسلماً قبل كل شىء .

وجاء دور المدرسة

ومضت ثلاث ساعات من نهار اليوم التالى .. وجاءنى الحاج سورى متهللا لامع الوجه ومعه رسول مدير التربية والتعليم فى الاقليم يرجو أن يعاد تقديم الحفل على مسرح كلية المعلين استجابة لالحاح جماهير المسلمين .. واقيم الحفل مرة أخرى بعد ثلاثة ايام وسط خضم زاخر من المشاهدين .. وتضاعف قدر

التبرعات كثيرا .. وظهرت وجوه جديدة فى صفوف جماعة الأخوة الاسلامية ، وتبرع بعض اللبنانيين المهاجرين من سكان مجبوراكا ولونشـــار ـ وماكينى ويو وصفد وغيرها بكرم وسخاء ، وتسابقت البلاد الى دعوتنا وانتقلنا بفرقتنا المسرحية من مدينة الى اخرى ، وفى كل مكان نذهب إليه يؤسس فرع لجماعة الاخوة الاسلامية ويزداد التبرع .. لبناء أول مدرسة اسلامية ابتدائية لتعليم أبناء المسلمين « غير الأحمدية » وفق أحدث المناهج بالاضافة الى تعليم اللغة العربية والدين الاســـــلامى .. وعقدت أول جمعية عمومية لجماعة الأخوة الاسلامية واختير الحاج سورى كانو بالاجماع رئيسا دائما للجماعة يعاونه مجلس استشارى ، وتسابق الائمة وأعيان المسلمين الى اعلان انضمامهم الى جماعة الأخوة الاسلامية .. وكان علينا ان نختار مكانا للمدرسة .. ولم تطل الحيرة فقد أخذ الحاج «ماساكما» شيخ التمنية بالمنطقة بيدى ذات يوم وأشار الى تل ضخم يطل على مشارف المدينة وقال : أترى هذا التل ؟ قلت : نعم . قال : لقد تبرعت به لجماعة الأخوة الاسلامية لتقيم عليه مدرستها . وكانت مفاجأة كبرى من رجل كبير .. وذهبنا لنرى المكان على طبيعته .. وكان حرشا يصعب النفاذ اليه تملؤه الأشجار الضخمة التى يعجز عن تطويق جذعها أربعة رجال .. كان علينا أن ننقى الأرض من الأحراش وأن نقطع هذه الأشجار الباسقة ونقتلع جذورها من الأرض الصلبة ، ونظرنا إلى ما فى أيدينا من مال .. وأرجعنا البصر مرات إلى الأحراش القائمة أمامنا ثم تراجعنا وكل منا يطحن فى راسه ملايين الأفكار .

وفى المساء كان فى المسجد اجتماع بعد صلاة العشاء .. وسمع الناس .. حقا نحن فقراء .. ولكن لابد أن فى استطاعتنا عمل شىء .. بذل جهد ما .. نستطيع أن نوفر الكثير من النفقات .. لو ان كل مسلم تبرع لله بأسبوع عمل من اجل بناء هذه المدرسة لاستطعنا اقتلاع



الغزالى .. يعالجون المرضى باوراق من كتابه

الأحراش والأشجار وتنظيف المكان ، لو ان كل مسلم لديه آلة زراعية اقرضها الله يومين ليسر ذلك كثيرا من مصاعب العمل .. القيت الفكرة .. فاحتضنتها الأرض الطيبة .. وتتابعت الاجتماعات من مساء الى مساء .. وذات صباح مشرق جميل .. صعدت صفوف هؤلاء الناس الطيبين يحملون الاتهم وادواتهم كأنهم جنود الله فى اول معارك الايمان ضد الضعف والعجز .. ومرت الأيام ، واخذ وجه الأرض الأحمر ينكشف من وراء غطاء الخضرة الكثيف .. وبدت قمة التل الأرجوانية كانها تاج يتوهج تحت اشعة شمس الغروب .. واستلقت الأشجار الضخمة هنا وهناك على جوانب الأرض الحمراء .. ووضع تصميم لبناء المدرسة وخطط للأساس .. واستقرت نظرة على أكوام الجذوع الضخمة .. وتساءل صوت خافت متأمل ألا يمكن الاستفادة من هذه الجذوع ؟ واجاب صوت خبير من بين أعضاء الجماعة : نعم .. انها صنف جيد من الخشب .. كيف ؟ .. فى استطاعة الذين اقتلعوها ان يحولوها الى الواح خشب إذا وفرنا لهم المناشير .. وتحولت الكتل بعد أسابيع الى صفوف متراصة جميلة من الواح الخشب .. وما ان ارتفعت جدران المدرسة حتى بدأ النجارون من أعضاء الجماعة الذين تبرعوا بجزء من أجرهم للمدرسة .. صناعة الأبواب والمقاعد والأدراج وجميع لوازم المدرسة الخشبية .. ثم بيعت الأخشاب الباقية وجذور الاشجار ليسهم ثمنها فى شراء النوافذ الحديدية والزجاج وجمالونات الحديد والزنك لتغطية سقف المدرسة .. كان المشتركون جميعا يتأملون البناء قبل هبوطهم من التل مع غروب الشمس ليملأوا عيونهم المتعبة بمنظر حبات العرق التى تتحول إلى جدران صلبة من الأسمنت .. أعرف أناسا منهم كانوا لا يجدون ما يأكلون وكانوا يتعففون عن ذكر ذلك ، ولكن الاعياء كان يفضحهم بعد يوم طويل من العمل .. وكم تفطر قلبى ألما حين سقط احد الالفوات « معلمى القرآن » فاقد الوعى ، ثم علمت بعد جهد جهيد انه لم يتناول طعاما منذ يومين .. !!

وتم بناء المدرسة .. لم ينفق عليها اغلى من الجهد المخلص الصادق .. وكل ما انفق عليها من اموال كان لشراء ما لم يكن صنعه فى طوق العاملين فنيا وتكنولوجيا . وقام اطفال المدرسة الكبار بطلاء جدرانها بالجير فى تعاون ونظام اشبه بما فعله اباؤهم . وحدثت نفسى قائلا : ألا يعيد هذا الحدث الى الذهن ما حدث عند بناء اول مسجد فى الاسلام ؟ ان معجزة الايمان هى فى هذه القوة الغلابة المبدعة التى تبنى وتخلق فتضع كيانها فيما تفعل فتصير هى نفسها ذلك الصرح الشامخ الذى شيدت تراه فترى كل الوجوه المستبشرة والأذرع المتضافرة والقلوب النابضة بحماسة الايمان والغيرة عليه .. انني اذكر مئات الأسماء التى اسهمت بأذرعتها المعروقة الناحلة فى هذا العمل . ولا انسى فرحتهم وهم يستقبلون ابناءهم بالاغانى وهم قادمون الى مدرستهم يحملون ما يصلح من أثاث كتاب « مخازن يوسف شامل ، جزاه الله احسن الجزاء » صاعدين التل الى اول مدرسة حديثة بنيت فى سيراليون للمسلمين ، مدرسة الأخوة الاسلامية بمجبوركا .

عبد العزيز السيد المصرى



عبد الله الشيتي
الكويت

● وما أكثرهم هؤلاء الناس الذين هم فى طريقي ، او انني فى طريقهم ! واحد من هؤلاء كنت ازوره فى متجره . كان منتفخا كالطاووس او كديك الحبش ـ اللهم زد وبارك ـ بفعل كرش الوجاهة وقروش الغنى الفاحش ! وطوال ساعة كاملة ، راح حضرته يحدثني عن الانسانية المعذبة ، وواجب كل واحد منا فى تخفيف آلام الآخرين من حولنا وامامنا باعتبار انه ما من أحد مخلد فى هذه الدنيا الخالدة ، واكبرت فيه « نخوته » ووعيه الانساني الفريد ، في زمن ماتت الرحمة فى قلوب الناس ، وسحقت المادة كل القيم او تكاد ، وفيما كنت مستغرقاً فى سماع درره واستحسان مشاعره ، وقف فى بابه سائل يرجوه عوناً من مال الله ، فما كان من صاحبنا المنتفخ الاوداج والمحفظة ، إلا ان قال له بلطف وحنان : (روح يابني ، الله يبعتلـــك ...) !

● ● ●

ـ لي قريبة عجيبة ، راحت تشكو لي كثرة الكذب على السنة ابنائها وبناتها . وسألتني حائرة : كيف السبيل الى انقاذهم من هذه العادة السيئة ياأستاذ . وتساءل (الأستاذ ..) الذى هو محسوبكم : لابد أن فى الأمر سرا او سبباً ؟ قالت : ماذا تعني يابني ؟ . قلت :

ـ أعنى من شابه أمه ما ظلم .. !

أتدرون لماذا ... ؟

لأنها اعتادت ان تطلب من ابنتها الصبية مثلا ، أن تقول لجارتها إذا طرقت عليها الباب : أمي « مش » موجودة فى البيت ! أو ترد على التليفون قائلة ـ بحسب تعليمات الأم المربية الذكية ـ أمي راحت على الخياطة . وكذلك الولد وولد الولد . حتى تمرسوا فى فن الكذب حتى على أمهم ...

ففى يوم ـ تقول قريبتنا ـ عادت ابنتها متاخرة جداً عن ميعاد عودتها من المدرسة ولما سألتها تعنفها ـ أين كنت يابنت ؟ اجابتها بهدوء وثقة : رحت مع صديقتي لعند الخياطة ، يامـــامـــا ! .

● ● ●

ـ هي زميلة صحافية ، تعمل فى مجلة نسائية ، وبالذات فى حل المشكلات العاطفية والاجتماعية للقراء . وهل تعجبون إذا قلت لكم ، إنني ما ذهبت مرة لزيارتها فى منزلها ، إلا ووجدتها باكية شاكية مما تعاني من مشاكل لها اول وليس لها آخر ، مع زوجها ومع أولادها وحتى مع جيرانها واقاربها ... وسألتنى مؤخراً : ماذا تقول في مشاكلي ..؟ اجبتها ضاحكاً (طبيب يداوي الناس وهو عليل ...) !

● ● ●

ـ تزوجا عن حب ، على أساس أن يكون التفاهم عشهما والتعاون ثروتهما والحب زادهما فى الحياة كي يتغلبا على مصاعبها وغلائها ومسؤولياتها . وبعدما رزقا بباكورة (السعادة) وتكاثرت المشاكل اليومية من حولهما ، دب الخصام محل الوئام ، وصار كل منهما يلعن اليوم الذى قاده الى (القفص الحديدي) وكان اسمه (القفص الذهبي) . وراح كيوبيد يقهقه شامتاً وهو يصوب سهامه الى ناحية اخرى!

● ● ●

ـ من متناقضات الأسماء ، أن انسانا ما يكون اسمه (كريم) وهو من بخلاء الجاحظ . او أمين واساءة الائتمان فلسفته . اوحليم والغضب بين عينيه . او ناجح وهو راسب مزمن فى تعليمه . أو ايمن وهو اعسر يكتب باليسرى . او يكون اسمها جميلة ، وهي تقول للقبح : قم لأجلس مطرحك واخيراً .. لي صديق اسمه : (رصين) ، وهــو ضارب طبلة فى فرقة موسيقيـــة ...

ـ وبعد ، هل تصدق .. لقد رايت أعمى يقود مبصراً . كان المبصر ، أعمى بصيرة .. سلامة بصائركم قبل ابصاركم .. !!

حسني شحادة

● استشهد المناضل الفلسطيني ماجد أبو شرار في الغربة بتاريخ ٩ اكتوبر ١٩٨١ ●

ليس بالسياسة وحدها.. يحيا المناضل

الفن.. له دور ورسالة

للناضل الشهيد ماجد ابو شرار

تشامخت ارض الأسراء والمعراج بقدسيتها فى عينيه ، مع كل خطوة خطاها بعيداً عن جبال الخليل ، واشجار الجليل ، وبيادر بئر السبع ، وشاطىء غزة الذهبي ، كان يرقب نجمة الاصباح ، التى امن إيمانا صادقا ، أنها ستطلع عليه يوما ، وهو بين احضان « دورا » مسقط راسه .

اه ايها الفارس الشجاع ، ركبت فى لحظة شعاع الصبح المسافر الى روما ، لتكتب باخر قطرة من دمك لفلسطين ، لتصبح يا صديق الصبا ، ورفيق العمر ، اسما وذكرى ، لتصبح باستشهادك فجرا يقهر الصهيونية ، ويرد الغزاة ، لتحرير الأرض ، ويغدو « ماجد ابو شرار » بطلا من ابطال التحرير .

إن استشهادك ، اكتمال النضج ، وتتويج الحياة ، لأن أصداءه النفاذة ستخترق اسماع الأجيال ، امتدادا فى صميم الذات ، لتحقيق الهدف ، لانك وهبتها عيونا قادرة على رؤية النصر الاتي ، فقد انتظم النهر الهادر الذى انت ومن سبقوك من الشهداء ، دفقات من منبعه الطاهر .

العمر لمحة فى مدى الزمان ، قد تطول وقد تقصر ،
طريق تسلكها الأجيال وتتوالى عليها الآجال ،
همنا أن نوفق بين مداه وعرض احلامنا ،
كقصيدة حسن معناها ، وجمل ايقاعها ،
مطلعه طفالة ، وبيت قصيده شباب وعزم ،
ومقطعه الاخير حكمة الأيام .

ولكن الأعمار ليست سواسية كلها ،
بعضها يمضى ولا اثر له ،
وبعضها قوى يوجه الأحداث ،
فلا عجب ان تجيء الاعمار متفاوتة الاثر والقيمة ، متباينة الخصوبة والتمر ،
فالأعمار التى تتابع ايامها على وتيرة واحدة ، كانها يوم واحد مكرر ،
تمضي وكانها لم تك شيئا مذكورا .
اما الأعمار التى تجيء ايامها ثقالا باحمالها ،
تمضي تاركة وراءها اثرا كبيرا على وجه الزمان ،
وإرثا عريضا تفخر به الأجيال .
فتسم العصر بفعاليتها ،
واصحابها يصنعون الحضارات .

ليس بالسياسة وحدها يحيا المناضل

ويكتبون بدمائهم التاريخ ،
فيعيشون مع الدهور أعلاماً .
ماجد ابو شرار .. علم مضيء .. بدمه لنشوده العزم على التحرير .. ومن ورائه الابطال يكملون الدرب الذى عليه سار .

البطاقة الشخصية

● فمن هو ماجد ابو شرار ؟
بطاقة الشخصية تقول :
الاسم : ماجد محمد عبد القادر ابو شرار ،
الجنسية : فلسطيني
المولد : « دورا » من أعمال خليل الرحمن .
الحالة الاجتماعية : متزوج .. وابناؤه : « إسلام ، واسماء ، وعزه ، ودالية » .
الديانة : الاسلام .
المهنة : فى حركة دؤوب : ـ مدرس فى مدرسة رفح . ـ أديب يكتب القصة فى مجلة « الأفق الجديد » المقدسية ـ صحفي فى صحيفة « الأيام » السعودية ـ رائد من رواد حركة فتح ـ مسئول الأعلام الفلسطيني الموحد .
ـ عضو الأمانة العامة لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ـ عضو المجلس المركزى لمنظمة التحرير الفلسطينية ـ عضو المجلس الوطني الفلسطيني ـ عضو القيادة العليا للعمل فى الوطن المحتل ـ عضو اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطينى « فتح » .

فى البدء كانت اللغة العربية

بدا كما يبدا الناشئة فى فلسطين ، رافق اباه فى عمله متنقلا فى مدنها وقراها ، حتى التقينا فى غزة هاشم جيران منزل وزملاء دراسة ، فى مدرسة الامام الشافعي الثانوية .
فى المدرسة كان متميزاً بشخصية قوية دمثه جعلته موضع المحبة والاحترام من المعلمين والطلاب .
هوى الحركة الكشفية ، حتى وصل رتبة قائد ، وله فى هذا المجال انشطة وحكايات ، فكان يقظا باستمرار قائدا يلتف حوله جميع الكشافين ، متعاونا ، متحملاً لكل مسؤولية ، ويقوم باى عمل .
فى الدراسة ، كان متفوقا فى اللغة العربية وخاصة فى الانشاء ، حيث تتجلى رؤاه وخياله الواسع وافكاره المستقبلية ، التى تنم عن ارضية ثقافية واسعة ، جعلت مدرس اللغة العربيه يعجب بكتاباته ، ويكلفه بقراءتها ، بالقاء معبر ونبرات مؤثرة .

الشهيد ماجد ابو شرار

بعد انهائه مرحلة الدراسة الثانوية ، توجه الى جامعة الاسكندرية لدراسة الحقوق .. وعاد ليعمل مدرساً فى مدرسة رفح للاجئين الفلسطينيين ، حيث ترك بصماته على زملائه وتلاميذه .

حكاية الرحيل

وكداب الشباب ، الذين تفرق كل فى طريق ، اختار مهنة الكتابة ، فى وقت كانت الصحف والمجلات الادبية قليلة جدا ، تهوى الاسماء اللامعة المعروفة ، ولكنه تمكن بقلمه من التعبير عن ذاته ، فنشر عدداً من القصص القصيرة ، فى مجلة «الاديب» البيروتية، وفى مجلة «الافق الجديد» المقدسية ، وبين سطورها ، يوجد المحتوى الكامن فى نفسه ، عشق فلسطين ، وتمجيد ابطالها ، والعمل لتحريرها ..
قصة «حكاية الرحيل» ، قصة فيها وجد والم ، فيها استنهاض للهمم ، دون بكاء على اطلال درست ، بل رسم لمعالم باقية ، وتعبيد لدرب العودة ، باسلوب ادبى رفيع ، يقول فى مقدمتها :
«كانت لى مدينة لها بحر تنام فيه الشمس كل مساء ، كانت لها ابنية متواضعة تاخذ مكانها تحت السماء الزرقاء ، فلا تتطاول لتنطح الفضاء حول مدينتى مزارع ، ومنذ كانت تلال رمل لها لون اشقر ، حول مدينتى كانت تتناثر بيارات برتقال ، لثمارها مذاق منعش ، ولأزهارها رائحة عطرة ، كان لى فى مدينتى بيت يقوم عند اخر انحدار للتل الرملى الأشقر ، الذى كان يحرس المدخل الشرقى لمدينتى .
عمرى تسعة وثلاثون عاماً ، وانا الآن فى مدينة لها بحر ، منه الشمس تولد كل صباح ، تلك لها بحر فيه الشمس تنام ، وهذه لها بحر منه الشمس تولد ، كان هناك لي بيت وارض ، وهنا لى بيت بلا ارض ، هناك ، كان لى ماض ، وانا هنا بلا ماض ، يومى بطاقة سوداء ، تسلمنى بعناد ونزق الى غد أشد سواداً ، هنا ، كانا بلا جذور ، بلا دعائم ، بلا اهل ، ولكنى يوماً ساعود ، لأن شمس مدينتى مازالت نائمة فى البحر» .

التين والسلاح !

«مكان البطل» قصة مهداة الى روح البطل «ابراهيم ابو دية» القائد الفلسطينى فى ثورة ١٩٣٦ ، وقد نشرت عام ١٩٦٢ ، فيها يتحسس طريق الجهاد ويتلمس درب النضال يقول :
«قلة اولئك الذين يعلمون أن العاصفة وشيكة وستاتى مزمجرة عنيدة طاحنة ، اما الكثرة فقد استسلموا لراحة لا لذة فيها .. منهم من يعلمون أن الراحة سيعقبها تعب .. اى تعب ...» .
«سلة التين» قصة النساء المجاهدات ، اللاتى كن يرفدن المجاهدين فى الجبال والوديان والكهوف بالمأكل والمشرب والسلاح .
تدور احداث هذه القصة عن فتاة تحمل سلة من التين تعرضت اثناء سيرها لانواع من عنت وصلف الجنود المحتلين ، ولكنها تمكنت من إكمال سيرها ، معرجة الى مغارة الرجال المجاهدين ، وكانت المفاجاة ، قسمان : احدهما استدراج لجنود الاحتلال ، والاخرى ، انها لا تحمل تيناً ولكنها تحمل ذخيرة وسلاحاً ، تمكن به المجاهدون من اصطياد جنود الاحتلال ...

عيون الرجال تقول : لا

«الزنجية» قصة مليئة بالرمز ، ذات مرام وابعاد عميقة فى النفس ، يحس قارئها انه يجول فى صحراء ، يبحث فيها عن ظلال وثمار ... ولكن لا ادرى لماذا وقعت يدى عليها ، الانه اورد هذا المقطع ، متحدثاً الى تمثال الزنجية التى أزعجته مرافقتها له فى غرفته ، فاينما اتجه بصره يرى التمثال يرنو اليه بعينين واسعتى الحدقتين .. فيقول :
«اخشى ان استيقظ ذات صباح فاجد نفسي ميتاً ... وحتى اذا مت ، هل ستموت الحياة ؟ عيون الرجال تقول لا ... وانا اقول الحياة لا تموت» .
وفى قصة «الشمس تذوب» يحكى ماجد ابو شرار ، جانباً من احداث حياته الخاصة ، من حيث الزمان والمكان ، ولعلها قصة حب شريفة عاشها الشهيد ، مع بطلة قصة «عريب» .. وكيف قضى العدو الصهيوني على جمال هذا الحب ..
● يقول ماجد :
«وتعود اعمدة الدخان تنتصب فوق بيوت غزة من جديد ، واشد «عريب» إلي بقوة ،

والقنابل تتناثر ، والحياة تخبو فى الشوارع ، أعمدة الدخان تقترب ... تقترب ... الدخان يزكمنى ... والحياة فى جانبى تحتضر ، سائل حار لزج يسيل فى ساقى اليسرى ... والدخان الملون يلفنى ... عيناى تبحثان بلهفة وجنون عن نور .. ، اى نور ... يدى تصدم جسد غريب ... إنه هادىء مترنح .. أيد غريبة تسحب الجسد من جانبى ... وبرفق ترفعنى ... ومحرك يهدر فى راسى .. إنها تذوب .. تذوب .. إنها النهاية » !

قلق وراء الهاتف

قصة اخرى تصور المأساة الفلسطينية .. عائلة من يافا هجرت بلدها .. واستشهد رب العائلة .. ليترك زوجة وخمس بنات .. وتشقى الأم الرؤوم فى تربية بناتها .. وتكبر «نجاح» وتتخرج من الثانوية .. لتعمل فى ادارة الهاتف .. وتنتعش الاسرة براتب «نجاح» ... ولكن الانتعاش لم يدم .. فقد تم بناء عمارة المقسم الآلى ... واستغنت الادارة عن كل العاملات وعاد الشقاء ..

إن تصوير ماجد فى قصته ومعظم قصصه .. تصوير يكشف عن عظم المأساة .. مأساة الهجرة واللجوء .. هذه المأساة التى حفرت فى نفسه الأبية جرحا عميقا .. فغدت فلسطين اغنية .. ومدنها وقراها شدوة .. وسهلها وجبلها وبحرها وبياراتها وبساتينها احلى واغلى جمال عنده ... لذلك اصبح تحريرها محور حياته .. اصبح هدفه ومقصده ..

يقول ماجد :

«إنها من يافا» .. واسمها «نجاح» ، زهرة ندية رائعة ، نبتت فى مناخ رائع وفى بلد جميل .. سماؤه غطاء ازرق ، وارضه بساط اخضر .. والكل فيه سعيد .. سعادة شاطئه الهادىء تدغدغه كل حين موجة حانية لبحر خير ... وتمتد يد آثمة غاشمة لتقطف الزهرة ... وتلقى بها بقسوة .. واستهتار الى صحراء .. بلا ماء ولا ظلال ... ومنذ ذلك اليوم .. والزهرة تعيش باوراق ذائفة .. بدون رائحة ولا شذى .. حبيسة ارض جافة ومناخ قاس» !

وانهار الجدار :

هذه القصة على نحو جديد ... كنا نلمس فى القصص .. ذكريات جميلة .. واوصافا بديعة .. ولمسة حب .. ولحظة سعادة ... يسرقها خلسة من بين السطور .. ولكن فى هذه القصة عبر فيها عن نهاية الصبر .. وغاية الضيق ... يريد ان يصنع شيئاً ... يريد ان يشلرك بايجابية ... يريد مخرجا ..

يقول :

«اعيش انا التجربة ... التجربة التى نعرفها .. نعرفها كلنا .. ولكننا لم نلتق بها ابداً .. انا سالتقى بها .. لحظات مهما طالت ... فلن أعجز .. ويكون اللقاء» ..

ثم يورد هذا المقطع وكانه يحادث احداً :

يا ماجد

— .....

ألم تقل منذ البداية إنك لن تستسلم ؟

— .....

ساتحرر انا من الزنزانة ... وساصل الى القرار!

• •

لقد شعرت بعد قراءتى ما نشره «ماجد» من قصص .. أن خيطاً واحداً ينتظم هذه القصص ... شىء فاجع حدث فى حياته ، هو النكبة .. وارتبط بها ارتباطاً صميمياً .. يرتبط بايمان عميق بان الحياة لن تموت بموتك ايها الشهيد .

إن قصص ماجد ، قصص تنم عن فكر مستقبلى ، ينفذ الى طبيعة الخطر الذى يتحرك لينفذ الى جوهر المأساة ، وتجسيدها كقضية ضمير ، ووجود ، ومصير ،وليست ابداعاً لفظياً ، او هتافاً خطابياً انياً ، بل هى تعبئة غير مباشرة للوعى القومى ،حتى أن المتتبع لما كتبه ماجد فى تلك الفترة ، يلحظ انه يعبر عن التحديات التى تنطق بها اعماق اللاجئين الفلسطينيين ، الذين كانوا يعانون الام التمزق والانصهار ، فى رمزية غير مبهمة او غامضة ، تتسم ببراعة التكتيك ، وعمق الرؤية ، وتحديد الهدف .

لقد كان «ماجد» من هذا النمط من المثقفين ، الذين تحرقهم معاناة الثقافة وضميرها الحى ، فتدخل اجسام حامليها وتسرى فى كل شريان وفى كل نبض حياة فى اجسامهم المتعبة المثقلة بهموم البشر ، وسعادتهم وقضاياهم .

ماجد الصحفى

لعل ثقافته العريضة ،وطموحاته الكبيرة ، لم يستطع ابرازها من خلال كتاباته الادبية ، فولج الى عالم الصحافة الرحيب حيث بدا ينشر فكره بقلم بارع واسلوب مبدع ، بعرض واضح ، وحماس ظاهر ،دونما تحد او انفعال ، ثم يترك للقارىء القرار .

ولكنه لم يستمر كثيراً ، لان نداء الواجب كان اهوى ، وكانت حركة التحرر الوطنى الفلسطينى فتح تتفتح اكمامها .

الجهاد هو الطريق

وكما يتنفس فجر ، كذلك تحركت اضلاع شعب كامل ، الشعب الفلسطينى ، لتتفتح فى الفاتح من يناير ١٩٦٥ ثورة .

وكان ماجد من الطليعة ، مثقفاً فلسطينياً التزم بالثورة منذ انطلاقتها ، فعاش من اجلها ، حياته وايامه وعمره ، عندما تعانقت الكلمة بالبندقية ، تعلن هذه حقوق شعب فلسطين ، وهذه ارض فلسطين ، وطريق الجهاد فى سبيل الله هو الطريق .

ماجد الأديب الثائر ،وصحبه من ارباب الكلمة المقاتلة ، ساروا على الطريق ، بوجوه سمراء ، لفحتهاهاجرة الهجرة ،فملأت الاهاب بالتجربة والوعى ، تدفعها العزيمة ، ويحدوها التصميم .

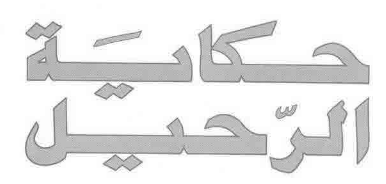
اضطلع ماجد بالاعلام الثورى ، وكان الاعلام عنده ، علاقة مع البشر ومع العقول ومع الأفكار ، وكان دائماً يحرص على ان يقدم الثورة الفلسطينية فى اطار الكلمة والموقف وحرية التعبير .

وكم عانى ماجد دون ان ييأس ، ودون ان يهرب بل ظل واقفا ، صلباً ، وكم كان يقلق ، ولكنه قلق المثقف الملتزم الذى يريد تصحيح الأخطاء وتجاوز العقبات .

على الرغم من قسوة الواقع وظروفه القاهرة ، لم يعتر ماجد ياس ولم يصبه مرض المثقفين ، لان الثقافة عنده ليست هروباً ولا راحة ولا جلسة كتاب ، إنما هى كتاب وقلم وفكر فى قلب الواقع الحى .

لذلك كان ماجد ابو شرار خطيراً ، وكانت اسرائيل تعرف مدى خطورته ، كوجه ثقافى ملتزم فى صفوف الثورة الفلسطينية من جهة ، وكوجه ثقافى عربى معروف فى الأوساط الثقافية العالمية من خلال اللقاءات والندوات والمؤتمرات ، فصبت جام حقدها الارهابى الأسود عليه ، فدبرت له قنبلة روما ، التى فجرت هذا الجسم المثقل بقضايا النضال ، وبعمق الايمان ، ولئن كان استشهاده رحمه الله غياباً لجسم ماجد ابو شرار ، فان ابتسامته وفكره وثقافته وثوريته . سوف تبقى شعاعاً ساطعاً فى دروب الجهاد حتى النصر .

حسنى شحادة



قصة بقلم : الشهيد ماجد أبو شرار

كانت لي مدينة لها بحر تنام فيه الشمس كل مساء .. كانت لها أبنية متواضعة تأخذ مكانها تحت السماء الزرقاء فلا تتطاول لتنطح السماء بحجارتها واعمدتها .. حول مدينتي كانت مزارع ، ومنذ الأزل ، كانت تلال رمل لها لون اشقر .. حول مدينتي كانت تتناثر بيارات برتقال لثمارها مذاق منعش ولأزهارها رائحة عطرة كان لنا في مدينتي بيت يقوم عند اخر انحدار للتل الرملي الأشقر الذي كان يحرس المدخل الشرقي لمدينتي ..

عمري تسعة وثلاثون عاماً ، وأنا الآن في مدينة لها بحر منه الشمس تولد كل صباح .. تلك كان لها بحر فيه الشمس تنام ، وهذه لها بحر منه الشمس تولد .. كان هناك لي بيت وارض ، وهنا لي بيت بلا أرض .. هناك كان لي ماض ، وكنت املك ناصية يومي .. وكنت ازرع احلاما تشرق بهية في غدي ، وانا هنا بلا ماض .. يومي بطاقة سوداء تسلمني بعناد ونزق الى غد أشد سواداً .. هنا انا بلا جذور .. بلا دعائم .. بلا أصل ..

ـ اتاكل شيئاً .. الجوع يكاد يفريني .

في كل صباح كانت اشعة الشمس تذيب حبات الندى المرشومة على الواح زجاج غرفتي بعد أن تمسح اخر اثار الليل من ذرات التل الرملي الاشقر فافتح عيني وادعكهما بدعة وانهض نشيطا لاستقبل يوما جديدا من عمر كنت احبه .. كان ابرز ما في يومي انذاك ابتسامة رضى تطل من شفتي امي .. كانت بسمتها برعم زهرة برتقال فيه عطاء وله شذى طيب . كنت اتملى وجه امي المجعد الشمعي اللامع فارى فيه كل معاني الخير والحب والاخلاص .. كانت تحبنا وكنا نحبها كانت في البدء تود ان تقبلني كل صباح كما تفعل مع شقيقاتي وشقيقي .. لكنني رفضت فقطبت جبينها ثم فردته وتنهدت ، فهمست بحنو :

ـ اماه .. بسمتك برعم زهرة برتقال فيه عطاء وله شذى طيب وانا لا أريد لهذا البرعم الا أن يظل بكراً نضراً ندياً .. لا اريد لأثار النوم التي تطبع وجهي كل صباح أن تذبل البرعم وتفقده نضارته .. أريده بكرا وبكرا دوما ..

ويزداد البرعم تفتحا ونضارة وتربت بكفها الطرى على كتفي وتهمس بصدق وحرارة .

وفقك الله يا محمد ومنحك كل ما عنده من خير وهناء ..

كانت تجمعنا مادبة الافطار التي كانت تكون في أيام الصيف تحت اغصان شجرة الجوافة الضخمة والتي كانت والدتي دوما تتحسس اغصانها بتمهل وتأمل وتهمس :

ـ لقد زرعها المرحوم يوم نزلنا هذا المنزل .. كان كل ما يتمناه ان يملك بيتا .. جد واجتهد وبنى البيت وزرع الحديقة .. لكنه ويا حسرتي لم يأكل من ثمارها .

وتهمس (عطاف) اكبر شقيقاتي والتي كانت لها كل ملامح امي :

ـ زرعوا فاكلنا ، ونزرع فياكلون .

وتعود والدتي لتهمس وحبات دمع تكاد تتسلل مجفلة مع شواطيء عينيها :

ـ فيكم الخير يا ابنتي واطال الله في اعماركم ..

وتنهض أختي (آمال) وتقطف حبات الجوافة المبللة بالندى وتضعها في طبق فتسارع إلى تناولها بنهم وتلذذ وعيونها تتحاشى ان تلتقي مع عيون الوالدة التي امتنعت عن تناول حبات الجوافة منذ ان حرم منها الذي غرسها وجعل منها اغصان عطاء وخير .. وينصرف كل فرد من عائلتي الى عمله . (عطاف) تبقى في البيت و (أحمد) يركب دراجته متوجها الى مدرسته و (آمال) من خلفه تصيح وترجوه ان يركبها خلفه فيقف قليلا ليوهمها بانه ينتظرها حتى اذا ما كادت تدركه يتركها مبتعداً فتضرب الأرض بقدمها الصغيرة وتتوجه هي الأخرى الى المدرسة .

كنت في تلك الأيام أعمل مدرساً في المدرسة الثانوية الوحيدة في المدينة وكان لي طلاب كنت أرى الأمل في الغد المرجو يتفتح في صفاء عيونهم بساتين نفء وحياة .

كنت أرى فيهم كلهم اخي احمد ، فيزداد حبي لهم وتتضاعف جهودي من اجلهم .. كان كل ما حولك يدعوك لأن تعمل وتعمل دون إبطاء او تواكل ، وكذلك كنت اطمع في غد مشرق وكنت أعلم ان هذا الغد لن يكون الا اذا شاركني كل من حولي في بنائه . كنت سعيداً . سعادة عارمة قوية لا حدود لها .. شيء واحد كان يحاول أن يخدش صفاء سعادتي .. أمل عزيز كان يعز على امي الا تحققه قبل ان تغادرنا لتلحق بالذي زرع شجرة الجوافة .. قبل أن أنام وفي بعض الامسيات كانت تجلس على طرف

سريرى وتطرق فأرى الأمل مشوباً بتهيب وخوف يسبح في صفاء عينيها فاستنتج سلفاً ما الذى يدور فى نفسها ويعذبها وانتظر حتى تهمس .

ـ محمد ..

ـ ما الذى تريده الراعية .. ؟

ـ محمد .. هل .. هل انت سعيد ؟

ـ ما دمت كذلك ..

ـ شكراً يا ابنى .. لكن .. لكن اريد سعادتى ان تكتمل .. اريد ان ارى لك زوجة ..

ـ اشكرك ياراعية .. لكن مهلا .

ـ مهلا .. مهلا متى ننتهى من هـــذه ال (مهــلا) ؟

ـ حتى تتزوج (عطـــاف) وكـذلك (أمال) وحتى يكمل (أحمد) دراسته الجامعية ..

كانت فى البدء تستمر فى مجادلتى لكنها فى الفترة الأخيرة أقلعت عن ذلك وصارت تتركنى متعكرة مصدومة واظل مع رؤى حلوة عذبة أرى فيها « عطاف » و « امال » وقد ضمهما بيت زوجية سعيد .. وارى « أحمد » محامياً كبيراً .. أرى (سلام) يحبو ويبتســم انــا أبوه و (فاديه) أمه .. كنت احب فاديه حتى العظام . وكذلك كانت هى . لكن واقعي كان يؤجل دوما لقاءنا المعطاء ، ويؤخر بالتالى أطلالة حلوة لابننا (سلام) كنت أعيش على أمل أن تكون .. فهل كان هذا اللقاء ؟ كان ان ازداد الواقع تعقيداً .. واقع يغبشه دم ، يخنقه دخان قنابل تهدم بيوت مدينتى ، تمزق أجساد ابناء مدينتى تنشر الدمار والموت فى كل أجزاء مدينتى .. وكنت يائساً لكن بعناد .. واظبت على الذهاب الى المدرسة لاجد فى النهاية ان ليس ثمة من طلاب بل مقاعد يعشش الغبار فى شقوقها ويكسيها لون تراب القبور . فعدت لاقبع فى البيت ونظرات والدتى وشقيقاتى تلهبنى فى كل لحظة كنت اعيش .. كانوا يريدون ان يقولوا الكلمة .. لكنهم يعرفون ردي فماجراوا على التفوه بها .. واخيراً وبعد ان نامت الشمس فى بحر مدينتى قلتها .. قلتها وانا اكاد اتمزق (لنغادر المدينة) .. وصعدت مع التل الرملى الأشقر وجلست على نعومته وتفرست الغرب .. كانت ثمة أعمدة دخان ازرق تنتصب متلوية فى فضاء مدينتى ، وكانت الطلقات تعوى فى اجواء مدينتى .. وكانت شمس مدينتى قد نامت فى البحر مخلفة سواداً اخذ يفرش الكون من حولى .. صحوت على صوت امى المشروخ ..

ـ نحن جاهزون يا ابنى ..

كانت هناك ، تحت شجرة الجوافه متشبثة ببعض اغصانها .. انحدرت مع التل مخدراً ممزقاً .. مررت بشجرة الجوافة .. كانت الراعية لا زالت هناك .. شعرت بوحشة قاسية .. وددت ان اقول شيئاً .. اى شىء . لكن لساني كان ملويا بقوة فى فراغ فمي ، وغصة مدمرة تكاد تخنقني .. تحركت وسحبت الراعية من يدها وحاولت أن أضمها الى صدرى لكنها سبقتنى الى ذلك وطوقتني بذراعيها وصدرها يعلو ويهبط بتشنج حاولت أن تخفيه فما استطاعت ، وتدلت يداها فأمسكت بيسراها بينما كانت يمناها مضمومة باصرار على حزمة أوراق خضراء خشنة .. كانت من أوراق أغصان شجرة الجوافة .. كان هذا آخر عهدنا بالجوافة .. فمنذ ان غادرنا الغرب متجهين الى شرق متجهم يابس ، حرمنا منها .. كان هناك شبه اتفاق بيننا على الا نذوقها .. رائحتها الآن تغيظني وتفتت أعصابي ..

ـ لنأكل شيئاً .. الجـــوع يـــكاد يفريني ..

ـ لا رغبة لدي فى تناول الطعام .

ـ لكنك لم تأكل شيئاً منذ الصباح .

ـ اى صباح ؟!!

ـ صباح هذا اليوم .

ـ هيه .. وهل لهذا اليوم صباح . أنا لا أراه .. ولا أحس به .. لا أكاد أميزه عن أى شىء أخر .. الصبح يا أخى يغسل السواد . يغسل كل شىء . هذا الذى تسميه صباحا لا يفعل ذلك . باللـه لا تنظر الي هكذا يا أخى .. نظراتك فيها شىء .. نظراتك تود ان تقول من انا .. انا اعرف من انا . انا مجرد قرمة خشب ملقاة على قارعة طريق ، تركلها كل حين قدم نزقة ، تتحسسها يد معروقة هزيلة ثم تاكلها فى النهاية نار ملعونة .. انا لا احب نظراتك .. لا أحبها .لا.احبها يمكنك ان تتركني لتتناول طعامك . لكن مهلاً . مهلا .. علك تتوق الى سماع بقية الحكاية . لا باس .. لا باس . فالدنيا كلها حكاية .. حكاية تبسم مرة وتعبس اخرى .. فى الشرق اقمنا .. وفى الشرق قمنا بيتاً لنا .. كان كالبيت الذى كان لنا فى المدينة التى كانت لنا .. جعلنا له حديقة .. زرعناها ورداً ورياحين وتركنا بقعة داكنة لا تزال تنتظر عرقاً داكناً يغرس فيها ليصبح مع الأيام شجرة جوافة .. هذا العرق لم يغرس حتى اليوم .. الراعية لازالت ترعانا ، و « عطاف » الرائعة الحلوة ماتت فجاة بعد أن غادرنا الغرب بعامين ، آمال لها ابن اسمه (سلام) .. أحمد كما كنت أريد أن يكون .. محام ارجو له كل توفيق ونجاح وسعادة .. وانا هنا .. لازلت اروى كل يوم حكاية الغرب .. وأغصان شجرة الجوافة لا زالت حطباً يتقصف كل لحظة فى قلبى .. تلة الرمل الشقراء لا زالت تنهال على جسدى المحطم كل لحظة فتخنقني .. « عطاف » الميتة لم تزرع ما يؤكل .. وشمس مدينتي ما زالت نائمة فى البحر .



وعن الماء .. نقول

بقلم : درويش مصطفى الفار

تماماً ، كما لا يدرك الشوق إلا من يكابده ، فانه لا يدرك قيمة قطرة من الماء ، ويعرف قدرها ، إلا من عركته الصحراء ، برمضائها ولفحه حر قيظها ، فى مهمه قفر بلقع ، يتراءى فيه السراب بكل قيعة ، وقد نفد مافى سقائه من ماء ، مع يقينه ببعد الشقة عن كل ثميلة ، او ثمد ، او قليب جفر ... هنالك فقط ، يدرك المرء ، حقيقة اهمية الماء ... ذلك السائل العجيب ، الفريد بين كل ما خلق الله سبحانه فى هذا الكون الفسيح ... فمن بين الالاف المؤلفة من المركبات الكيمائية ، طبيعية او صناعية ، معدنية أو حيوية ، ينفرد ذلك السائل الذى لا لون له ، ولا طعم ، ولا رائحة ، بخصائص تدعو كل ذي عقل ، أن يتامل فيها ، ويتساءل عنها ... هل تلك الخصائص ، في الماء ، مجرد (صدفة) عمياء ، انقشعت عنها قوانين الاحتمال.؟ أم ان (صانع الماء) قد اوجده بصفاته تلك ، ليقضى امراً كان مفعولا ؟

من تلك الصفات والخصائص ـ على سبيل المثال فقط ـ أن الماء :

١ ـ وهو احد مركبات الهيدروجين ، مع احد أفراد مجموعة العناصر السادسة ، فى جدول مندليف المشهور ، يتميز عن (كل) مركبات الهيدروجين ، مع غير الأوكسجين ، من عناصر تلك المجموعة كالكبريت ، والسيلينيوم ، والكروم ، والتنجستن بانه المركب الأوحد الذى يكون سائلا فى درجات الحرارة العادية ، فى حين أن المركبات الأخرى تكون إما غازية او صلبة القوام

ب ـ أن الماء ، وحده ، هو الملائم للأحياء ، دون مركبات الهيدروجين الأخرى ، وكلها دون استثناء ، عدا الماء ، سامة قاتلة للأحياء من النبات والحيوان ، على السواء ...

جـ ـ أن الماء ، له خاصية مميزة فريدة عجيبة ، تسترعى الانتباه ، وهي أنه إذا برد فان كثافته تزداد ، أي يثقل وزنه ويقل حجمه ، حتى إذا ما وصل إلى درجة (٤) مئوية فان أمره ينعكس ، فتقل كثافته ، بازدياد يطرا على حجمه ، حتى إذا ما أصبح ثلجا عند درجة الصفر المئوي ، طفا فوق بقية الماء ، وحماه من التجمد ... وهنا تشرق امام ذوى البصائر حكمة بالغة ... إذ كيف تكون حال الكائنات الحية كلها ، مما يعيش فى الانهار والبحيرات والمستنقعات ، بل والبحار القطبية ، لو أن صاحبنا ذاك (الماء) لا تتغير صفاته الفيزيائية ذلك التغير العجيب عند درجة (اربعة) تلك ، فوق الصفر المئوي ؟ ذلك سؤال نترك الاجابة عنه لكل من يكرم عقله وينزهه عن الأخذ بنظرية الصدفة ، فى وجود هذا الكون ... ثم نطالب كل من يكرم عقله وينزهه ، بالتفكر معنا ، فى أمر ، قد لا يبدو لأول وهلة ، ذا اهمية أو بال ... فقد نكون ، نحن معشر العرب ، من اقل الناس علماً ، بحاجتنا الى الماء ، ولا اقول نحن اقل الناس اهتماما إذ منا من يفكر فى نقل الماء على هيئة كتل من الثلج نجدها عبر المحيطات والبحار ، من القطب الجنوبي إلى البحر الأحمر ، ومن واجبنا ايضا التفكر فى نقل ثلوج القطب (الشمالي) ، إلى أهلينا فى غرب افريقيا ، حيث الحاجة إلى الماء بالغة ... هذا الأمر الذى نحن بصدده اليوم ، فى عجالتنا هذه ... هو التوصل إلى انشاء « مؤسسة عربية (شعبية) للدراسات المائية » بعيدة تماماً عن الصراعات السياسية ، والاختلافات العربية العديدة الكثيرة الفروع والتشعبات ... تكون مهمتها الأساسية والفرعية ، المعلنة والخفية ، بتضافر العقول العربية (المقيمة والمغتربة) دراسة كل الآفاق والسبل العلمية والتكنولوجية لزيادة الثروة المائية فى أرجاء الوطن العربى بلا استثناء ، بعيدة كل البعد عن (فقه بيزنطة) تعمل على :

أولا : استنقاذ كل قطرة ماء تضيع هباء ، فى البطائح والمستنقعات ومصبات الأنهار ومجاري الوديان بعد المطر ...

ثانيا : استنباط مصادر جديدة للماء ، فى مضمار المطر الصناعي ، أو تحلية مياه البحار بالطاقة الذرية أو بطاقة الغازات الطبيعية .

ثالثا : وترويض ما يمكن من المحصولات الزراعية لمواءمة بعض انواع المياه المالحة فى وطننا كله ، وخاصة حواف السباخ البحرية .

رابعاً : التفكير فى ابتداع طرق جديدة لتوفير الماء ، فى الاستعمالات اليومية ، فاعلم ان (غيرنا) قد ابتاع جهازاً جديداً لتوفير الماء العذب الذى يضيع فى دورات المياه والحمامات بحيث أصبح الاستهلاك فى هذا الباب اقل من السدس !! فهل يستطيع احدنا ان يبتدع لنا أسلوباً لتوفير الماء الضائع أثناء الوضوء ـ مثلا ـ فيما بين غسل مختلف الأعضاء ؟؟ .

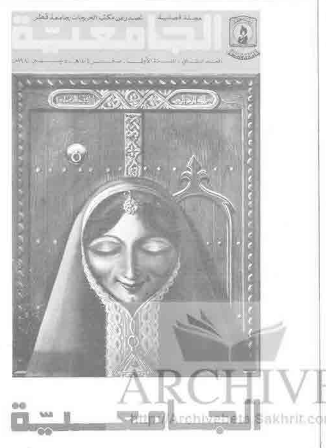
خامسا : رصد مكافاة أو جائزة لذلك العالم او التكنولوجي العربى ، او مجموعة من العلماء والتكنولوجيين العرب ، ممن يستطيع ان يحقق عربيا وعالميا ، جهازاً يعمل بالطاقة (الحرارية) الشمسية ، او بالطاقة (الحرارية)

المستمدة من الغاز الباطني ، سواء الغاز المصاحب للزيت الذى نحرقه قرب مستودعات الحقول ، أو الغاز الطبيعي المستقل عن الزيت ، ويكون عمل ذلك الجهاز استنقاذ الماء من (الرطوبـــــة الجوية) القريبة من سطح الأرض ، والتى تكون الضباب والندى فى بعض الاحوال . والرطوبة الجوية على مستوى السواحل العربية لدى الخليج ، وبحر العرب ، والبحر الأحمر بشاطئيه على وجه الخصوص ، يمكن أن تكون مصدرا مفيداً للماء ، لو أعطيناها من العناية العلمية ماتستحق.. ويستحق جائزة عالمية المستوى ذلك الذى يبتدع جهـازاً اقتصادياً لاستنقاذ تلك الماء ، يستوحيه من مشاهدة ، قد لا تغيب عن بال الانسان الجيد الملاحظة ، إذا راقب اجهزة التكييف المنبثة فى مدينة كعاصمتنا هذه الدوحة ، حيث امكن التوصل الى حساب مبدئي يقول بان (خمسة آلاف) جهاز تكييف ، تكثف من الرطوبة الجوية (يومياً) ما يقارب (مليوني) لتر من الماء ... قد لا يكون هذا الرقم سارى المفعول على كل ايام السنة ، ولكنه بالتاكيد مؤشر هام إلى خطورة ضياع ماء الرطوبة الجوية ...

فهل يتحقق حلم انتـــاج جهـــاز تكنولوجي حديث بابداع عقليات عربية للاستفادة من الرطوبة الجوية على طول سواحلنا ، لنصنع بها الماء للشرب ، والزراعة ولو على نطاق ضيق جداً ؟ .

إن انجازا كهذا يستحق من التمجيد والاحترام ما لا طاقة لى بوصفه ، إذ يعيد إلى الأذهان عالميا حقيقة عنصر هذه الأمة وقدراتها فى العلم والتكنولوجيا دون ريب .

درويش مصطفى الفار



اصدر مكتب الخريجات بجامعة قطر العدد الجديد من مجلة « الجامعية » ، وفى هذا العدد قدمت الفتاة القطرية المثقفة صورة حية لنشاطها الفكرى والفنى ، وكشفت صفحات العدد الجديد من « الجامعية » عن مواهب اصيلة قدمتها جامعة قطر ، من بين المتخرجات فى هذه الجامعة الشابة ، فقد كان الغلاف الاول لوحة فنية بديعة للرسامة القطرية بدرية جاسم الدرويش ، كما كان الغلاف الاخير لوحة للفنانة القطرية الموهوبة فينة كاظم ، وجاء فى افتتاحية العدد الجديد من « الجامعية » ان « الخريجة القطرية لها حقوق لابد ان تتوفر لها ، وعليها واجبات لابد ان تؤديها ، والخريجة لا تطالب بالمراكز والمناصب العالية كما يشاع عنها ، بقدر ما تسعى للحصول على الخبرة الجيدة والعطاء المثمر فى اى مجال تتولاه .. إننا نؤمن بأن عمل المراة ليس صادراً عن كونه ضرورة لتطور المجتمع وموازنته الانتاجية فحسب ، بل معناه اوسع واشمل من هذه المفاهيم ، فهو عمل يحث الانسان على إثبات ذاته واكتشاف قدراته » ، وفى ختام افتتاحية « الجامعية » نجد « صرخة » تطالب « الخريجة بالمشاركة فى سائر الأنشطة الاجتماعية والثقافية » حتى « نثبت دائما اننا نملك عقولا وشخصية متكاملة الجوانب » وعلى صفحات « الجامعية » نلتقى باقلام الخريجات القطريات فى المقالات والأبحاث والدراسات والقصص والقصائد والتحقيقات الصحفية ، وفى كل هذه المجالات اثبتت الخريجة القطرية جدارتها وموهبتها وعمق نظرتها إلى الامور وجديتها فى البحث والتفكير والتعبير .. تحية للجامعية ، فى عددها الممتاز ، شكلا وموضوعا .. وتحية لمريم الخليفى ولطيفة المناعى المشرفتين على تحرير « الجامعية » .. وفى انتظار اعداد اخرى وخطوات « للجامعية » اكثر ثقة وثباتا على طريق المستقبل .

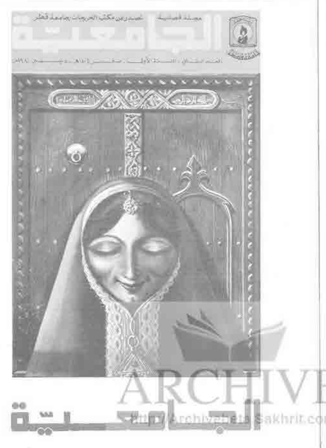
« الدوحـــــة »

المستمدة من الغاز الباطني ، سواء الغاز المصاحب للزيت الذى نحرقه قرب مستودعات الحقول ، أو الغاز الطبيعي المستقل عن الزيت ، ويكون عمل ذلك الجهاز استنقاذ الماء من (الرطوبـــــة الجوية) القريبة من سطح الأرض ، والتى تكون الضباب والندى فى بعض الاحوال . والرطوبة الجوية على مستوى السواحل العربية لدى الخليج ، وبحر العرب ، والبحر الأحمر بشاطئيه على وجه الخصوص ، يمكن أن تكون مصدرا مفيداً للماء ، لو اعطيناها من العناية العلمية ماتستحق.. ويستحق جائزة عالمية المستوى ذلك الذى يبتدع جهـازاً اقتصادياً لاستنقاذ ذلك الماء ، يستوحيه من مشاهدة ، قد لا تغيب عن بال الانسان الجيد الملاحظة ، إذا راقب اجهزة التكييف المنبثة فى مدينة كعاصمتنا هذه الدوحة ، حيث امكن التوصل الى حساب مبدئي يقول بان (خمسة آلاف) جهاز تكييف ، تكثف من الرطوبة الجوية (يومياً) ما يقارب (مليوني) لتر من الماء .. قد لا يكون هذا الرقم سارى المفعول على كل أيام السنة ، ولكنه بالتأكيد مؤشر هام إلى خطورة ضياع ماء الرطوبة الجوية ...

فهل يتحقق حلم انتـــاج جهـــاز تكنولوجي حديث بابداع عقليات عربية للاستفادة من الرطوبة الجوية على طول سواحلنا ، لنصنع بها الماء للشرب ، والزراعة ولو على نطاق ضيق جداً ؟ .

إن انجازاً كهذا يستحق من التمجيد والاحترام ما لا طاقة لى بوصفه ، إذ يعيد إلى الأذهان عالميا حقيقة عنصر هذه الأمة وقدراتها فى العلم والتكنولوجيا دون ريب .

درويش مصطفى الفار



اصدر مكتب الخريجات بجامعة قطر العدد الجديد من مجلة « الجامعية » ، وفى هذا العدد قدمت الفتاة القطرية المثقفة صورة حية لنشاطها الفكرى والفنى ، وكشفت صفحات العدد الجديد من « الجامعية » عن مواهب أصيلة قدمتها جامعة قطر ، من بين المتخرجات فى هذه الجامعة الشابة ، فقد كان الغلاف الاول لوحة فنية بديعة للرسامة القطرية بدرية جاسم الدرويش ، كما كان الغلاف الاخير لوحة للفنانة القطرية الموهوبة فينة كاظم ، وجاء فى افتتاحية العدد الجديد من « الجامعية » ان « الخريجة القطرية لها حقوق لابد ان تتوفر لها ، وعليها واجبات لابد ان تؤديها ، والخريجة لا تطالب بالمراكز والمناصب العالية كما يشاع عنها ، بقدر ما تسعى للحصول على الخبرة الجيدة والعطاء المثمر فى اى مجال تتولاه .. إننا نؤمن بأن عمل المرأة ليس صادراً عن كونه ضرورة لتطور المجتمع وموازنته الانتاجية فحسب ، بل معناه اوسع واشمل من هذه المفاهيم ، فهو عمل يحث الانسان على إثبات ذاته واكتشاف قدراته » ، وفى ختام افتتاحية « الجامعية » نجد « صرخة » تطالب « الخريجة بالمشاركة فى سائر الأنشطة الاجتماعية والثقافية » حتى « نثبت دائما اننا نملك عقولا وشخصية متكاملة الجوانب » وعلى صفحات « الجامعية » نلتقى باقلام الخريجات القطريات فى المقالات والأبحاث والدراسات والقصص والقصائد والتحقيقات الصحفية ، وفى كل هذه المجالات اثبتت الخريجة القطرية جدارتها وموهبتها وعمق نظرتها إلى الامور وجديتها فى البحث والتفكير والتعبير .. تحية للجامعية ، فى عددها الممتاز ، شكلا وموضوعا .. وتحية لمريم الخليفى ولطيفة المناعى المشرفتين على تحرير « الجامعية » .. وفى انتظار اعداد اخرى وخطوات « للجامعية » اكثر ثقة وثباتا على طريق المستقبل .

« الدوحـــــة »



حتى لا يضيع التراث الشعبي في الخليج

بقلم : بشرى ناصر

جاء فى مفتتح مشروع وثائق التأسيس لمركز التراث الشعبى لدول الخليج ما يأتى :

تعتبر منطقة الخليج والجزيرة العربية من اجزاء الوطن العربى التى تاخرت كثيرا فى رعاية وحماية التراث الشعبى والعمل على الاستفادة منه .. وتوظيفه توظيفاً علميا لاغناء تقدم بعض المجالات الاخرى .. على الرغم من اكتساح المتغيرات لكل نواحى الحياة ونفاذها الى أعماق الانسان بسرعة مذهلة فى هذه المنطقة الاستراتيجية من العالم .. بحيث طغى الجديد الوافد على اصالة القديم وطمر منابعه واخذ يعمل منه تغيرا وتحويرا... .. ويبعد به عن الأصول حسبما تقتضيه روح العصر الحديث وأدواته ..

وقبل حوالى مائة عام من الان أدركت الشعوب المتقدمة بانه اذا كانت هذه سنة الحياة وقانون التطور .. فلا بد من رعاية وحماية جذورها واصولها من الضياع والتلف .. فانشات المراكز والهيئات والجمعيات الوطنية لرعاية وحماية التراث الشعبى وبذلت من اجل تلك المال والخبرات والتضحيات .. واستطاعت أن تصل ماضيها بحاضرها وتحقق قدرا كبيراً من التوازن والتواصل بين مختلف الأجيال .

من اجل ذلك وبعد تخطيطات جادة وجهود واعية يتم افتتاح مركز خاص بالتراث الشعبى وكل ما له صلة بذلك ... وقد اختيرت دولة قطر مكاناً لمقر هذا المركز .

وبعد المؤتمر الذى أقيم في الشهر الماضى وما دار من نقاش وحوار .. وجدت نفسى أبحث عن أجوبة لأسئلة تزيل كل غموض يعلق فى وقته .. حملت اوراقى واتجهت الى على عبد الله خليفة والذى وجدته ساهراً حتى ساعة متأخرة من الليل مع افراد يشاركونه هذا الحب للموروث الشعبى وقال على عبد الله خليفة فى البداية عن مركز التراث

الشعبي :

إن أهداف المركز تتلخص فيما يأتي :

● جمع وتدوين وتحقيق كل ما له علاقة بالثقافة الشعبية التى كانت سائدة فى الماضي بدول الخليج العربية والتى تمثل روح الشعب وحكمته وابداعاته المختلفة مثل اللغة المحكية وصوتياتها وعلوم صناعتها والأشعار والاهازيج والأزجال والرقص والحكايا والأساطير .

● تقديم الدراسات ونشرها حول التراث الشعبي الخليجي من منطلق الدراسة الشاملة لتراثنا .

● رعاية هذا التراث كثروة وطنية وقومية وحمايته من استغلال الغير .

● تاكيد المحتوى الوطني لطبيعة العمل الميداني لتجميع التراث الشعبي وحفظه عن طريق خلق مشاركة شعبية واسعه تساهم فى جمع المواد وتسند العمل الرسمي فى رعاية التراث وحمايته

● انشاء مكتبة متخصصة للتراث الشعبي (سمعية وبصرية) باحدث الاساليب العلمية لتكون مرجعا للدراسين .

● العمل على ادخال المناسب من اجل الثقافة الشعبية وما طرحته من قيم سامية الى مناهج التربية الحديثة بالدول الاعضاء .

● تطوير امكانيات الدول الاعضاء فى مجال الاهتمام والرعاية الخاصة بالتراث .

– اما وسائل تحقيق تلك الأهداف فتكون بالنقاط التالية :

● تشجيع وتبنى جهود الافراد والمؤسسات الأهلية التى تمس مجال عمله .

● تقديم منح دراسية واقامة دورات تدريبية متخصصة لتأهيل الكوادر المحلية والاعتماد عليها .

● اصدار مجلة علمية متخصصة وإقامة مواسم ثقافية وابتداع الأفكار والوسائل الحديثة فى نشر التراث وربط الأجيال الجديدة باصالته .

● التعاون مع المركز الاقليمي للتوثيق الاعلامي لدول الخليج فيما يختص بالتراث .

● تشكيل اللجان الدائمة والمؤقته اللازمة لدراسة بعض المسائل الخاصة .

● اية امور اخرى يقررها مجلس الإدارة فى حدود اغراض المركز .

التراث الواحد

قلت لعلي عبد الله خليفة : بصفتك المشرف على مشروع مركز التراث ، نريد منك توضيح ذلك التشابه الكبير فى ماثوراتنا الشعبية سواء كانت حكاية او امثلة او مقولات ؟

– منطقة الخليج والجزيرة العربية منذ فجر التاريخ كانت مهداً لحضارات ، وكان لها دور كبير فى التراث الانساني .. واثناء ازدهار تلك الحضارات وتفاعلها مع الحضارات الأخرى ، كانت اغلب دول المنطقة يطلق عليها اسم تاريخي واحد يشمل كل اجزائها .. وبتطور الاحـــداث التاريخيـــة والسياســية والاجتماعية ظلت لهذه المنطقة ظروفها المشتركة الواحدة .. فنتاج الناس على هذه الارض على مر العصور تعبير عن همومهم المعيشية .. ولقد توصلت الدراســات الفلكلوريـــة والاسطورية المقارنة إلى ان هناك اساساً اسطورياً وفلكلورياً لاغلب الشعوب العربية منذ اكثر من الفي سنة قبل الميلاد سواء كان فيما بين النهرين او فى الجزيرة والشام ولبنان وفلسطين . وهذا يعني ان منابع الميثلوجيا العربية تقترب بجذورها على مدى ستة آلاف عام فى الجزيرة العربية وما جاورها . ولقد تواتر هذا النتاج الحضاري الذى أسهم فيه الشعب الخليجي بنصيب وافر وتواصلت حلقاته تأثراً وتأثيراً حتى ورثناه اليوم .

فالتراث الشعبي الذى بين ايدينا الآن نتاج منطقة واحدة وهو كل لا يتجزأ ويعتبر احد جوانب الفولكلور العربي . فالأشعار ، والأزجال ، والأمثال الشعبية ، والحكايات ، وكل جوانب التراث الشفاهي فى كل المنطقة واحد لظروف متشابهة ومعاناة واحدة اضافة إلى أن العادات والتقاليد التى أفرزتها الممارسات اليومية للأجيال الماضية فى كل منطقة الخليج واحدة .

وهي تعكس جوانب المعاناة الاجتماعية للأجيال المتعاقبة .. وإذا اخذنا الجوانب الأخرى كالرقص والغناء والحلي والأزياء والطب والصناعات ، فلا تختلف فيه أية دولة خليجية عن اخرى إلا بقدر اختلاف القرية الواحدة عن الاخرى فى البلد الواحد . فتراثنا الشعبي هو تراث عرب الجزيرة العربية وما جاورها وما تفاعل به مع الحضارات الأخرى حتى وصل إلينا .

المهارات والاستعداد

وعدت لأساله : إذن ماهي الطريقة التى تتم بها الدراسة والبحث فى المركز ؟

قال لي : لكل جانب من جوانب التراث الشعبي طريقتـه الخاصة فى التناول والبحث .. ففى مجال الأدب الشعبي لابد أن يبدأ الباحث عمله بجمع المادة الشفاهية او (المحكية) وهذه البداية هى التى توفر المادة الخام موضوع البحث ، ثم تمر هذه المادة بعد جمعها بمراحل عديدة متعارف عليها لدى الباحثين فى هذا المجال حيث تاخذ طريقها أولا إلى تدوين النصوص على الورق وتحقيقها وضبط مفرداتها ثم توثيقها وتقديمها كمادة موثقة توثيقاً علمياً ليستفيد منها الباحثون فى علوم الانسان والميادين العلمية الأخرى ذات العلاقة .

وفى مجال اخر كمجال فنون الغناء والرقص .. لابد من تسجيل المادة تسجيلا سمعياً وبصرياً وإعداد مادة فلمية وثائقية تسجل الموسيقى والأغنيات وتعرض للحركات الايمائية . والايقاعية التى يقوم بها الراقصون ، ثم تعرض هذه المادة على الباحثين فى المجالات المتعددة .. فالباحث الأدبي يتناول النص .. والموسيقى يتناول مجاله .. وهكذا .

وفى مجال الصناعات الشعبية لابد أولا من حصر تلك الصناعات التى كانت سائدة فى تلك الأزمان .. وتحديد ما انقرض منها .. وما هو مستمر .. مع توصيف كل صناعة على حدة .. طريقة الصانع فى إبداع بضاعته وتسويقها وطريقته فى ابتكار الأشكال واكتشاف المواد الخام .

وفي اعتقادى أن الباحث فى مجال التراث الشعبي لابد وأن يتمتع بمهارات متعددة واستعداد ثقافي للتعاون والاستفادة من جميع مجالات العلوم والفنون المساعدة الى جانب مجال تخصصه .



حتى لا يضيع التراث الشعبي في الخليج

●● استاذ على .. أى المناطق برايك في (منطقة الخليج) تمتلك قوة حبك وخلق الحكايات والأمثلة الشعبية ؟

ـ تتميز بعض مناطق الخليج نتيجة للموقع الحضاري والتاريخي ونتيجة لكثافة السكان وتنوع سبل العيش بكثافة انتاج الموروث الشعبي .. فمنطقة مثل سلطنة عمان تعتبر غنية بالتراث الشعبي .. فتاثيرها التاريخي بعيد الأثر .. إلى جانب كونها البوابة التى عبرت منها الفنون الخليجية الوافدة .. وهي الفنون التى قدمت من الساحل الأفريقي عن طريق عمان إلى بقية اجزاء الخليج .. وبصفة عامة تعتبر المناطق القريبة من الساحل هي المناطق المتعددة الفنون نتيجة لكونها نقطة الاتصال والتواصل مع الشعوب والحضارات المجاورة ، فكلما اتجهنا إلى الساحل تعددت الفنون وتنوعت .. وكلما اتجهنا الى الداخل بعيداً عن الساحل انحصرت هذه الفنون وقلت كثافتها . ففنون البادية مثلا .. فنون محدودة ومعروفة .. لأن البدوي بطبعه كان غير ميال لقبول الجديد على عكس أبناء الساحل نتيجة احتكاكهم باقوام ولغات وعادات مختلفة ميالون إلى استقبال الجديد الوافد ، والتأقلم معه وتبنيه فى بعض الأحيان . وكما هو معروف فى منطقة الخليج تتوزع الثقافة الشعبية التى كانت سائدة فى الماضى ثلاث بيئات اجتماعية.

البيئة الصحراوية أو البدوية .. والبيئة الساحلية أو البيئة الزراعية والتى تمثلها القرى الصغيرة المتناثرة فى الخليج .. ولكل بيئة من هذه البيئات فنونها وعاداتها المميزة.

منابع الأصالة

وهنا سألت على عبد الله خليفة عن اعتقاد البعض بأن العودة للماضي قمة الصدق والنظافة .. وكيف نتمكن بعد التسليم بان التراث جزء من الماضى ان نجرى تقنية علمية لغربلة ما يصلح للأخذ به وإبعاد ما لا يصلح ؟ .

وقال : هناك اسلوبان للعودة إلى الماضى .. أسلوب يرفض الحداثة ويرفض المعطيات والمكتسبات الجديدة ويعتقد أن فى الماضى عودة إلى الجذور الصحيحة التى لا يوجد غيرها .. والأسلوب الآخر يرى بأن المنجزات التى حققها الانسان فى عصرنا الحديث هي نتاج مسيرة طويلة من المعاناة التى بذلتها الأجيال من اجل حياة افضل .. ويرى فى منجزات الماضى مكتسبات أخرى لولاها لما تحققت انجازات اليوم .. وان القديم والحديث على الرغم من بعد الشقة بينهما خط حياتي متصل .. فبدون الاستفادة من تجارب الاولين ، لايمكن ابتداع اشياء افضل ، وإن العودة الى الماضي ليست بهدف بعثه وإحيائه من جديدة .. فالماضي فى لغة الحياة هو ابن الأمس . والعودة إليه هي للحفظ والتسجيل والدراسة والتامل وتغذية مجالات العلوم بمكتشفات كثيرة مازالت هذه العلوم بحاجة إليها للتعرف على مسيرة الانسان وعطائه وطرائق عيشه .

وعندما تهتم دول الخليج بحفظ ورعاية وحماية تراثها الشعبي ، فانها انطلاقا من الدراسة الشاملة للتراث الشعبي العربي تتوجه لمعرفة الأصول والمكونات والخصائص لهذا التراث بحثاً عن منابع اصالتها وما يكمن فى موروثها الشعبي من ثراء وتعبير صادق عن معاناة أبنائها وابداعاتهم المختلفة .. وفي ذات الوقت تتوجه إلى توفير مادة علمية للدراسات الاجتماعية فى علوم وتاريخ الانسان ، بالاضافة إلى محافظتها على ماثوراتها من الضياع والعبث والخلط والتشويه .. خصوصاً وان مجتمعاتنا تعيش المتغيرات البليغة الأثر التى تحاول أن تقتلعنا من الجذور .

مهمة الباحث

وتوقفت عندئذ عند سؤال مطروح يؤكد أصحابه أن اجترار الماضى استهلاك للحضارة ، وأن الأولى بنا البحث عن صيغ حضارية جديدة تتفق والواقع المعاش . ؟

وقال : إن معالجة زماننا بطرائق حديثة لا ينفى أن نرعى ونحافظ على ما ورثناه .. إن الخطوات حثيثة للمضى بالحياة قدماً وبشكل مذهل .. ولا اعتقد أن تفرغ مجموعة من الباحثين لدراسة جانب من جوانب التراث أو التاريخ أو أى مجال من المجالات المتصلة بالماضي سيعيق تلك الاعداد الهائلة المشغولة بالبحث والابتكار لتقدم البشرية . وارى أن الابحاث فى أى مجال من المجالات مكملة لبعضها البعض . فكل مجال ينير الطريق للمجال الآخر ويدعم تطلعاتها ويسند براهينه .. ويعزز القيم السامية التى جعلت من البحث العلمي خدمة وطنية ومكسباً حضارياً لكل جيل .

وقلت له : إذن كيف نستطيع التفريق بين ما هو تراثى .. وما هو تاريخي ؟ .

قال : فى اعتقادى أن التراث مادة من مواد التاريخ .. فاذا كان التاريخ بصفة عامة يهتم بالمتغيرات الحياتية الكبرى للشعوب والأمم .. فان البحث فى مجال التراث يهتم بقاع هذه الأحداث وجزئيات مؤثراتها وطبيعة وحياة وظروف الناس الذين أوجدوا هذه المتغيرات الكبرى . فالتاريخ يوجز الحديث .. والباحث فى مجال التراث يفصل دقائقه ويشرح جوانبه .. وكل منهما يقدم خدمة جلى للآخر .. فعلى سبيل المثال ، الباحث فى مجال الآثار يهتم بمادة الأثر إن كانت حجراً أو معدناً أو ماشابه .. والباحث فى مجال التراث الشعبي يهتم بالذى شكل المادة والظروف التى أحاطت به ، وهل تشكيل هذه المادة امتداد لفن متوارث أم مكتسب أم طارىء جديد ، وما إلى ذلك من جوانب .. وكما سبق أن ذكرت أن العلوم فى بعض مجالاتها تتداخل وتكمل بعضها بعضاً .

بشرى ناصر

صبابات

شعر : حسن طلب



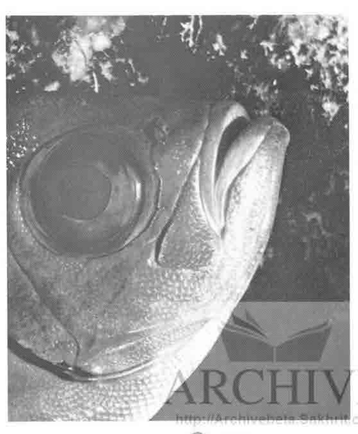
١ - ديمومة

زمنٌ يتخلقُ فى عينيكِ ،
وتاريخٌ يتراءَى
زمنٌ كالحُلمِ أضاءَ
وتجسَّدَ فى حِنطةِ عينيكِ :
عقيقاً ..
وأقانيمَ ..
وماءَ
زمنٌ فى عينيكِ تراءَى
وارتدَّ إلى عينيَّ :
رموزاً زرقاءَ ،
وأشياءَ
فكأنْ قد فى أبدٍ كانَ ..
كأنْ قد من أزلٍ جاءَ
وكأنْ شربتْ عيناكِ من النيلِ :
طقوساً
وأساطيرَ
وأسماءَ

٢ - تجريد

قواريرُ الندى شفتاكِ
.. عيناكِ الأهازيجُ
رأيتُكِ تدخلينَ
.. وكنتِ واضحةَ الجّبينِ
وتخرُجينَ ..
وصرتِ سانحةَ العيونِ
وجالَ فى عينيكِ دمعٌ
.. فهو منشوجُ
اسمِّيكِ : الوليدةَ
حين يحملُ صوتُكِ العاديُّ
عِطرَ المَوْجةِ الأولى
وأرقبُ جِلدَكِ العلنىَّ
ينضجُ تحت حبَّاتِ الندى
.. ويذوبُ فيها .. فهو ممزوجُ
لماذا لا أسمّيكِ القَصيدةَ ؟
ثم أرسمُ :
آهِ يا دُعجَ العيونِ .. وفى حواجِبهِنَّ ترجيجُ !

صنع الله إبراهيم



الحياة والموت في بحر ملون

سمكة الفراشة

ورحلة البحث عن الأمان في عالم الخطر!

اخذ ضوء النهار يتراجع تدريجياً من اعمق البحر .

ذهبت أولا الأشعة البنفسجية المبعثرة التى لا تكاد تبلغ الكائنات الساكنة تحت الف قدم . فعلى ذلك العمق ، تكون أكثر الساعات اشراقا هى درجة خفيفة بين الغروب وسواد الليل الفاحم ، وتعتمد الحيوانات على خلايا خاصة فى اجسادها تزودها بما تحتاج إليه من ضوء ، او تتخلى تماما عن حاسة الرؤية ، ملتجئة إلى حواس ارهف واقوى .

وسرعان ما تلاشى الضوء الأزرق فى المنطقة التالية ، وتبعه اللون الأخضر الذى ينتشر حتى عمق ٥٠٠ قدم ، ويعتبر أسهل الألوان رؤية لدى الأسماك .

وجاء الدور بعد ذلك على الأشعة الحمراء التى تدفىء وتضىء أعلى طبقات البحر . عندئذ قررت جماعات من سمك سليمان القوى ، و «البينيت» ذات القشور الزرقاء الداكنة ، و «السردينيلا» الفضية ، أن تهجر الشعاب ، بعد ساعات من اللعب تخللتها اعتداءات وحشية من جانب أسماك سوداء مثل السخام . وانطلقت إلى عرض البحر ، مستانفة حياتها الجوالة بين البحار والمحيطات .

بينما بدأت أسماك البحر الأحمر ذاته

هذا الوحش المفترس هو من اكثر حيوانات البحر الأحمر انطواء .. وهو من انواع الثعابين البحرية .. وكان الرومان يستانسونه فى قديم الزمان ويقيدونه بالسلاسل

الكثير من حيوانات البحر تلجا إلى التخفى لتضليل اعدائها .. ويستغل « الحزمان » شكله ليتمدد بين الفروع المرجانية او الصخرية كانه واحد منها



رحلة عكسية من الطبقات العليا للمياه إلى الشعاب المرجانية . وانتشرت بالوانها الصارخة ، ونقوشها الفاتنة ، متجهة فرادى وجماعات إلى ملاجئها ، حيث يرقد بعضها فى خمول ، ويغفو البعض الآخر ، اغفاءة خفيفة بعيون مفتوحة ، ويظل البعض الثالث يقظا ، ويحتمى الجميع من مفترسى الظلام .

شقت « المشيط » طريقها ببطء وسط الماء ، وهى تتهادى كالعروس ، وتتامل جانبى العالم الأخضر المحيط بها ، بتلك النظرة الوادعة التى اشتهرت بها فى عالم الأسماك .

لكن وداعة نظراتها كانت تخفى ، فى الحقيقة ، حذرا بالغا ، وانتباها فائقا ، لأى بادرة توحى بالخطر . وهو امر طبيعى طالما أنها لا تملك من وسائل الدفاع المتنوعة لدى الأسماك شيئا ذا بال .

فعدا خفتها وقدرتها على الزوغان والاختفاء فى أدق الشقوق ، بفضل جسدها المسطح الرفيع على شكل القرص ، وزعانفها القصيرة ، يتمثل سلاحها الدفاعى الوحيد فى الوانها .

ذلك أن الوانها الصارخة ، التى تمتد من الأصفر إلى البنفسجى ، والتى جلبت لأنواعها العديدة المنتشرة فى البحار

المدارية والاستوائية حول العالم اسم « سمكة الفراشة » ، تكاد تجعلها غير مرئية عندما تعوم بين الألوان الزاهية للمراجين والاسفنجيات ، وما يسعى خلالها من قشريات ورخويات .

بل إن الخلايا الحاملة للألوان على سطح جسدها ، تتميز بحساسية بالغة لدرجات الضوء الواقع عليها ، وبالتالى للألوان التى تعكسه . وفى نفس الوقت يستجيب الجهاز العصبى للسمكة ، عن طريق العينين ، بدرجة معينة لكل لون من هذه الألوان .

والنتيجة أن خلايا الالوان تتلقى اشارات بالانقباض او التمدد ، فيختفى احد الألوان أو ينتشر بحيث يطغى على البقية ، مما يؤدى إلى تغيير الألوان التى تغطى السمكة . فاذا انتقلت من امام شعاب عليها اللون الاحمر ، إلى اخرى يسود فيها اللون الاصفر او الأزرق ، تغيرت على الفور الوانها لتضاهى اللون الجديد .

وعندما يتلاشى النهار ، تنقبض خلايا الألوان الساطعة ، وتكتسى السمكة بدرجات قاتمة منها ، تجعلها تلتحم بالظلمة السابغة .

لكن هذه الخاصية الرائعة لم تكن مصدر أمان كاف .

فالقدرة على تغيير الألوان ليست سرا مجهولا بين سكان الشعاب . وهى خاصية تستعين بها الأسماك المفترسة ايضا ، مثل « البصيلى سمارة » المعروفة باسم سمكة الكردينال بسبب عباءتها القرمزية . فعندما يحل الليل يتحول لونها إلى رمادى فضى تتخلله اشرطة سوداء .

وبالاضافة إلى ذلك فان السمك يعتمد فى نشاطه على حواس عديدة اخرى غير حاسة الرؤية .

لهذا لا تجد « المشيط » الأمان الكامل الا داخل الشق الرفيع الذى تلجأ إليه فى نهاية النهار .

ولولا المهمة التى وضعتها نصب عينيها اليوم ، لكانت اندفعت نحوه بكل ما تملك من قدرة على الاسراع .

المسكن المناسب

وعادة لا تغير الأسماك مواقعها طالما تملك مسكنا ملائما . لكن « المشيط » لم





سمكة « المشيط » تقدم خدماتها لسمكة من أسماك « ابو دقن » المعروفة باسم سمكة المعزة

تكن راضية عن الشق الذى تقطنه .

وبداية فانها لم تختره لنفسها . وليس معنى هذا أن ثمة هيئة لتوزيع المساكن فى عالم الأسماك . لكن الذى حدث هو انها عندما نما عودها ، وتغطى جسدها بالحراشيف ، ارادت أن تستقل بنفسها عن حياة الجماعة ، فلم تجد أمامها غيره .

ففى عالم لا يحكمه غير قانون التنازع على البقاء ، تأخذ كل سمكة ما تستطيع . ومن الطبيعى انها تأخذ افضل مكان . اما الضعيف أو الأصغر ، فلا ينال سوى اسوأ الاماكن .

وكان لمسكنها عيبان رئيسيان . فهو عرضة لتيارات قوية من الماء ، كما انه لم يكن ضيقا بما فيه الكفاية .

وصبرت المشيط على هذين العيبين ، الى أن وجدت نفسها مقبلة على وضع البيض ، فادركت بغريزتها ان تيارات المياه القوية يمكن ان تجرفه معها ، وان سعة الشق تعرضه للالتهام على يد الأسماك معقوفة الفكين ، ذات الخطوم البارزة كمناقير الطيور .

وأصبح من المحتم العثور على مسكن جديد .

لكن ذلك لم يكن بالأمر السهل . فبالاضافة إلى الشروط العديدة التى يجب أن تتوافر به ، لابد وان يكون غير ماهول ، والا نشبت معركة دموية مع اصحابه .

لهذا السبب لم يكن بوسعها ان تجرى البحث بالنهار ، عندما تكون أغلب الأسماك خارج مساكنها ، ويستحيل تحديد المهجور منها . والا كان ذلك ممكنا بالليل ، عندما تخرج الأسماك المفترسة للصيد .

الوقت الوحيد المناسب لذلك هو تلك الفترة الوجيزة عند الغروب ، التى تعود الأسماك خلالها إلى مساكنها ، فيمكن الاحتماء فى جماعاتها ، كما يسهل تبين المساكن الخالية من الماهولة .

أمام الوحش الصغير

عامت المشيط على حافة فوج هائل من سمكة «الكشكوشة» ، غطى مساحة واسعة تربو على المائة متر ، وتمتد إلى عمق ثلاثة أمتار .

فهذه السمكة الصغيرة التى لا يزيد طول الفرد منها على ثلاثة سنتيمترات ، تتحرك دائما فى اعداد ضخمة لتحمى نفسها من أعدائها الكثيرين ، الذين يحجمون عن مهاجمة التجمعات الكبيرة لما يصابون به حينئذ من ارتباك ناجم عن صعوبة التركيز على واحدة من الفرائس العديدة المتشابهة .

وواقع الأمر أن اثنين من هؤلاء الأعداء ، كانا يعومان على مقربة ، يتحينان الفرصة لالتقاط بعض السمكات الشاردة دون التورط فى مهاجمة الفوج نفسه .

احدهما هو جماعة من سمك الخرمان الرفيع ، الذى يشبه العصا او الترومبيت الموسيقى حتى انه سمى باسمه . والثانى هو سمك العقام او البراكودا الذى انتشرت أفراد قليلة منه وسط جماعة الخرمان ، وقد فغرت افواهها



تعتبر ظاهرة تغيير الالوان من اعجب ظواهر حياة الكائنات البحرية واكثرها إرباكا للعلماء .. هاتان الصورتان مثلا لسمكتين مختلفتين فى حين انهما تمثلان سمكة واحدة !

كاشفة عن انيابها المرعبة .

وربما كان مشهد هذه الانياب هو الذى دفع المشيط الى ان تبتعـــد عن فوج « الكشكوشة » وتنضم الى ســـمكة « ملاص » وحيدة بعد ان تجنبت فوجا من سمك « سحل » ذى اللـــون الأزرق والخطوط الطولية الصفراء ، الذى يعرف بسمك الجراح او الدكتوربسبب شوكتين حادتين على الذنب ، تشبهان مشرط الجراح ، وتصيبان من يتعرض لهما بجراح بالغة .

مضت « المشيط » بعض الوقت خلف سمكة «الملاص » ، وقد اجتذبتها الوانها الزاهية التى يغلب عليها اللون القرمزى يتخلله اللون الأزرق على هيئة صفوف من نقاط بطول الجسد ، وخيوط كالأشعة تحيط بالعينين ، بينما ينفرد اللون الأصفر الخالص بالذيل .

وعندما كفت « الملاص » عن الهبوط ، واتجهت إلى اقرب مستوى من الشعاب ، لتدفن جزءا من جسمها فى الرمال الطرية التى تغصر ، ترددت « المشيط » لحظة وقد خطر لها أن تتبعها لتلتمس مطلبها عند هذا المستوى ، ثم عدلت عن ذلك حالما لمحت بركن عينهـــا احـــد افراد « ابو عدس » يقترب بسرعة ، وخياشيمه تنبض فى قوة ، بينما تحدق عيناه الصغيرتان فى حذر .

و « أبو عدس » واحد من اسماك الكشر ذات الرؤوس المخيفة ، يستمد اســـمه من لون ظهره الداكن الذى تنتشر فوقه نقاط بنية فاتحة تشبه حبات العدس .

استدارت «المشيط » مبتعدة بهزة صغيرة من ذيلهـــا ، بينمـــا فتـــح « ابو عدس » فمه قليلا دون ان تصدر عنه حركة ما . وفى اللحظة التالية اختفت « الملاص » .

فقد استنشق الوحش الصغير قليلا من المياه ، امتص معها السمكة ، وعندما استقرت فى فمه ابتلعها على الفور .

الضيوف الثقلاء

حومت الأســـماك المختلفة ، فرادى وافواج ، حول مداخل الشعاب ، وتحت تكويناتها المختلفة ، المتعددة الأشكال ، التى تكونت من اجيال لا حصر لهـــا من البوليبات المرجانية .

فعبر آلاف الأعوام ، عاشت الأجيـــال المتعاقبة من هذه البوليبات داخل كؤوسها الحجرية ، تتمدد أجسادها وتنكمش ، وتنقبض لوامسها المتفرعة وتنبسط ، ثم تتبرعم وتتفرع مثل النباتات والأشجار ، وتموت لتنمو البوليبات الجديدة فوق انقاضها ، مكونة فى النهاية ذلك الحائط الملون العظيم الذى يمتد على شاطىء البحر الأحمر بعرض يتراوح بين عشرات الأمتار ومئاتها .

وطوال النهار كان الحائط العظيم جامدا يكاد يخلو من اى علامة على الحياة ، اذ انكمشت البوليبات الحية داخل كؤوسها ، او اختفت داخل فروع مستعمراتها متجنبة كل ضوء . اما الآن فقد اطلت باجسادها وانتشرت لوامسها من حولها تبحث عن الطعام .

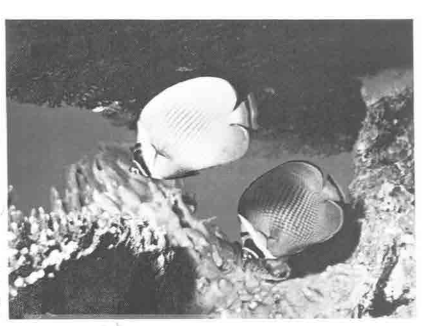
شقت « المشيط » طريقهـــا بين المستعمرات المرجانية فى حرص ، وهى تتطلع فى الشقوق والحفر بعين ، بينما العين الاخرى تتابع باهتمام ما يجرى حولها من تحركات ، لتلتقط اى بادرة من بوادر الخطر .

وبهذه العين راقب موكبا من ســـمك الجوبى الصغير ، الذى لا يزيد طـــول الفرد منه عن أصغر أصبع انسانى ، وهو يقترب من الممرات الحلزونيـــة لـــكتلة ضخمة مستديرة من المرجان المعـــروف باسم مرجان المخ ، حيث يقضى الليل تحت بوليباته الرقيقة ، فى حماية شبكة من الخلايا اللاسعة تظله مثل ترسانة من القذائف الصاروخية .

لم تكن لتجرؤ على التماس بغيتهـــا فى هذا الملجأ الامن ، الذى ينفرد به سمك الجوبى ، بحكم علاقة فريدة بينه ، وبين

ذكر وانثى من سمكة « المشيط » المعروفة باسم سمكة الفراشة بين المرجان

سمكة الفراشة



سمكة اخرى من اغرب أسماك البحر الاحمر التى تسمى « الخرمان » ويطلق عليها احيانا اسم « الصفارة » بسبب شكلها !

البوليبات المخية ، تشبه تلك التى ترسمها معاهدات الصداقة وعدم الأعداء بين البشر . فاذا اقترب منها احد غيره ، اطلقت عليه خيوطا حلزونيـــة تكبله ، وسهاما مسممة تخدره وتقتله .

واذ انزلقت « المشيط » فى الماء متجاورة المرجان المتكور وسكانه المحظوظين ، اوشكت أن تصطدم بسمكة « ابو عربية » ، التى يتغطى جسدها باشواك دقيقة تكسبه ملمسا خشنا كالمبرد ، رغم انه يبدو ناعما كالمخمل ، وتحدث فى الجسد الذى تحتك به اصابات دموية .

تمكنت من ان تثنى جســــــدها فى اللحظة المناسبة ، لكن الحركة التى قامت بها قربتها من كتلة مرجانية متحجرة ، استقرت فوقها عدة افراد من الحيوان البحرى ذى الصدفتين ، المعروف باسم بلح حر .

ويشاء سوء حظ شيط » ، ان بيض احدى الصدفات اختار هذه اللحظة بالذات ليطلق يرقاته . فمن عادة هذه اليرقات ان تتعلق بالاجسام الحية المتحركة ، لتتغذى على دمائها وافرازاتها الرغوية .

تمكنت بعض اليرقات من القفز إلى جسد « المشيط » ، لكن السمكة لم تشعر بالامر الا عندما غرزت اليرقات الدقيقة الأسنان الأشد دقة فى لحمها ، معتمدة على خيوط رفيعة تتدلى من هذه الاسنان وتغوص بسهولة فى الأجسام اللينة .

تلوت « المشيط » عدة مرات فى محاولة فاشلة للتخلص من ضيوفها الثقلاء . ثم شعرت بعد قليل بجلدها يأكلها فى مواقع متفرقة . وحاولت تجاهل الأمر ، منصرفة إلى البحث عن المسكن الموعود ، لكن الأكلان جعل يتزايد حتى أصبح لا يحتمل .

إقتربت من صخرة بارزة ، وحكت احد جانبيها بسطحها الخشن . ثم استدارت وحكت الجانب الآخر . وعندما استأنفت طريقها فوجئت بجلدها يأكلها بشدة فى اماكن جديدة . فقد شقت اليرقات العمياء طريقها بعناية إلى الزعانف ، وانكمشت بين ثناياها بعد ان غرزت أسنانها ، وشرعت تمتص دماء السمكة .

الأسماك المنظفة !

احتلت أسماك الشعاب أماكنهـــا الثابتة بجوار منتجاتها الليلية . وأوحت تجمعاتها الهادئة بانها فى أمان نسبى ، بينما كانت مهددة ـ فى الواقع ـ بخطر عظيم .

ففى تلك اللحظـــات الوجيزة التى تفصل بين النهار والليل ، تـــكون اغلب الأسماك قد تخلت عن وســـائل دفاعها النهارية ، ولم تتكيف بعـــد مع حلول الظلام .

ذلك ان عملية تغيير اللون التى سبق ذكرها ، تتم بصورة تدريجية مع غيـــاب الضوء . فسمكة « أبو طنقور » ، مثلا التى ينتشر اللون البرتقالى نهـــارا فـــوق خطمها البارز كالمنقار ، ويلون قزحتى عينيها اللتين تشع منهما خطوط زرقاء ، ويصبغ جسدها كله المزركش بنقاط زرقاء تظهر عليها عند الغروب بقع قاتمة تزداد مساحتها كلما خفت الضوء ، الى أن تغطى جسدها كله تقريبا .

وبهذا تظل الســـــمكة عاجـــزة عن مواجهة المفترسين الماهرين ، من قروش وقرنكات إلى كشر وجنخ ، الذين يسعون بين المراجين والطحالب والأسفنجيات ، ويعتمدون فى ملء بطونهم على هذه الفترة الحرجة التى لا تتجاوز ربع الساعة بمواقيت البشر ، والتى يبدأ بعدها صيد مختلف هو صيد الليل الوحشى .



لكن صيد الغروب ليس قاصراً على المفترسين الكبار وحدهم . فعلى مشارف المنتجع الليلى ، وعلى «نواصى» تتوافر فيها درجة من الأمان ، سواء من حيث ضيق أماكنها أو بعدها عن طريق المفترسين الكبار المألوف ، تجرى عملية صيد من نوع مختلف ، تقوم بها عـدة أسماك من أكلات الكائنات الدقيقـة ، أغلبها من عائلات « التربان » ، التى تضم أسماك « ابو ذقن » أو العنزة ، ومن عائلات « المشيط » ذاتها .

هذه الأسماك شاءت أن تتجنب مخاطر الحصول على اللقمة فى المياه الخارجية ، فراضت نفسها على الاكتفاء بما يعلق بأجساد الأسماك الأخرى ـ فى نهاية نهار حافل بالأحداث ـ من طحالب وبراغيث وديدان وغير ذلك من الكائنات الدقيقة .

وتسبب العوائق المختلفة ضـيقاً شديداً للأسماك ، اذ يتعذر عليهـا ، فى غالب الأحيان ، أن تتخلص منها بنفسها ولا تستطيع النوم أو الراحة قبل أن تفعل ، لذلك تلتمس العـون لـدى « المنظفات » .

وفى ظاهرة من أعجب الظواهر فى عالم البحار ، تتجمع الأسماك المنظفة بأماكن محددة ، حيث تقف معتمدة على ذيولها فى صفوف متباعدة ـ كما يفعل الحلاقون فى أسواق القرى البشرية ـ فتتقدم منها الزبائن معلنة ـ مطالبها بإيماءات وأوضاع معينة . عندئذ تهرع إليها المنظفات لتلتقط من فوق أجسادها ، أو من أفواهها وخياشيمها ، الكائنات الدقيقة التى تضايقها ، وتبتلعها فى استمتاع .

والى احد هـذه المواقع ، اتجهت « المشيط » ، بعد أن حكت جسدها بكل ما قابلها من صخور وطحالب واسفنج ، دون أن تنجح فى التخلص من اليرقات التى دفنت نفسها فى أماكن لا يمكن أن تبلغها سوى الأفواه المدربة للمنظفات .

فى انتظار الزبائن

كان الموقع الذى قصدته « المشيط » ، عبارة عن ممر ضيق بين صـخرتين ضخمتين ، برزت احداهما فى الماء برأس متكورة ، غطتها المراجين الميتة ، بينما اختفت الثانية تحت غابة صغيرة من مراوح البحر الـوردية ، التى تلتصق بها نجوم ريشية فى لون النحاس وطحالب متحجرة ، واسـفنجيات بنفسجية وخضراء وصـفراء ، ودودة ريشية ، ومراجين زرقاء .

وداخل الممر ، بالقرب من احد طرفيه ، وقفت ثلاث من السمكات المنظفة فوق ذيولها ، تنتظر زبائنها فى صبر . وانتشرت أفراد من سمك « الناخر » ، بين المراجين والطحالب ، تبحث عن الرخويات والقشريات المدفونة فى الرمال وقد أوشكت شرائطها الصفراء اللامعة أن تختفى أسفل بقع داكنة .

ولم تكن « الناخر » فى حاجة ماسـة الى هذا الغطاء التنكرى ، بحكم الامان النسبى المتوفر فى أماكن التنظيف ، رغم أنها كانت فى متناول الفك المفترس لأحد وحوش البحار ، هو الثعبان الكبير ، الذى اتخذ لنفسه جحرا بين المراجين المتحجرة .

وحقيقة الأمر أن الوحش البحرى ، الذى يتجاوز طوله مترين ، هو من أكثر سكان الشعاب المرجانية خجلا وانطواء بالاضافة إلى ضعف ابصاره ، الأمر الذى أتاح للرومان الاقدمين أن يستأنسونه كما تستأنس الـكلاب .

وهو يقضى أغلب الوقت داخل جحره وعندما يهبط الظلام ، ويشتد به الجوع ، يغالب تردده ويبرز رأسه من العرين .



فاذا ما لاحت له احدى الفرائس ، سرت فى جسده موجة من التموجات السريعة تمكنه من مهاجمتها دون ان يضطر الى اخراج جسده كله من العرين ، وخاصة نيله الذى يستعين به كرافعة فى جذب الفرائس الكبيرة بعد ان يطعنها باسنانه الحادة .

وربما كان المصدر الوحيد للخطر فى هذا الجو الامن ، يتمثل فى واحـــدة من أعجب أسماك البحار ، هى سمكة الرعاد دفنت جسدها المسطح فى القاعدة الرملية للصخرة المقابلة ، التى تظللها المراوح البحرية .

وتنفرد الرعاد ـ التى يبلغ طولها مترا بوسيلة دفاع فذة وفعالة للغاية ، عبارة عن جهاز كهربى تبلغ شحنته عشرين فولت . اما توليد الشحنة الكهربية فتقوم به ، عند أى تماس ، زائدتان على شكل كليتين فوق سطح راسها . ورغم ان الطاقة المولدة لا تؤدى الى قتل الانسان ، فانها تكفى لقتل الأسماك الصغيرة والقواقع والصدفيات التى تتغذى عليها السمكة الكهربائية .

لكن الرعاد كانت راقدة فى خمـــول ، تنتظر فى صبر ان تزداد حلكة الظلام قبل ان تنطلق للصيد ، الامر الذى شجع سرطانا صغيرا على الخروج من اعماق جحر قريب ، يقطنه مع انثاه ، وسرعان ما انهمك فى تمهيد الطريق أمام جحره ، مزيحا الرمال بكلابتيه ، مطمئنا إلى الحماية التى تقدمها له سمكة صغيرة من جوبى « القوبيون » تشاركه الحياة فى البحر .

وليس معنى ذلك أن السمكة الصغيرة ، ذات الزعانف الشائكة ، تستطيع الدفاع عنه ، كل ما هنالك انها تحتل مكانا ثابتا فى الماء قرب الحجر ، فاذا ما شعرت باقل خطر اندفعت داخله وتكون فى ذلك اشارة كافية للسرطان ، ضعيف الإبصار ، المنهمك فى العمل ، كى يختفى عن الانظار .

ووانت سرطانا مجاورا فكرة جريئة ، فجمع بكلابتيه حفنة من الطحالب نثرها فوق ظهره بحيث أخفته ، وتسلل فى حذر إلى المياه الخارجية بحثا عما يؤكل .

أما سمكة « البلينى » المفترســــة ، ضئيلة الحجم ، فكانت اكثر دهاء ومكرا ،

فقد تظاهرت بانها من اسماك التنظيف مستغلة مشابهتها فى الحجم واللون لاحداها ، فاتخذت وضعا راسيا بالقرب منها ، مستندة الى ذيلها مثل الأخريات ، مقلدة بقية حركاتها ، حتى تنتهز اللحظات التى تستسلم فيها الزبائن لعملية التنظيف فى اشباع شهيتها للافتراس .

وليس من الصعب تصور مجموعـــة العوامل التى اوصلت « البلينى » الى هذا السلوك الشائن ، سواء ما يتصل منها بالتجارب الأولى فى الحيـــاة ، وما يرتبط بتكوينها الجسدى . ولاشك ان الاساس فى هذا الشان يعـــود الى ما تتميز به من اسنان ماضية ، وطبيعة مفترسة ، وجسم نحيف رخص ، يخلو من الزعانف الشائكة والعضلات القـــوية ، اللازمة للدفاع والهجوم ، مما حرمها من القدرة على القتال ، واتاح لها فى الوقت نفسه مرونة بالغة ، مكنتها من تقليد الاسماك الأخرى .

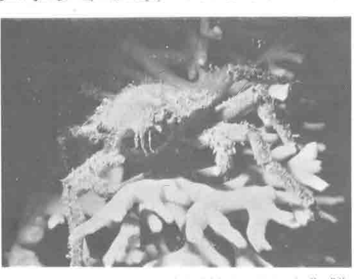
على ان الالوان التى تحملها ، كانت هى العامل الحاسم فى الأمر . فهى من ناحية الوان ثابتة لا تقبل التغير بحيث لا يمكن الاعتماد عليها فى التنكر من اجل اشباع الطبيعة المفترسة للسمكة . وهى من ناحية أخرى ، تماثل ـ بالصدفة البحتة ـ الألوان الزرقاء ذات الاشرطة الداكنة لاحدى المنظفات المعروفات ، وهى سمكة من نوع الراص .

الفخ المميت

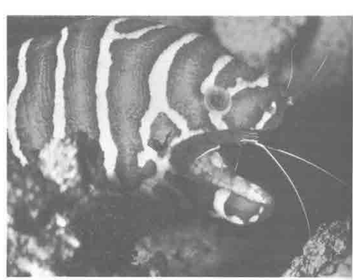
كان أول من تقدم من السمكة المتنكرة سعيا وراء خدماتها ، كشر احمر ضخم ، تخلى عن ميوله العدوانية ، وقرب جانبه الذى امتلأ بالطفيليات والعوالق ، الى فمها .

لكن « البلينى » الداهية تجاهلتـــه وابتدت عنه فى حذر ، فلم تكن من السذاجة بحيث تضيع وقتها فى تنظيف جسد ضخم ، يصعب أيضا افتراسه بسبب ما يتمتع به من قوة .

واذ ادرك الكشر انها لاتنوى تنظيفه ، هز ذيله ، واستانف طريقه متقدما من المنظفات الأخريات ، وان كان خلاصه الحقيقى لن يتحقق الا على يد نوع من الروبيان (شبيه الجمبرى) يمتهن التنظيف . فهو الوحيد الذى يتمكن من ارتقاء جسده والتجول فوقه بحرية ، بحيث تصل كلاباته الى اكثر الاماكن



هذا السرطان وضع على ظهره بعض الطحالب فبدا جزءا من المستعمرة المرجانية التى استقر فوقها .



لاتخشى حيوانات التنظيف شيئا من زبائنها .. وفى هذه الصورة الفريدة تسلل « الجمبرى » للتنظف الى حلق ثعبان بحرى وعكف على التقاط الفضلات الغائرة بين اسنانه !

انزواء بين قشور الكشر الغزيرة وزعانفه الكبيرة .

احدث مرور الكشر ذبذبات خفيفة فى الماء ، التقطتها حواس الثعبان ، فثارت شهيته ، وساعده هذا على ان يتغلب على خجله وتردده ، فيبرز راسه من جحره فى حذر ، ليتبين ما يجرى فى الخارج .

ولمحته « البلينى » على الفور فقررت الا تغفل عن مراقبته .

ولم تلبث « المشيط » ان اقبلت تتهادى فى رقة وخيلاء كعادتها ، دون ان يخطر ببالها انها تخطو إلى فخ مميت .

ابتلعت « البلينى » الماء فى انفعال وهى تتامل « المشيط » بعين غادرة . فالسمكة الرقيقة ، ذات الألوان الساطعة من الفرائس الجذابة ، اذ يخلو جسدها من الأشواك ، ولا تملك من وسائل الدفاع غير خفة الحركة ، وسرعة الزوغان .

فاذا استلمت لعملية التنظيف عجزت عن الالتجاء الى هذه الوسائل فى الوقت المناسب .

وكانت حركة « المشيط » توحى بانها تعانى من الحشرات وتبغى المساعدة .

وليس على « البلينى » سوى ان تتقدم منها قليلا ، وتتظاهر بانها ستتولى تنظيف خياشيمها ، ثم تقضم لنفسها قطعة كبيرة من لحمها ، وينتهى كل شىء فى لمح البصر .

تملك الأسماك ، رغم محدودية ادراكها مقدرة خاصة فى امخاخها الضئيلة ، شبيه بالساعة الزمنية ، تقوم بتسجيل معالم الاماكن والأوقات والظواهر المرتبطة بها .

وتعمل هذه « الساعة » بصورة آلية اذا ما طرا تغيير ما على الاماكن المعهودة أو على سلوك سكانها ، كان يظهر احدهم فجاة فى مكان وموعد غير مالوف .

وبفضلها ادركت « المشيط » لأول وهلة أن شيئا غير طبيعى قد طرا على موقع التنظيف ، ثم تبينت السر فى الأمر عندما وقعت عينها على « البلينى » . فلم يكن هذا الموقع من الأماكن المطروقة من جانب المنظفة التى تنكرت « البلينى » على صورتها . وكان فى هيئتها وحركاتها ـ بالاضافة إلى ذلك ـ ما يوحى بغربتها عن المكان ، وربما ايضا عن المهنة .

وليس ثمة قانون فى البحر يمنع أى سمكة من الوقوف فى اى مكان تحب ، طالما لم يعترض قاطنوه الأصليون ، كما ان مهنة التنظيف مفتوحة لمن يشاء ان يمارسها من الأسماك المختلفة . لهذا واصلت « المشيط » الاقتراب من السمكة الرفيعة دون تردد . لكن مخها بدا يرسل اشارات التنبيه لبقية فروع الجهاز العصبى .

اصبحـت اخيـرا بجـوار السـمكة الأخرى ، وهنا التقت عيناهما .

كان ثمة نظرة قاسية باردة تطل من العين الصغيرة للسمكة الغريبة ، التى كانت تبلع المياه بجرعات كبيرة ، فى تنفس متلاحق يشى بانفعالها الشديد .

وتقدمت « البـلينى » من اعنــق « المشيط » وهى تفتح فمها على سعته .

وسجل مخ « المشيط » الانفعال غير المالوف الذى تبديه المنظفة المدعيــة ، والذى لا يتنافى مع البرود التقليدى لأبناء المهنة .

وأدركت فجاة انها فى خطر .

وقبل ان ينطبق فم « البلينى » على رقبتها ، كانت قد استدارت حول نفسها فى سرعة البرق ، بمساعدة زعانفها القصيرة ، واصبحت بعيدة عن متناول الفم المفترس .

وفى هذه اللحظة الحاسمة ، وقعت امور كثيرة .

عامت « الرعاد » صاعدة بعد ان تغلبت على خمولها وخلصت جسدها من الرمال .

وولت اسماك « الناخر » الفرار .

وتوجست جوبى القوبيـــون شرا ، فاسرعت تلج جحر السرطان . وشعر بها الأخير بينما كان يتقدم من الممر الذى مهده ، حاملا صدفة صغيرة فى كلابته كى يزين بها مدخله . فتخلى عن حمله واندفع خلف القوبيون .

واجتذبت هذه التحركات المفاجئــة اهتمام الثعبان ، فكبح جماح خوفه ، واطل من عرينه براسه ، وجزء من عنقه .

● ● ●

وفى الجزء من الثانية الذى التوت فيه « المشيط » مبتعدة عن فم « البلينى » وجدت الأخيرة نفسها فوق رأس «الرعاد» مباشرة .

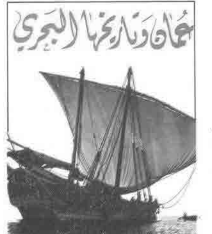
ولـم يلبـث ذيلهـــا ان اصطدم بالقضيبين الكهربيين اللذين يعلوانه .

وفى اللحظة التالية ، كانت «البلينى» تطير فى الماء بتاثير الصدمة الكهربية ، ليتلقفها فم الثعبان الملهوف .

اما « المشيط » فقد اسرعت بالابتعاد ، وخياشيمها تخفق فى انفعال ، وقد كفت مؤقتا عن التفكير فى الضيق الناشىء عن كل من اليرقات العالقة بزعانفهـــــا ، والمساوىء المتعددة لمسكنها .

صنع الله ابراهيم





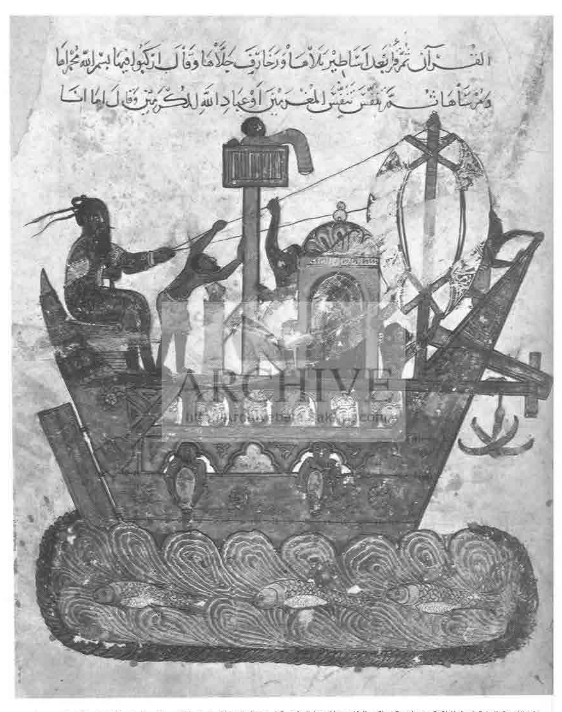


الكتاب يتحدث عن دور عمان البحرى منذ بزوغ فجر الحضارة الانسانية فى العالم القديم ، عندما كان العمانيون يرتادون البحار والمحيطات كتجار ومغامرين ورحالة بصورة فيها الكثير من الاقدام والجرأة والشجاعة ..

ويروى الكتاب قصة الروح الوثابة لبحارة الماضى البعيد والمهارات التى اظهروها فى بناء السفن ، وجعلتهم يمدون ايديهم لشعوب العالم بكل ما اكتسبوه من علم وحضارة وتقدم ..

ويؤكد الكتاب الحقيقة القائلة بان الخليج كان مهداً للملاحة البحرية حيث رأى أولى محاولات الانسان لارتياد البحر ، وكيف كانت عمان ملتقى طرق بحرية هامة تربط الخليج بالهند والبحر الأحمر وافريقيا الشرقية ..

مركب عمانى تم بناؤه منذ حوالى خمسين عاما .. حمولته مائة طن وطاقمه من ١٩ بحاراً .. وهذه اللقطة النادرة أثناء رسوه، فى ميناء « ممباسا » بشرق افريقيا



هذه اللوحة الهامة تعطينا فكرة عن طبيعة مراكب الخليج والمحيط الهندى قبل وصول البرتغاليين للمنطقة .. اللوحة من مخطوطة مقامات الحريرى ليحيى بن محمود الواسطى الذى كتبها وضمنها الصور فى القرن الثالث عشر الميلادى .



البحارة العمانيون

إن جذور التجارة البحرية فى الخليج متأصلة منذ قديم الزمن .. فقد دلت اللوحات السومرية والأكادية فى بلاد ما بين النهرين .. منذ أربع آلاف سنة .. على وجود تجارة نشطة مع مناطق تسمى دلمون ومجان وملخة .. ودلمون هي البحرين اليوم ، وكانت مراكبها تنقل الأخشاب لملك « لاجاش » فى سومر عام ٢٥٢٠ قبل الميلاد .. ومجان كانت فى شمال عمان ، وتميزت بحضارة عظيمة ولطالما عبرت سفنها من منفذ بحرى فى مناطق أم النار فى دولة الامارات العربية المتحدة .. وملخة هى بلاد الحضارة فى وادى السند ..

وفى ذلك الزمن القديم كان البحارة العمانيون يقومون بدور حيوى لاستكشاف الطريق البحرى القديم وابقائه مفتوحا أمام الملاحة .. وهناك نص من مدينة « لاجاش » السومرية عمره أكثر من أربع آلاف سنة يؤكد أن أهل مجان ــ أى عمان ــ كانوا يبنون السفن التجارية !

وفى مقدمة السلع التى كانت تنقلها المراكب فى ذلك الوقت ، النحاس ، الذى كانت تنتجه مجان بالطريقة القديمة لصهر النحاس فى بوتقة فخارية .. وهذا غير المعادن الأخرى التى كانت تحملها المراكب ، إضافة إلى الديوريت والعقيق والبصل والتوابل والأخشاب التى من أهمها خشب الساج الذى كان يستورد من الهند ويستخدم فى بناء السفن ..

وكان التعامل مع هذه السـلع يتم بالمقايضة بسلع ومحاصيل من مناطق الأنهار الخصبة كالمنسوجات القطنية والحبوب والأصباغ والجلود والمواشى والزيوت والمواد الدهنية .

وكان تجار الخليج يستخدمون الأختام لتحديد ملكية السلعة وكان أول من ابتدع طريقة لتدوين المعاملات التجارية بالكتابة هم سكان العراق القدماء !

إلا أن هذا المجد البحرى الذى رآته عمان ، سرعان ما تدهور فى الفترة الألفية الثانية قبل الميلاد ، بسبب ما حدث من اضطرابات فى سائر انحاء آسيا الغربية فقد انعزلت عمان فى تلك الفترة انعزالا تاماً ، وأصبحت منطقة وادى السند بكوارث ، وجاء عصر مظلم عندما اجتاحها الآريون ونشروا دمارهم حتى وصل إلى الهند ، وظلت هذه العزلة قائمة ولم ينقشع هذا الظلام إلا عقب انفتاح الصلات البحرية الدولية فى الفترة الألفية الأولى قبل الميلاد ، وما تبع ذلك من نشاط اقتصادى بين سكان جنوب الجزيرة واليونان والرومان ..

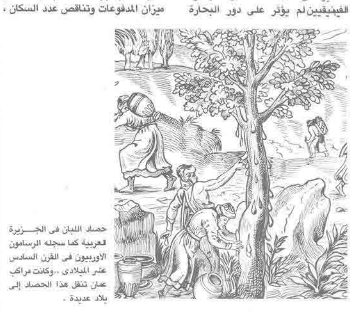
الشهرة البحرية

وفى الفترة التى سبقت فتوحات الاسكندر الأكبر كان النشاط البحرى فى عمان قد دخل إلى دائرة الظل ، وأصبحنا لا نعرف عنه غير النزر اليسير من المعلومات .. إلا أن هذه الفتوحات رغم قصرها (٣٣٤ ــ ٣٢٣ قبل الميلاد) احدثت تغيرات عميقة فى المنطقة ، وأصبحنا نرى الدول الكبرى ساعية لاستجلاب بحارة وبناة سفن فينيقيين لرحلات البحر الأحمر والخليج .

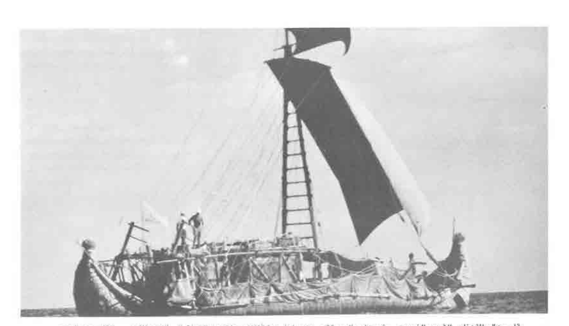
غير أن الاعتماد على البحارة الفينيقيين لم يؤثر على دور البحارة العمانيين الذين ظلت مكانتهم تتعاظم فى التجارة البحرية فى المحيط الهندى ، ناشرين الرخاء فى منطقة جنوب جزيرة العرب وخاصة سبأ ومعين ..

وعندما جاء خلفاء الاسكندر وجدوا خبرة ملاحى جزيرة العرب فى علوم البحار متقدمة ومتطورة .. فقد اتضح لهم مثلا أن الطرق البحرية حول جزيرة العرب كانت معروفة ومستخدمة قبل فتوحات الاسكندر ..

وقد اتضح من نقوش الحفريات التى اكتشفت فى « خور روري » فى جنوب عمان أن هذه المنطقة كانت تتمتع بنفوذ فى الجنوب العربى ، وكانت مركزاً لصناعة اللبان أو المسك كما كان يسميه اليونانيون ، وأن مؤسس هذه المدينة احد ملوك مملكة حضرموت فى جنوب شبه الجزيرة العربية الذى أراد أن يمد نفوذه إلى منطقة اللبان فى عمان الجنوبية ، فتم له ذلك ، وأقيم فيها ميناء لتصديره اسمه « سمهر » أصبح بمرور الوقت من أهم الموانئ التجارية ، تجتازه السفن المسافرة إلى الهند ، لتعود شهرة عمان البحرية من جديد بعد عام مائة قبل الميلاد ، ولتدخل عمان فى عصر جديد من النشاط البحرى والتجارى ، ظل قائما حتى عام ٢٠٠ ميلادية عندما بدأ التدهور التجارى فى البحر الأبيض المتوسط بسبب التضخم وانخفاض ميزان المدفوعات وتناقص عدد السكان ،



حصاد اللبان فى الجـــزيرة العربية كما سجله الرسامون الأوربيون فى القرن السادس عشر الميلادى ..وكانت مراكب عمان تنقل هذا الحصاد إلى بلاد عديدة .



قارب عالم الأجناس الشهير النرويجي « ثور هايردال » بالقرب من ساحل عمان أثناء رحلته من العراق إلى البحر الأحمر .. القارب من البوص .. وأبحر به ليؤكد قدرة مراكب البوص على قطع مسافات طويلة أثناء رحلاتها فى سنوات ما قبل الميلاد

وأدى ذلك إلى انكماش التجارة وانحسارها فى المحيط الهندى بعد أن أغلقت أسواق الرومان فى وجهها الأبواب ! .

وعندما جاءت دولة الساسانيين فى فارس عام ٢٢٥ ميلادية ، بدأت تشجع النقل البحرى فى الخليج ، وألقت الأضواء مرة أخرى على شمال عمان ، خاصة بعد المحاولات التى كانت تبذل لتحويل تجارة المحيط الهندى من البحر الأحمر إلى الخليج واتخاذ مدينة صحار مركزا للنشاط البحرى العمانى ، وقد استعان أردشير الأول مؤسس الدولة الساسانية ببعض العمانيين للعمل كبحارة ..

وتدخل المنطقة عقب ذلك فى صراع بين الساسانيين من جهة ودولة أكسوم القوية فى الحبشة والمسيطرة على جانبى البحر الأحمر من جهة أخرى ، كان من أثره غزو أكسوم لليمن وتدخل الساسانيين فى جزيرة العرب ..

إلا أن هذا الصراع سرعان ما انحسر مع ظهور الدعوة الاسلامية عام ٦٦٢ ميلادية وما تلاها من فتوحات عربية أدت إلى إدراك دولة الخلافة لأهمية الخليج كمركز تجارى وملاحى ..

رحلات الصين

وفى ظل الدولة الاسلامية لم يعد التنافس على المصالح التجارية قائما بين الخليج والبحر الأحمر ، وتم التنسيق بينهما من خلال التعاون القائم بين مختلف أجزاء الدولة الاسلامية ، وطوال حكم الخلفاء العباسيين فى بغداد أصبح للخليج علاقة مباشرة بقلب الدولة الاسلامية ، وعادت عمان ـ وخاصة صحار ـ مرة أخرى إلى الأضواء

ومن الوقائع التى ترويها كتب التاريخ العمانية نكتشف خبرة العمانيين بالبحر وعلمهم الواسع فى كافة مجالاته .. من أهم هذه الكتب « كشف الغمة » الذى يروى كيف أن هارون الرشيد فى أواخر أيامه أمر بحملة إلى عمان ، ولكنها هزمت هزيمة نكراء ، وعندما أراد قائدها أن ينجو بسفنه طاردته السفن العمانية وأسرته وأودعته فى سجن صحار .. وفى نفس الكتاب يتضح أنه بعد تلك الحملة بسنوات جاءت مجموعات من القراصنة من ساحل الهند الغربى على متن سفن كبيرة كانت تسمى «بوارج» وبدأوا يعيثون فسادا فى السواحل العمانية وينهبون تجارتها ، فأعد لهم الامام غسان ابن عبد الله مراكب للرد على غاراتهم وابعاد خطرهم عن المنطقة !

وهناك وثائق صينية نادرة تؤكد أن العرب حلوا محل الفرس فى مزاولة التجارة البحرية مع الصين وذلك فى أوائل القرن الثانى للهجرة ، وكان أول عربى يقوم برحلة إليها هو التاجر العمانى أبو عبيدة عبد الله بن القاسم الذى ملأ مركبه فى عام ٧٥٠ ميلادية بالصبار والأخشاب من سواحل الصين !

وكان العرب يشترون ـ أيضا ـ من الصين الحرير والكافور والمسك والتوابل ومصنوعات الخزف الصينى قبل عودتهم مع بداية الرياح الموسمية الشمالية الشرقية التى تهب على البلاد ما بين أكتوبر وديسمبر من كل عام .

ولكن هذه العلاقة التجارية الوطيدة بين الخليج والصين تعرضت فى القرن التاسع الميلادى لنهاية مؤسفة ، حينما هجم المتمردون الصينيون على مدينة «كانتون» باعتبارها عصب التجارة الصينية ، ونهبوا كل شىء ، واعتدوا على الجاليات الأجنبية ، وعندئذ توقفت الرحلات المباشرة ، وإن كانت التجارة بين الصين والخليج استمرت ولكن من خلال مناطق أخرى !

وكانت الهند ـ بالطبع ـ أقرب الى التجار العرب من الصين ، فنشطت



لقطة من مدينة صور العمانية التى تبذل الجهود الآن لتشجيع السفن التجارية على ارتيادها

أحمد بن نعمان الكعبى .. رسمه أشهر فنان فى نيويورك إدوارد مونى (١٨٤٠) وعلى الحائط خلفه صورة سفينته الشهيرة : سلطانة !





الرحلات اليها ، حيث كانت تزود عمان بالانتاج الضرورى كالمواد الغذائية ، ومنها أخذ العمانيون زراعة الليمون الذى أصبح من أهم محاصيل البلاد ، كما أخذوا صناعة الأدوات الخشبية والمعدنية الدقيقة الصنع بكل ما فيها من مؤثرات حرفية وفنية !

وقد ذكر «المسعودى» كيف أن أصحاب المراكب التى كانت تبحر الى افريقيا الشرقية فى القرن العاشر الميلادى كانوا من العرب العمانيين ، وكان أقصى ميناء يصلون اليه هو ميناء «سفالة» فى موزمبيق الذى كان مقرا لتجارة الذهب !

وكانت أغلب مدن الخليج فى تلك الفترة تعيش على التجارة البحرية .. وكانت صحار من أهم الموانىء العمانية التجارية التى بلغت أوج شهرتها عندما نالت عمان استقلالها عن السلطة العباسية ..

وفى القرن العاشر الميلادى كانت المفاجأة عندما هاجمت عمان بأساطيلها ميناء البصرة .. ولعل ذلك هو الذى دفع العراق فى عام ٩٦٥ ميلادية الى توجيه حملة تأديبية الى صحار دمرت ٧٩ مركبا ، لتصبح عمان عقب ذلك خاضعة - مرة أخرى - للولاة الذين تعينهم السلطة المركزية !

إلا أن هذا لم يمنع صحار من إعادة بناء سفنها لتمخر عباب البحر ، ولتعيد الصفحات التى ذكرها عنها الرحالة الاصطخرى من قبل عندما قال : «وهى على البحر .. وبها متاجر البحر وقصد المراكب ، وهى أعمر مدينة بعمان وأكثر مالا ، ولا تكاد تعرف بجميع بلاد الاسلام مدينة أكثر عمارا ومالا من صحار» !

الزلزال والسندباد

ويأتى بعد «صحار» فى الأهمية البحرية منطقة «ظفار» التى ساعد موقعها على الاستفادة من الطريق التجارى للبحر الأحمر ، فكانت ترسو بها السفن العائدة من المحيط الهندى أثناء طريقها الى باب المندب فى البحر الأحمر .. وقد وصفها الرحالة الشهير ماركو بولو عندما قال ، ان ميناءها جيد جدا ، وأن بينها وبين الهند حركة نقل بالمراكب عظيمة ، وبها أعداد كبيرة من الخيول العربية التى تحقق فى الهند

أكثر المراكب العمانية شهرة هو ما يطلق عليه « البدن » وهو من المراكب التى سبقت النماذج البرتغالية .. ومازال يستخدم حتى يومنا هذا على المستوى المحلي



الملاح البرتغالى الشهير «فاسكودى جاما» الذى قاده الملاح العمانى الشهير احمد بن ماجد إلى أول رحلة عبر المحيط بين أوربا والهند



ارباحاً طائلة ، وتنتج ارضها اللبان الأبيض بكثرة ، واحيانا يسيل اللبان من الأشجار بسبب شدة حرارة الشمس !

أما «هرمز» القديمة فقد قامت على الساحل عند مدخل الخليج ، وكانت تسيطر عليها قوة عربية من عمان ، وكانت لها تجارة رائجة مع الهند ، واهتم حكامها بساحل عمان وخاصة «قلهات» التى كان ملك هرمز يلجأ اليها كلما وجد نفسه فى حرب مع ملك أقوى منه ، نظراً لمناعتها وموقعها الاستراتيجى النادر !

وبعد غارات التتار اضطر أهل هرمز القديمة للهجرة الى جزيرة «قشم» وجزيرة «جيرون» ثم زحفوا على قلهات وظفار .. وبدأت هرمز الجديدة ـ عقب ذلك ـ تحتل مكانتها التجارية ، وزار ابن بطوطة ميناءها الأول «قلهات» فى القرن الرابع عشر الميلادى وقال عنه : مدينة على الساحل ، حسنة الأسواق ، لها مسجد من أحسن المساجد ، حيطانه بالقاشانى وهو مرتبع يطل على البحر ، وهم أهل تجارة ومعيشتهم مما يأتى اليهم به البحر الهندى ، وإذا وصل اليهم مركب فرحوا به أشد الفرح» !

غير أن «قلهات» تدهورت فى القرن السادس عشر ، وتقول الروايات ان زلزالا وقع بها فدمر منازلها !

وقد وصف كثير من الرحالة دور ربابنة السفن فى هذه المنطقة وغيرها ، حيث كانوا يرتادون البحار ويقطعون أطول الطرق البحرية فى القرون الوسطى ، ويؤلفون القصص والحكايات التى انحدرت منها قصص السندباد التى ذاع صيتها !

اختفاء السفن الشراعية !

ومع وصول البرتغاليين الى الخليج فقد العمانيون مع غيرهم السيطرة على تجارة الشرق ، وأدى اكتشاف طريق جديد الى الشرق عبر راس الرجاء الصالح إلى ان فقدت التجارة فى البحر الأحمر والخليج أهميتها ..

وقد بدأت الكوارث فى عمان عندما وصل «الفونسو البوكيرك» بسفنه البرتغالية الى المنطقة ، وأحرق فى عام ١٥٠٧ ميلادية أسطولا من مراكب صيد السمك .. وزحف عقب ذلك الى قلهات ونهب المدن وأحرقها ، وعندما فشل فى





هذه اللقطة فى مدينة «مسقط» تبدو فيها الواجهة البحرية التى كانت متواجدة قبل تنفيذ برامج التنمية فى السنوات الأخيرة .. هذه اللقطة عمرها ٢٢ عاما .. تبدو فيها نماذج لبعض القوارب

اجراء مفاوضات مع «مسقط» اطلق على مبانيها ومراكبها النيران ، وأبحر الى صحار ثم خورفكان التى نهبتها قواته !

وعندما وصل البرتغاليون الى هرمز وجدوا فى انتظارهم العديد من المقاتلين ودخلوا معهم فى معركة اعتمدوا فيها على مراكبهم الستة التى حققت لهم الانتصار والسيطرة على تجارة الخليج بعد سقوط هذا المعقل البحرى الهام !

إلا ان الاحداث توالت عقب ذلك مع ظهور منافسة حامية بين الاتراك العثمانيين والبرتغاليين من أجل السيطرة على الخليج ... واستطاع العمانيون فى نهاية الأمر انهاء السيطرة البرتغالية بانفسهم ، وكان قائدهم هو الامام ناصر بن مرشد بن سلطان اليعربى الذى طرد البرتغاليين نهائيا من البلاد فى عام ١٥٦٠ ميلادية، ومع رحيلهم لم يبق من اثارهم غير بعض المبانى والمخلفات والأساليب الجديدة التى دخلت على صناعة السفن فى المنطقة ومن بينها استخدام المسامير الحديدية وتصميم مؤخرة المركب بشكل عريض !

وخلال حكم «اليعاربة» نجح العمانيون فى استخدام الاساليب الجديدة فى صناعة السفن واتقنوها وادخلوا تغييرات جوهرية جديدة عليها أدت الى اكتشاف أساليب جديدة فى الملاحة ..

واستطاع العمانيون عقب ذلك أن يبنوا أسطولا فرضوا به هيبتهم على الساحل كله وأن ينهوا نفوذ البرتغال فى سواحل افريقيا الشرقية بما فيها مدينة «ممباسا» على ساحل كينيا !

ووصلت السيطرة العمانية على بعض الموانى الى حد اقامة حاميات دفاعية بها ، وكان وصول السيد سعيد — المع الحكام العرب فى القرن التاسع عشر — الى زنجبار على سفينة مزودة بـ ٦٤ مدفعا تحرسه ثلاث فرقاطات وسفينتين ومائة مركب نقل وستة الاف مقاتل ، هى بداية مرحلة جديدة فى تاريخ عمان ، فقد أصبحت زنجبار بوصوله عاصمة للاقاليم العمانية !

وظل النفوذ البحرى لعمان يتعاظم حتى عام ١٨٥٠ ميلادية عندما أصبحت أقل قدرة على الدخول فى منافسة مع تجارة النقل البعيدة المدى ، وأخذ هذا التدهور يزداد مع ظهور الأساطيل البحرية الحديثة واختفاء دور السفن الشراعية من عالم التجارة البحرية !

المراكب العمانية

ويتطرق كتاب «عمان وتاريخها البحرى» عقب كل ذلك الفيض من المعلومات ، الى الحديث عن طرق الرياح الموسمية فى المحيط الهندى ، وعن الملاحة العمانية ونظرياتها واكتشافاتها البحرية بما فيها استخدام الملاحين العرب للابرة المغناطيسية ورسم الخرائط التى كانت مثار اعجاب المكتشفين البرتغاليين الأوائل .. ويتحدث — أيضا — عن الملاح الشهير احمد بن ماجد الذى اقترن اسمه بتاريخ الملاحة وعلوم البحار وكيف قاد الملاح البرتغالى «فاسكو دى غاما» الى أول رحلة تتم عبر المحيط بين أوربا والهند..

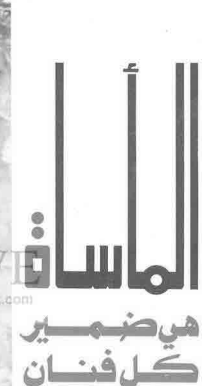
ثم يصف الكتاب فى دراسة مطولة المراكب العمانية قبل البرتغاليين وبعدهم ويقدم لنا كافة انواعها بما فيها القنجة والبغلة والبوم والسنبوق والشوعى والجالبوت وأبو بوز والبدن والعويسية والبتيل والبقارة والشاحوف والهورى والشاشة والرمث وغيرها ..

ويتناول الكتاب عملية بناء السفن وتجارة المراكب العمانية المعاصرة ورحلات أشهر السفن العمانية كالسفينة سلطانة التى زارت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٨٤٠ ميلادية ..

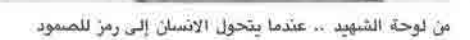
وهو يقدم كل مادته من خلال سرد تاريخى وعلمى ، يجعلنا ندرك مدى الجهد الذى بذل من أجله .. فقد اشترك فى اعداده — الى جوار وزارة الاعلام والثقافة العمانية — عدد من كبار رجال الثقافة والتاريخ فى المؤسسات البريطانية والأمريكية والأردنية والكينية .. وكان الهدف الواضح من الكتاب هو إلقاء الضوء على حضار عمان وتاريخها البحرى الذى اثر فى العالم كلـه ! .

كمال سعد

لوحات فنان تبحث عن الحياة والحرية



المأساة هي ضمير كل فنان فلسطيني


من لوحة الشهيد .. عندما يتحول الانسان إلى رمز للصمود


الفنان ياسر ابو سيدو



الفنان الفلسطيني ياسر ابو سيدو الذى اقام معرضه الثالث فى فندق رامادا بمدينة الدوحة يطالب بتسجيل التراث الشعبى الفلسطينى من العبث الصهيونى الذى يستهدف تطويعه لصالحه واغتصاب كل الجذور الأصيلة لهذا الفن الذى ارتبط بتاريخ الشعب الفلسطينى منذ الاف السنين .

وهو كرسام تشكيلى يرى أن الفنان الفلسطينى مطالب فى هذه المرحلة بالذات بأن يكون ملتزماً بواقع المأساة ،حتى يوصل رسالته الى العالم اجمع خاصة وان الفن ـ كما هو معروف ـ لغة عالمية حضارية !

● وأسأله : ولكن لماذا تتجه فى أعمالك الى السيريالية ؟

ـ ويقول لي : لانها احدى لغات الفن المعاصر والفنان مهما كان شكل اتجاهه الفنى فان التزامه الحقيقى يبرز من خلال اى اتجاه فنى .. وانا ارى ان الحياة من حولنا تدور فى سريالية .. واصبحت ادرك ان السريالية الحقيقية اصبحت موجودة فى ضمير العالم

زهرة البرتقال .. رمز الأمل والحلم

طفل وطعام ورصاص .. من وحى حياة المخيمات



من حولنا .. الا ترى معى ان احلام الخيال اصبحت تبدو فى نظرنا اكثر منطقية من الواقع ؟!

● لماذا ؟

ـ لان قوى الضغط العللى اصبحت تحول الاكاذيب الى حقائق ، والحقائق الى اكاذيب .. ومن هنا اصبح المظلوم ظالما ، واصبح المجاهد فى سبيل ارضه وشعبه وبيته ومرتع طفولته ـ فى نظرهم ـ مجرد ارهابى يستحق اقسى القصاص !

● هل هذا الراى هو الذى تقدمه فى لوحاتك من خلال رموز كالزهرة والشمس والبيضة والصخرة ؟

ـ نعم .. فالشمس هى الحقيقة ، والزهرة هى الأمل .. والصخرة هى قدس .. والبيضة هى الاجيال القادمة التى ستحقق حلم العودة ان شاء الله .

● وماذا عن الطبيعة الخاصة بالالوان التى الحها فى لوحاتك ؟

ـ اننى كفنان ملتزم بقضيتى اعتبر جميع اعمالى الفنية مقالا سياسيا ، ورغم التحوير فى الاشكال المالوفة فلابد ان يكون العمل مقالا سياسيا يحكى قصص البطولة ،



محاكمة برىء

ويعيش مع التطلعات المستقبلية للشعب الفلسطيني وثورته المسلحة ، وقد حاولت قدر جهدى أن أجعل الالوان مشاركة فى ابراز هذا المعنى .

● اذن .. ما هى اللوحة الفنية فى نظرك ؟

ـ هى عبارة عن طلقة صامتة تحمل شحنة انفعالية ، ولابد من استثمار هذه الطلقة لصالح قضيتنا الفلسطينية العادلة .

● وما الذى تعنيه أسماء بعض لوحاتك ؟

ـ (مفتاح القدس) .. هذا العمل تصميم للمفتاح التذكارى للمدينة المقدسة ، وهو يحمل أول اسم لمدينة القدس وهو (يبوس) عندما أسسها أجدادنا الكنعانيون العرب ، كذلك يحمل اسم (بيت المقدس) وهو اسمها عند الفتح الاسلامى ، ويحمل اسم (القدس) وهو اسم عاصمة فلسطين حالياً .

اضافة الى قبة الصخرة وكنيسة المهد والشمس .. وكما ترى فان مقدمة المفتاح هى مقدمة البندقية التى يرفعها شعبنا المناضل لاستعادة هذه المدينة العظيمة .

ـ لوحة (الفلسطينى) تصور الانسان الفلسطينى وهو يحمل مسئولية تحرير وطنه على كاهله فى صورة كفاح مسلح .. وهى ـ كما أرى ـ الصورة الوحيدة والصيغة الفريدة لاستعادة فلسطين .

ـ اما لوحة (الشهيد) فهى ترمز الى بطولة هذا الانسان الفذ الذى تحول الى شمعة محترقة من اجل ان يضىء طريق النصر للآخرين .

ـ اما لوحة (الموناليزا تقاتل) فهى ذات طبيعة خاصة وهى تعنى فى لغة الفنانين اعادة الصياغة لبعض الأعمال الفنية الخالدة من خلال رؤية جديدة ، فلو عادت الموناليزا من جديد لحملت السلاح وانتظمت فى صفوفنا تقاتل الظلم والظالمين !

ـ (انهم يعتقلون الشمس) .. الشمس رمز للحقيقة الساطعة التى يحاولون طمسها ... وكفى !

ولا يفوتنا ان نقول بان الفنان التشكيلى ياسر أبو سيدو من مواليد مدينة يافا عام ١٩٤٧ م ، وقد درس الفنون الجميلة بالقاهرة وحصل على البكالوريوس من كلية التربية الفنية عام ١٩٧٣ م ، وفى نفس العام اقام معرضه الأول فى قاعة اخناتون بالقاهرة ، وبعد عام واحد اقام معرضه الخاص الثانى فى مدينة بنغازى بليبيا .

والمتأمل لجميع لوحات هذا الفنان الشاب يلمس فيها مزيجاً من الواقع والخيال السريالى ، كما يلاحظ تعدد المعالجات الفنية فى كافة اعماله ، فاللوحات بين الحفر والتصوير بالألوان الزيتية ، واللاكيهات والاحبار .

وفى قراءة صغيرة لكتيب المعرض الذى اعده ابو سيدو عن لوحاته الخمسين ليوزعه على عشاق الفن التشكيلى فى مدينة الدوحة نجد انه قد كتب فى بدايته كلمات رقيقة تعبر عن مشاعره المتدفقة واحلامه فى النصر والعودة يقول فيها : «فلسطين يا حبيبتى .. الى كل ذرة من ترابك ، الى كل شهيد قضى فى سبيلك ، الى كل انسان يعمل من اجل تحريرك .. اقدم خطوطى والوانى وهمومى ومشاعرى اقدمها هكذا بعيداً عن الحواجز والأسلاك الشائكة التى يناضل من اجل ازالتها كل الباحثين عن الحرية والحياة» .

إنها نبضات فنان يعبر عن مشاعره ، غارساً اقدامه فى تراب الأرض ، داعياً الى الجهاد فى سبيل الله .

نبيل خالد الأغا

باريس تحتضن الفن الذي رفضته منذ ١٥٠ عاماً!

بقلم
نهى سمارة

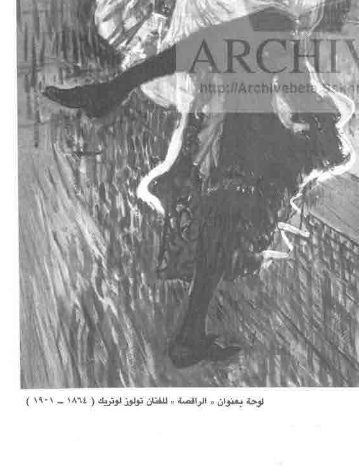
منذ مائة سنة ونيف ، رفضت أعمال ثلاثين فناناً انطباعياً من قبل هيئات التحكيم الرسمية ، واعتبروا حركة ساخطة على الفن الأكاديمي الرسمي .

اليوم يتصدر هؤلاء متحفاً كاملا باسمهم فى ساحة كونكورد فى باريس ، وفى بعض قاعات اللوفر ، ومتاحف كثيرة اخرى .. هؤلاء هم أصحاب المدرسة الانطباعية التى ثارت على كل مفاهيم الفن الكلاسيكي القديم بكل ما فيه من أشكال قديمة فقدت مضمونها مع الزمن .

الرسم بالألوان

جاءت كلمة انطباعية ، فى لوحة عرضها « كلود مونيه » بعنوان « شمس مشرقة ــ انطباع » .

وقد أثارت هذه اللوحة موجات



لوحة بعنوان « الراقصة » للفنان تولوز لوتريك (١٨٦٤ ــ ١٩٠١)



راقصة باليه على المسرح .. عنوان لوحة خالدة للفنان ديجا (١٨٣٤ ـ ١٩١٧)

باريس تحتضن الفن الذي رفضته!



امرأة تحت المظلة .. لوحة تعبر عن الصدق الذى تحمس له الفنان مانيه

استياء وغضب من المتزمتين ، واشتق من اسمها كلمة الانطباعية ، لكي تشير الى الحركة الفنية الجديدة التى كان هؤلاء الفنانون يمثلونها .

فالفنان الانطباعي تغلب عليه النزعة الذاتية على النزعة الموضوعية .

والفن كما نعرف لا يمنطق أو يعلل ، إنما يخترق بالبصيرة . وفنانو المدرسة الانطباعية هم فنانو البصيرة . فالى ما قبل حوالى المئة سنة ونيف ، كان الفكر يعد ـ ضمنا ـ القوة المسيرة للفن ، فالفكرة كانت سيدة الشكل .

وجاء الانطباعيون بتحد جديد لتاريخ الفن ، وهو أن يرسموا عن طريق الألوان ، فقط بوضعها فى لطخات سريعة ، ضمن تلاعب نور الشمس على الأرض ، فكان التصور الذهني لا نفع منه ، بل كانت محاولتهم متوترة ، مباشرة ، يمكن تشبيهها برسم الخطوط على نمر متحرك واقتضى بالتالي تحقيقها لحظويا ، من التخطيط الى اللون ، من التصور إلى التنفيذ ، من رؤية الذهن ، إلى رؤية العين .

الانسان والصورة

وإذا استمعنا إلى « سيزان » وهو من ابرز اقطاب هذه الحركة ، يصوغ لنا المبادىء الفنية الأساسية لدى الانطباعيين فيقول :

« لا يعدو الفنان إلا ان يكون جهاز تسجيـل للمدركات الحسية . لا نظريات ، بل عمل ، فالنظريات تفسد الناس ، وإنما نحن فوضى لامعة . أنا أتجه لموضوعي واضيع فيه . إن الانسان يجب أن يختفى تماما من الصورة ، ويستغرق كليا فى الطبيعة والمنظر ، ذلك الاختراع البوذي الذى يعطينا الاطمئنان بلا عواطف حارة بلا روابط ، بل بالألوان » .

ويستطرد سيزان مؤكداً :

العائلة .. للفنان بازيلي (١٨٤١ ـ ١٨٧٠)

وجبة الغذاء .. من واقع الطبيعة والمنظر للفنان جوجان (١٨٤٨ ـ ١٩٠٣)



لاعبو الورق .. للفنان سيزان (١٨٣٩ ـ ١٩٠٦)

باريس تحتضن الفن الذي رفضته !

« الانطباعية هي تفكيك الألوان على اللوحة ثم اعادة تراكيبها فى العين . أي أن اللوحة لا تمثل شيئاً . ولا ينبغى لها أن تمثل شيئاً غير الألوان » !

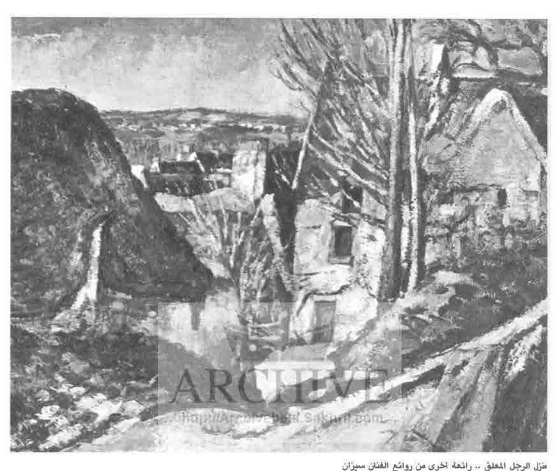
مع احداث الحياة

وقد اتجه الانطباعيون ـ بحماس شديد ـ إلى تصوير اناس عصرهم وموضوعاته . اخذوا يتأملون الأشياء العادية باهتمام ، بلا خوف أو تكتم ، حتى إذا كانت تلك الأشياء قبيحة أو مشوهة ... ولقد صاغ « مانيه » هذا الموقف بقوله :

« إن الرسام اليوم لا يقول : انظر إلى هذه اللوحات الخالية من الخطأ ، بل يقول : انظر إلى هذه اللوحات الصادقة »

ويومها نصح مانيه ـ صديق بودلير وزولا ـ محافظ باريس بالا يغطى حوائط قاعات الاجتماع فى فندق « دوفيل » بلوحات تاريخية أكاديمية بل باشخاص وموضوعات من العصر فلا يشعر المشاهد باغتراب عن الفن .

وقد رسم الانطباعيون احداث الحياة اليومية ولاحظوا جماليتها فى رسمهم : الأسواق التجارية ، محطات سكك الحديد ،جسور السين ، الحدائق العامة وكل نشاطات الحياة اليومية ... ولم يكونوا جميعاً متفائلين ، فالفنان « فان جوخ » ، الذى يعتبر منهم ، ويعد كرمز للابداع ، اختار موضوعات لوحاته من الواقع الاجتماعي الذى يفيض بالتعاسة فكانت خطوطه عريضة مكثفة وخشنة لتعبر عن مضمون موضوعه ...



منزل الرجل المعلق .. رائعة أخرى من روائع الفنان سيزان

ويلتقى الانطباعيون عند ايمان عميق لديهم هو التغير ، إنهم يؤمنون كما قال ذات يوم الكاتب العالمي د. هـ. لورانس بأن كل شيء يتغير ماعدا التغير نفسه !

وهم بذلك يؤكدون أيضاً فلسفة « هيرقليطس » بذلك « النهر الذي لا يستطيع المرء أن ينزل إليه مرتين » .. فكل لوحة انطباعية هي تسجيل للحظة فى الحركة الدائمة للوجود ، وعرض لتوازن مهدد ، غير مستقر ، لتفاعل القوى المتصارعة .

والرؤية الانطباعية تحول الطبيعة إلى عملية نمو وتحلل ، فكل ما هو ثابت متماسك يتجه إلى تحولات ، ويتخذ طابعاً متجزئاً غير مكتمل .. فتصوير الضوء والهواء والجو ، وتحليل السطح المتساوي إلى بقع وخطوط لونية ، وتفكيك اللون الموضعي إلى قيم ، والنقط المرتعشة المرتعدة ، وضربات الريشة السريعة ، المفاجئة ، وكل التكتيك المرتجل بتخطيطه السريع الخشن ، والادراك العابر الذى يبدو غير عابىء بالموضوع ، كل هذا إنما يعبر اخر الأمر عن الشعور بواقع مثير ، حيوي ، دائم التغير ، وهو الشعور الذى بدأ بتغير الاتجاه القديم فى التصوير ، الآخذ بفكرة « المنظور » حيث لم يعد الانطباعيون يلتزمون بقواعد المنظور ! .

ولقد حــرر الانطباعيــون الفــن التشكيلي من الموضوع الأدبي ومن الحكاية ومن كل معنى يمكن أن يصاغ بكلمات اللغة . واصبحت وسيلة تلقى هذا الفن وتفهمه هي العين لا العقل .

لذلك خرجوا باعينهم الى الطبيعة ، ورفضوا الرسم من الذاكرة ، وفى داخل مراسمهم ، فعايشوا الطبيعة لحظة بلحظة ، وتلقوا الانعكاسات اللونية للأشياء لا الأشياء ذاتها .

المجد بعد الموت

ويغص متحف الانطباعيين فى ساحة الكونكورد يوميا بخمسة آلاف زائر ... وأصبح هؤلاء الفنانون جزءاً من تراث فرنسا ، تفخر انهم وجدوا فيها وتفاعلوا فى أرضها . وأصبحوا ككل الفنانين فى العوالم المختلفة يعيشون أمجادهم بعد موتهم .

نهى سمارة

PALÁCIO DE MONSERRATE

بقلم : أحمد العناني

رغم المأساة ..

مازالت الناصرة في البرتغال عربية!





ليت صاحبي ما توقف بي فى « الفيرا » فهناك لم تكن الدور وهندستها ، وقسمات الوجوه وتعبيراتها تعيد لي صور الماضى العظيم المندثر وحسب ، ولكني كنت من قريب قبل ذلك قرات كتاب المرحوم علي ادهم عن حياة « المعتمد بن عباد » ، والرجل اقدر كتّاب التراجم فى ادبنا الحديث لأنه لا يعيد لك سيرة من يقص حياته وحسب ، ولكنه يستنهض عصره كله من ركام الماضى البائد فاذا أنت مع اهل ذلك العصر تشاطرهم حياتهم ، وتعيش معهم مخاوفهم وأزماتهم ، وتغنى لهم فى أفراحهم ... وبكل سحر العربية المطواعة بين أنامل ذلك الرجل فانك تحيا بهجة الساعات مع مؤلفاته تماما كما يحصل لك من قراءة تراجم « أندريه موروا » و « روزبري » وغيرهم من عمالقة كتاب التراجم فى الغرب

مدنية شهدت تقلبات القدر

اقول قد كنت لثاني مرة قرات ترجمة على ادهم لسيرة المعتمد بن عباد ، فماتزال « ألفيرا » تلك المدينة التى شهدت مرارا تقلبات القدر الحادة فى حياة المعتمد ، تمثل فى خيالي بكل روائها وخيرات أرضها وسمات الأندلس العربي تتجلى فيها ... فحين قال لي مرافقي نحن الآن في « الفيرا » فكأنما طعنني بآلة حادة ، فما لي لغير الجرح حس ولا اهتمام ..

الفيرا ... يقول لي « الفيرا » بملء فمه كانما لا يعرف ماذا يمكن أن تعنيه « الفيرا » هذه لعربي دارس تاريخ هذه البلاد .. ولاحظ الرجل شدة اضطرابي ، وغلبة الدمع على محاجري ، ورعدتي لما سمعت وما كنت أرى فهز رأسه يقول وهو يخاطب نفسه بالانجليزية ـ حيث هي وسيطة الاتصال بيننا ـ نعم .. نعم .. إنها كانت مدينة عربية فى كل شيء لمئات السنين ... هاهو ذا اسمها بال أداة التعريف العربية ، ما يزال على حاله ...

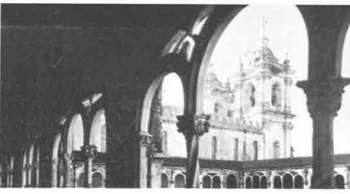
الله يا الفيرا .. مازلت طفلة الحسن كله تميسين فى رواء شباب لا يشيب ، وحياة خضراء ضج اخضرارها حتى فى السوق والعروق ... عزاء للمسلمين عرباً وبربراً وصقالبة لما أصابك من خفوت الأذان ، وانقطاع الذكر للواحد الأحد لم يلد ولم يولد .. فمن قبل المسلمين طالما تداولتك الأيادي .. وتعاورت على فضائك البنود والأعلام .. سقيتهم جميعاً كؤوس الهوى وطارحتهم أرق عبارات الغرام .. وثملوا وغاب صوابهم ، وضاعت فى هذا الجمال الحافل مراشدهم .. ثم ارتخت عن السلاح اياديهم ، وجانب العدل والرحمة سلوكهم ، فلما ظنوا أن الدنيا دانت لهم وأنه لا غالب لهم اتاهم أمر الله فاذا هم حصيد خامدون ..

عبق البرتقال وثرثرة جداول الماء ، وهينمات الغصون يثنيها نسيم الأصيل فتحاكي قدود الأوانس المنبثات فى هذى الجنان .. كلها تميل الرأس ، وتخدر الحس ، إلى أن تنهض من الوجدان غلائل سوداء من مأساة الاسلام في الأندلس فاذا أنت ترى كل شيء خلل الدموع متشحاً بالسواد فيالله لي ما الذى جاء بي إلى هنا .. ويالها من لقيا كأنها لقيا قيس بليلى وهى فى عصمة ورد .. وذكرتنى ليلى ومجنونها بشوقى ونفيه ههنا فى الأندلس أيام همست له بسينيته العصماء فهو أبداً :

مسطار إذا البواخر رنت
أول الليل أو عوت بعد همس

قال صاحبى : الا نجلس للقهوة في الفيرا ؟ . فقلت له على تراخ وحزن : بل اخرجنى منها سريعاً ، فانا ضائع اللب فيها بين صورتها فى عصر المعتمد وواقعها الآن بغير توحيد ولا رشد ..

ومضت السيارة تنهب الدروب
المتسترات بتشابك الأغصان
فما لشعاع من الشمس واحد
درب بين زحمة الأوراق والأفنان



ثلاث لقطات .. الأولى على اليمين لبناء فى لشبونة نرى فى أعمدته وأقواسه الطراز الاسلامى الجميل .. ونرى نفس الطراز الفنى فى اللقطات الأخرى لبعض الأبنية فى مدينة القباصة .



الآثار الاسلامية الباقية فى البرتغال



إلى أن انحسرت الجبال عن ساحل امتدت فوقه رمال بيض نواعم لا تنكر القدم الحافية منها شيئاً ولا تخشى غائلة ، وأمواج الأطلسى فى الجو الرائق باتت تمازح اليابسة مزاحاً لطيفاً ، وقد انبثت على الساحل اكشاك عليها للسائحين مصبغات من الملابس ، ومن الداخل تعبق رائحة السردين فى أشهر بقاع تواجده فى الأرض .. وجلسنا للغذاء ، وأنا أتمتم .. ما كان ضر قومى لو خافوا الله حق مخافته ، وشكروا له هذه النعم حق الشكر له .. فأبقاهم هنا فى هذه الجنة الفيحاء .

القرية المعلقة

وألقيت إلى أعلى الجبل نظرة .. فقلت لصاحبى : ما تلك القرية المعلقة فى أعلى الجبل هناك ؟ قال : هى «الناصرة» ونحن نلفظها «نازره» ولكنى لست سائراً بك إلى هناك .. قلت : لم ؟ قال : قد اشـــجاك ما رأيت فى «الفيرا» والقباصة فكيف لو رأيت ما يمكن أن تراه فى الناصرة .. فقلت ما عليك من شجني فاصعدنى إليها ولك مني ما تريد ... فوالله إني لفى شوق إلى ناصرة بلادى فى فلسطين ، فما نخلتها حياتى كلها إلا مرة واحدة اشفقت بعدها على نفسى أن ينالها من هوس سحرها نظير ما أصاب طوقان» ..

فقد ظل حياته باكياً على كفركنه .. جارة الناصرة .. على العنب والتين وسحر القدود والجفون .

خذنى لها فلأمر ما سماها أجدادي هنا بالناصرة ؟ قال وماذا عندكم من الفواكه والزراعة فى ناصرتكم بفلسطين ؟ .. قلت الرمان والتين والعنب والزيتون .. وقداسة من عطر المحبة فى بلد المسيح .. فقال يبتسم : والله ان هذه لهى مفاخر هذا البلد سوى أن الرجل الذى جعل الناس قبره مزاراً غير معروف الهوية تماماً . والبعض يقول إنه كان من الأولياء العارفين من رجال المسلمين .. فامض معى الآن لأريك ما يدهشك .. ولكن تماسك ولا تضعف كما ضعفت بالفيرا ..

أبداً لن أنسى ناصرة البرتغال ما حييت .. كل شىء فى ذلك البلد الجبلى الجميل مازال عربياً مسلماً إلا أسماء الناس دون أسماء الأحياء وبعض الأسر والأسماء المستجدة لمساجد قديمة محولة عن أصل صبغتها .. أما الملابس فهى عربية فضفاضة محتـشمة وعلى رؤوس النساء وصدروهن خُمُرٌ ساتره .

ويقول لى صاحبى : ههنا يقرون الضيف ، ويدفعون عن كرامته بالسيف ، ولا يسامحون فى العرض ، ويحيون الحياة وكأنهم فى مأساة لا تنتهى مشاهدها .. وانظرهم في ملابسهم فهل ترى لونا واحداً فاتحاً ؟

واويلاه إن المأساة ما تزال تمد رواقها عبـــر القـــرون على ذراري أولئـــك المستضعفيـــن مـــن بـــواقي المسلميـــن الاندلسيين ، فكأنما الشجر لا يردد بحفيفه إلا أصداء نشيج أجدادهم حين كان التعصب المجنون ومحاكم التفتيش الدموية تحيل حياتهم جحيماً لا يطاق ..

الله أكبر ..هنا أفهم بوضوح كما لم أفهم فى حياتى كلها معنى قوله تعالى «وتلك الأيام نداولها بين الناس» ومعنى قوله «وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ومالهم من دونه من وال » .

وسألت نفسى : ما الذى جاء بأجدادى من العرب إلى هذا المكان الأوربى من ساحل بحر الظلمات ؟ والجواب طبعاً دعوة الله ورسالة الاسلام .. ثم تذكرت كتاب علي أدهم عن المعتمدبن عباد وما أمضت به الحال بالناس من التنكر لنُهية الدين ورسالة رب العالمين .. ورأيت منطقياً جداً أن يخرج العرب حتى بعد سبعمائة من السنين من هذه الجنات الممتدة على مدى البصر .. وأخشى ما أخشاه الا يظل لهم سوى أرض العرب وحدها ما تخلّوا عن الاسلام ورسالته ..

أحمد العناني



ابو زيد الهلالي الذى تغنى بسيرته الرواة فى كل انحاء العالم العربى



بقلم: إبراهيم إسحق إبراهيم

من راى الدكتور عبد الحميد يونس وتلامذته «محمود ذهنى وعبد الحميد حواس وآخرين» ان السير الشعبية العربية اهتمت فى عفوية بنائها بتمكين المبادىء الحقة للوحدة العربية الشاملة سلاليا، وسياسيا، وثقافيا. ولو جاز لنا الاختلاف مع هؤلاء العلماء درجات فقد لا نخرج على التمييز بين العفوى والارادى فى مقاصد الشعراء والرواة الذين صاغوا والذين طوعوا وطوروا لنا هذه السير بنسيجها الاقليمى المميز من حجازية، وعراقية، وشامية، وقاهرية، وصعيدية، وسودانية، ومغربية. الذاكرة السردية فى مناطق القلب من البلاد العربية كدمشق والقاهرة غالبا ما تنسج رواياتها إنطلاقا من الوعى الكبير بقضايا الاسلام والعروبة، وذلك فى ظروف صعبة مثل تدهور الحكم العباسى والشتات الذى تبعه فى العصرين الفاطمى والمملوكى حينما ساد حكم الطوائف وأسرات المغامرين والشيع الدينية المتحمسة. أما الأطراف الدائمة التمدد بالترحال العربى المسلم من صقع الى صقع بعيدا عن دائرة القلب فشغلها الارتياد والمزيد من الارتياد، سلاليا وسياحيا وثقافيا، داخلة كل حين فى اوطان ربما لم تات منها الاخبار بعـد. هناك تعزز الاعراب البدو معدات التاقلم السريع مع العناصر التى تحل وسطها، وقد لا تشرع فى عمليات التاقلم اكثر من موهبتين أساسيتين من مواهب البطولة اينما وجدت وهما البسالة والحكمة.

سيرة بنى هلال فى مراحلها الثلاث، ببلاد السرو ثم فى نجد وعلى مرامى التغريبة، تزدحم بالأبطال العرب، والعربيات. ورغم ذلك فان ملاحظة دكتور عبد الحميد يونس تصدق حول وضع ابى زيد سلامة بن رزق كبطل حقيقى لسلاسل الحكايات الطويلة المتداخلة والمتفاصلة ازمنة وامكنة. واذا كانت التقسيمات القبلية الباكرة فى الجزيرة العربية تكترث لانتساب الأبطال العظام خاصة الى اصولهم لدى زغبة، ورياح، ودريد، والزحلان، وما سواهم، فان هذه الفروع تحتفظ باهميتها فى اطوار السيرة وهى تتفرهد فى مصر وبلاد المغرب حتى عهد قريب. الاهتمام بالفرديات القبلية هذه لحد ملحوظ ينتج عن اهمية التفاصيل فى

سرد المواقف والفروق بين الأبطال ومحال الأزمات فى اصناف ونسخ السيرة التى ظلت تمثل بضاعة وصناعة مهنية للشعراء والمحدثين فى مصر أكثر من غيرها . اما اذا تابعنا انحدار العرب الى البادية الصحراوية وراء ساحلى ليبيا ، وتونس وقدامها فى سهوب شمال نيجيريا وتشاد والسودان فالوضع يتغير كثيرا .

أهمية الروايات الشعبية

بداية قد يفرض انقطاع الوصل بين مسميات القبيلة العربية الأم والجماعة العربية فى الأعماق الافريقية امتناع كل داع للاحتفاظ للأبطال الهلاليين بانسابهم القبلية فى سير افريقيا العربية . فما يستفاد من الراوى بين اعراب الشوا بضفاف بحيرة تشاد من ذكر زغبة والزحلان ، أو ماذا يعنى دريد ورياح للرواة فى ضواحى الخرطوم وكردفان ودارفور . إن إنعدام الاتصال الاسمى بين الجد الهلالى الاسطورى والحفيد العادى المتسكع فى هذه البقاع الافريقية يستحق منا فهما دقيقا . فالمعروف من قديم ان الأسر المبتعدة عن بطونها حتى فى حقب الجزيرة العربية سرعان ما تتخذ من اسم الأب الاكبر أو الأم المسيطرة لائحة قبلية جديدة تصبح لها شعارا أينما سارت ووسط من فى الأقوام المغايرين حطت . وبهذا تجعل قبائل البقارة فى غرب السودان من وجود العناصر الهلالية الضئيلة بين عشائرها حجة للانتماء الى ابهة سمعة البطل المرفوع على الدوام ميسما للذاتية الهلالية أينما وجدت . ان انعدام الركيزة الوثائقية للزمان والمكان الذى مات فيهما سلامة بن رزق لهو اجمل ما تمنحه كل يوم السيرة الهلالية للعروبة البدوية والافريقية خاصة من فرص باهرة لصياغة أيدولوجية ديناميكية عفوية وموفورة الاخصاب .

عبد الرحمن الأبنودى يحدثنا عن تكور الفلاح المصرى على أبى زيد وبقية الأبطال الهلاليين ليقيم من أخبارهم ديوانا يحوى مواجد الانسان الصعيدى فى الحقل والبيت والمقهى . وفى القاهرة يرى عبد الحميد يونس والباحثون غيره اجانب وبلديون ، اهمية هذه الروايات



الزناتى خليفة .. ابرز ابطال السير الشعبية

الشعبية كتنفيس مستمر للرئة القاهرية . ويحسن عبد الحميد حواس التعبير عن طبيعة هذا التعلق بالسيرة الهلالية أينما وصلت فيجعل ذلك التعلق مفتاحاً لمقدرتها على حمل التلوينات والتنويعات المحلية المعبرة عن خصوصيات البيئة وتمايزاتها الثقافية والاجتماعية . أحمد ممو فى تونس يحتفل بنفس هذا الدور للرواية الهلالية ببلاده ويصوره فى قالب أسماه «التحولات فى أقاصيص بنى هلال» . فهناك التحول المستحدث فى الوقائع التاريخية والجغرافية وزخرفتها وهناك التحول الموضوع على الوظائف المهنية والاجتماعية للأبطال . واستقراء مؤشرات هذه التحولات والتنويعات هو من صميم هموم الدارسين والمستمتعين بالظاهرة الحيوية والانتشارية الشاسعة للسيرة الهلالية فى افريقيا العربية .

كان للدكتور عبد المجيد عابدين السبق فى لفت الأنظار الى التوظيف المدهش الذى وجهت به الجماهير فى القرن الرابع عشر الميلادى سيرة سيف



ابن ذى يزن ضد عمليات التيار الحميرى المسيحى الحبشى الذى انعشه من اثيوبيا الملك عمدا صهيون (١٣١٢ — ١٣٤٤ م) فيما عمل على ترويجه من دعاية تحت اسم «سيف أرعد» . فكان التحول الذى طرا على السيرة السيفية العربية مطاوعاً لدرجة عكست ترتيب التواريخ وأصبح سيف بن ذى يزن التاريخى المتوفى فى العصر الجاهلى مسلماً ومعاصراً للنبى صلى الله عليه وسلم . لكننا قد نستطيع ملاحظة الشىء الذى يجعل معظم السير العربية ، من السيفية ، والعنترية ، وذات الهمة ، وبيبرس ، وعلي الزيبق ، والزير سالم ، الى حمزة العرب ، أقل انتشاراً ومفعولية من الهلالية فى الوقت الحاضر . فعنترة وابو زيد هما وحدهما اللذان لا يرتبطان بالمحل الضيق او المرتكز الواحد . وهما يشتركان ايضاً فى صفة لصيقة بفؤاد العرب الافارقة وهى سواد البشرة . فى مقدور عنترة ان يسوح الى الحبشة والسودان وبلاد العجم لكسب الأحلاف وشهود الملاحم مع الأمم فى مقابل احتباس البطال فى الشام او الشطار فى حوارى المدن . واما أبو زيد فيركب الريح سارحاً مع الجموع الهلالية فلا ينتهى تطوافهم حتى وهم على مشارف خط الاستواء بافريقيا . وحتى عندما يموت الأبطال المؤسسون فلن السيرة الهلالية تخلق من اجيال ابنائهم الأيتام أبطالا جدداً أكثر مطاوعة لمتطلبات المراحل والأعصر والبلدان التى يعبرون عما يلقونه فيها .

حينما اخترت فى عنوان المقال تقديم نسبة الهلالى على أبى زيد (الكنية أو اسم العلم لا ادرى) أردت من ورائه شيئين . فى بادية عرب السودان يفضلون الحديث عنه هكذا . والسبب الآخر هو الأمل فى أن يكون طرقى لموضوع بطولة ابى زيد ناشئاً وواصلا لشىء جديد ومغاير للمعتاد فى غالبية حديثنا عن الهلالية وبالتـــالى يستطيع هذا التقليب فى الاسم استيعاب مفاهيم معالجتى لهلاليـة أقارب أبـى زيد فى أعماق افريقيا . ابراهيم الصيرفى ينضم أيضا الى احمد ممو وبعض الدارسين الموثوقين فى التركيز على جانبين من السيرة الهلالية وتقديمها كاهم الجوانب فيها وهما البطولات وقصص الحب . وهذا صحيح . ولكننى فضلت ان أقول مفسراً ومميزاً بان البطولة فى معناها العنترى الواسع وحتى النبوى المقدس ليست هى البسالة العادية ولكن ايضاً هيمنة العقل والحيلة والحكمة على سلبيات الحياة أجمع . ومن هنا يتسق ما قصدت اليه مع مقالات أولئك الدارسين المجودين لمزايا الهلالية .

تغريبة بنى هلال

المدقق فى «تغريبة بنى هلال» سيلاحظ مدى الاحتفاء بمقدرتى أبى زيد الهلالى المتوازنتين تماماً وهما الحيلة والبسالة . فهذا الرجل الأسود يتنكر مرات فى زى المغنين الجوالين فيطرب مستمعيه ويبهرهم ، ومرات فى زى الدراويش فيتكلم الفارسية ، ومرات على هيئة الرهبان فيرطن الرومية (اى الاغريقية) ، ويندس بين الاعجام فلا ينكشف ، ويتهيا بملابس اشرار اليهود ليهزمهم ، ويدعى الطب فيؤتمن على الارواح ، ثم يستعمل البنج لـقهر أعدائه . ولولا هذه الحيل والالاعيب لما عبر الهلاليون تلك الممالك البربرية المشتتة على كل شبر من الأرض حتى وصلوا من نجد الى تونس .

هذا الارث من التحايل المبدع يضعه الأعراب البدو نصب أعينهم وهم يتوغلون فى بلاد البربر والسودان ومنه يستفيدون فائدة قصوى . فاذا أرادوا تدريب اذهان ناشئتهم على الحكمة والحيلة المطلوبتين للبقاء الصالح فى بلاد غريبة سردوا عليهم اخبار ابى زيد .

وفى «التغريبة» كما فى السير الهلالية بمصر وتونس يلاحظ المكترث بـروز دور النساء المقربات للأبطال مثل الجازية وشيحة فى بذل الراى المفيد للقبيلة . وهذا الدور لعلة ما يتقلص فى السير الهلالية بغرب السودان . ثم لم يرض الناس هناك لهذه الحكمة أن تنتقى فاضافوها لخصال الحيل والمهارة اللغوية المتعددة والبديهة الحاضرة عند ابى زيد . فى الحياة المصرية العامة انعزلت تدريجياً بعض مواقف الحكمة من النسيج الكلى للسيرة الهلالية واصبحت سائرة على لسان الجماهير ، حتى وسط الذين لا قبل لهم بتبيان الخطوط الهامة لأخبار بنى هلال . عن عبد الحميد يونس ومن عنه ياخذون نعلم ان الشارع المصرى يقول للمهندم الفنجرى «عامل ابو على» تشبيهاً له بحسن بن سرحان أمير بنى هلال . وأخذوا عن استيلاء دياب بن غانم على مجهودات ابى زيد واغتياله إياه مثلهم السائر «كانك يا ابو زيد ماغزيت» . ويتفق المصريون تماماً مع أعراب السودان فى جعل نصيب ابى زيد من اللماحية هائلا وكاسحاً وذلك فى قولهم «سكة ابو زيد كلها مسالك» .

أما فى أرض الجزيرة بوسط السودان فيحكون ان ابا زيد ودياب تغالطا فى حقيقة الرجل الكريم الأجواد فقال دياب «الجود من الموجود» وقال ابو زيد «الجود قطعاً من الجلود» اى العطاء حتى فى قمة العسرة وهو مصداق الآية القرآنية الكريمة «ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة» . فى هذه البيئات الاسلامية كثيراً ما تندرج الموعظة الدينية فى الحكمة الشعبية بمنتهى العفوية . وفى بلاد بين النيلين قالوا ايضا ان دياب الهلالى قال «الوجع إما ضرس وإما عرس» . فرد عليه ابو زيد بان الضرس يمكن قلعه والعرس يمكن تاجيله لكن الوجع الحقيقى هو وجع العين والهم الأفظع هو هم الدين (بفتح الدال) . أو كما يضع أبو زيد ذلك فى اللغة الشعبية السودانية «السهر يا دين يا عين» . فالعين لا تقلع والدين ليس تاخيره فى متناول يد المديون .

قد يعود التمسك الحادب بالسيرة الهلالية كاداة لتثبيت الذاتية وتعميقها فى وجدان الأعراب السودانية الى اساس لايزال طلاب التاريخ فى مراحل تمحيصه وهو الوجود الفعلى لبنى هلال وسط الجماعات البدوية التى سارت جنوبا منذ القرن الثالث عشر الميلادى وانتجت تدريجياً رعاة الابل والبقر فيما وراء الصحراء الكبرى بجمهوريتى السودان وتشاد . كانت الغلبة وسط

أولئك المهاجرين للقبائل اليمانية . لكن عناصر من فزارة ورفاعة وفيهما بنى هلال كانت موجودة بينهم كما يشير لذلك حشد من الدلائل . ولما كانت الجماعات اليمانية بافريقيا تفتقر لحد ما الى الأسطورة الاصولية ذات الانتشار والذيوع كما لدى بنى هلال فقد جرى فى تعامل غالبية هؤلاء البدو قانون طبيعى ومعروف هو تغليب القطاع الأشهر على الجموع المتـــلازمة والمتضامنـــة سعيـــاً وراء اصطناع كيان تكتلى ضخم وصلب وغير قابل للتفتيت . وهكذا أصبح معظم هؤلاء البدو فى إخبارهم عن انفسهم احفاداً للهلالى ابى زيد . وحتى المالكة فى سلطنتى التنجر والغور (حوالى ١٥٠٠ ـ ١٩١٦) تنتسب الى احمد المعقور العربى الهلالى الذى يدعون له قرابة بابى زيد .

رعاة الابل من الزيادية ودار حامد والمحاميد فى القطاع الشمالى من هذا الحز الرعوى يحكون عن ابى زيد ونوادره وملحه نفس الأخبار التى يرويها عنه رعاة البقر فى القطاع الجنوبى كالرزيقات ، والحوازمة ، والمسيرية ، والبنى هلبا ، والهبانية . الفارق الوحيد هو ان تميز كل من القطاعين عن الآخر يبرز ويتضح فى تغييرات طفيفة على الحكايات فى كل حالة ، تغييرات تعنى بالجانب المعيشى لكل جماعة وترسم على الرواية سمات ذلك المعاش وملامحه البيئوية . فسعاة الابل يحملون ابا زيد على جمل أو ناقة ، وسعاة الأبقار يحملونه على ثور . ويعيش ابو زيد فى كل من الحالتين فى ظروف جغرافية وعرقية وثقافية مخالفة للأخرى ومفصحة عن ذلك الاختلاف .

الهلالى رائداً وحكيماً

ساختار الآن عينات موجزة من وظيفتى الريادة والحكمة عند أبى زيد الهلالى معروفة لدى الزيادية والرزيقات والبنى هلبا التى تمثل للجماعات السودانية البدوية العريضة التى ذكرتها . وجدير بالذكر أن الرشايدة فى شرق السودان والرباطاب والمناصير والجعليين فى شمال السودان يسردون الأخبار الهلالية كحكايات ومواقف مجملة تتبع خطوطها العامة تلك المغامرات التفصيلية التى نجدها لدى المصريين والتونسيين والليبيين ، فى الوقت الذى يكاد أهل غرب السودان لا يحكون من تلك المغامرات النمطية شيئاً . ولأن أبا زيد فى بادية غرب السودان يمثل جداً للرعاة لا يتعدى بعده الزمنى عنهم عدة اجيال كما يحسبون ، فهم لا يميزونه بشيء عن نمط حياتهم الحاضرة . وأول مهام هذا الحكيم القبلى فى البداوة هو أن يكون رائداً لمواقع القطر ومنابت العشب ومسارب المياه فى البرية حيثما تسير القبيلة . وهو مؤهل تماماً لذلك شجاعة وصواب رأى وادراكاً للغات الغريبة . ومن هنا نجد فى اخبار أحمد المعقور الهلالى انه ساعة يلقاه أهالى دارفور معرقباً ومهجوراً فى القفار يدخل معهم فى تفاهم ومخاطبات مباشرة دون حاجة لمترجم او شرح من الرواة لصعوباته الأولى فى التلقى والايصال المعنوى معهم .

عن الريادة يقول الرزيقات ان أبا زيد هو الذى اكتشف لهم الأرض التى استوطنوها ووجههم لسكناها ، ربما لملاءمتها لتربية الأبقار . فحينما عاد ابو زيد من ريادته سألوه كيف وجد البلد الذى راده لهم فأجابهم بأن فيه ذبابة صعبة (ذبابة التسى تسى الضارة للحيوان خاصة الابل) وكلب جسور (ويعنى الأسد) وأشجارها بلا صفق (مما لا يناسب الجمال) وأرضه اذا ابتلت تميعت وإذا تيبست تشققت . أما لرعاة الابل فقد اعطاهم ابوزيد درساً مأسوياً . يقولون ان ابا زيد سار فى القفار بدرب تونس الخضراء وحده حتى كلت دابته فنزل منها وصعد على شجرة هناك ما وراء الكثبان . لكنه لغفلته لم يعقل بعيره ولم يضع عليه رسناً فيربطه . إنصرف البعير وعليه الماء والزاد والأخفاف . نزل ابو زيد وجرى كل وجهة حتى اعيا فلما دهمه الموت عقل رجله ورسن ذراعه ومات . وتلك وصيته الغالية لأخلافه فى بلاد السودان ، على اثر نبيهم يقول لهم «اعقلها وتوكل» . وهكذا تكاد كل مقالات الحكمة فى هذه المناطق تتشكل فى الزمن الشعبى بما يتناسب وشخصية ابى زيد الهلالى .

يوصى أبو زيد الهلالى ابنه قائلاً «عليك بسوق كل يوم وضيافة كل يوم والسلام راكباً» . فلما احتار الآخرون من



الفارس الذى لا يتحدث إلا بالعبارات الحكيمة .. هكذا نرى شخصية ابوزيد فى السودان



هذه الأقوال فسر لهم الابن مقصد ابيه فقال : سوق كل يوم هو ان تكون لك نعاج تبيع منهن متى شئت . وضيافة كل يوم هى من أولويات حياة البدو وذلك باستغلال تنافس الضرائر على الزوج ومبالغة كل منهن فى التودد اليه . والسلام راكباً هو ان تكون على دابة وليس راجلا . ابو زيد الهلالى الافريقى يستغل إجادته للغات الافريقية وبداهته فى تقريب الشقة بين أهله وجيرانهم الجدد . إشارة للتاقلم اللغوى للعربان مع الأهالى السودانيين فان الكثير من هذه النوادر تنشأ على الغاز قائمة على الفاظ ذات جرس ومعان فى الرطانات المحلية . من هذه اخبار طويلة عن زواج أبى زيد الهلالى بنساء الجماعات الأخرى اثناء تطوافه وتركهن واطفاله فى بطونهن . فلما يكبر الصبى وتعلم به العرب وتسأل عنه أبا زيد تراه يوصى الرجال العقلاء بالذهاب الى ذلك الحى وامتحان الصبى . فالمطلوب الشائع من الصبى هو أن يخبرهم ما هو المقصود بكلام مثل : اللو فى اللو واللو فى اللو واللو فى اللو .. ولهذه الأخبار مسارات طوال .

فى مجالى الحكمة تتفق روايات السودان الشمالى مع اخبار الرعاة بغرب السودان عامة على ان أبا زيد بعد ريادته لدروب تونس الخضراء ورجوعه الى فرقان العرب سألوه رأيه عن كيفية الانتقال الى تونس فقال لهم : سأخبركم برأيى غداً . ثم إنه قبض على حمامتين وحشيتين ودسهما فى قارورة بعد أن نتف ريش احداهما . فلما جاءوا من الغد قال لهم أبو زيد : رأيى فى تلك القارورة فافتحوها . وبعد التعجب كله فتحوا القارورة فاذا بالحمامة السليمة تطير فتبعد ، واذا بالمنتوفة واقعة تتخبط . وغلبهم أيضاً فهم مقاصد ابى زيد فطلب منهم أن يستعينوا لذلك بابنه بريقع . فكان لابد من الارسال فى طلب الابن .

وهنا يستطرد الراوى فى ذكر اختبار حصافة بريقع . بريقع حدثهم فقال ان اباه يعنى طريق الوصول الى تونس الخضراء جد شاق ولا يتم قطعه إلا للقوى . فمن كان قوياً من الاعراب طار مثل الحمامة السليمة ، ومن لم يكن قوياً فيصير حاله الى غلبة الحمامة المنتوفة . وهكذا باع العرب المهاجرون نعاجهم ومعيزهم واكثروا من اقتناء الابل الشديدة فحملوا عليها الزاد والروايا ثم عبروا الى تونس الخضراء . ويبدو لى أن مثل هذه الحكم تخاطبنا ايضاً ضمن صحوتنا العامة ونحن مرتبكون امام عدو راصد وطموح فى التطوير الحضارى الذى يلحقنا بدرجات المتقدمين .

فيض من الحكمة

لربما صح أن الريادة العاقلة التى جسدها اعراب افريقيا فى شخصية ابى زيد لا تزيد ولا تنقص كثيرا عن كونها ايدولوجيــة ســلالية وثقافيــة تهدف لمواصلة التوسع والتعمق فى استكشاف الآفاق البكرة للعروبة والاسلام اينما

البطل الهلالى ابو زيد الذى تمنحه سيرته حــق التجول فى بقاع الأرض

يسير هؤلاء البدو ومستعربوهم فى صعيد مصر تحفر هذه الريادة فى الأعماق ، فى اغوار النفس ، لأجل استبطان قوى التحمل والصمود وإحياء الطاقات المحبوسة كما يوحى لنا عبد الرحمن الابنودى . وفى بوادى غرب السودان يدخل البقارة والأبالة أصحاب البقر والابل كل مرة فى تجارب أوسع وأعمق محتكين بالبيئات المعيشية والثقافية الجديدة ومختلطين بسلالات لم يعايشوها أو يعاشروها من قبل إلا لماماً . فى بحر الغزال وأطراف الكنغو على حواشى الغابات الاستوائية قطعان الرزيقات والهبانية وغيرهم أحيانا تسرح بهم . وحتى ركوب أبى زيد الهلالى فوق الثور فى تشاد وكردفان ودارفور تعلمه فقط من هذه البيئات الجديدة .

هنا تلد الريادة فيضاً من الحكمة لتجارب العروبة والاسلام فتثريها . وكما تسنى للمؤتمرين فى تونس للتباحث حول الدراسات الهلالية عام ١٩٨٠ أن يطلعوا على مواضيع متجددة فى هذه المجالات مثل بحث المستشرقة الفرنسية جاكلين أرنو عن «بنى هلال فى أعمال كاتب ياسين» فان للمؤسسات العلمية والثقافية فى العالم العربى ادواراً يجب عليها الاكتراث لها . إنطباعى عن هو أن السينما والمسرح والمسلسلات العربية تكاد تنهك حكايات عنتر وعبلة ، وقيس وليلى ، ووضاح اليمن ، وأمثالهم من ابطال الجزيرة فى القديم الأبعد . وربما تستفيد الذهنية العربية شيئاً جديداً لو تتعرف على البطل الهلالى فى ذاتيته الزئبقية التى تمنحه حق التجوال غير المنقطع ولا المحدود فى انحاء الأرض طالما يذهب بعيداً عن منبعه فى نجد . والتشكل على كل هيئة فاضلة أينما يصل. لقد عاشت أمريكا مثلا أكثر من قرن من الزمان وهى تستولد أساطير ذلك المغامر الجوال فى البر والبحر لأجل تحديد وتعميق مفاهيم إنسانية البطل الأمريكى من اسماعيل فى «موبى ديك» وعبر «هك فن» فى «مغامراته» على المسيسبى وحتى جوناثان سيقل طائر النورس المصعد فى الفضاء . ولنأمل نحن أننا سنراعى لطاقات ابطالنا الشعبيين مثل أبى زيد الهلالى مرات ونتدبر معطياتهم .

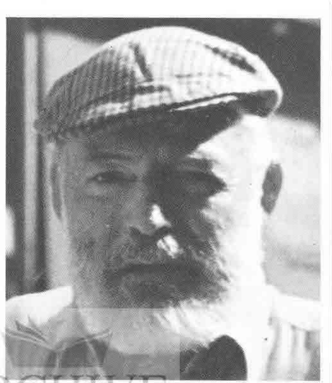
ابراهيم اسحق ابراهيم ــ الخرطوم

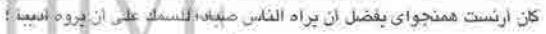


بقلم: جمال الكناني

خشيت عندما هممت بالكتابة عن إرنست همنجواى أن تغلبنى نوبة من حماسة فاضعه على رأس قائمة الكتاب الأمريكيين المحدثين ، فيهب لمعارضتى فريق يخص تى.اس. إليوت بهذه الزعامة ، أو فريق يؤثر وليام فوكنر» ويراه أحق منهما ... لهذا رضيت بالقليل وقلت لنفسى يكفى أن يكون صاحبنا همنجواى واحداً من العظام الثلاثة ، رغم ما أثارت كتاباته من عواصف النقد والتقريظ ، ورغم ما كان له من أثر ملحوظ على أدب أمريكا وانجلترا وأوربا ...

همنجواى ، أديب فحل حار النقاد فى وصفه وتحديد موقعه من مدارس الأدب .. فمن النقاد من وصفه بالبدائية ، أو بانه مثقف منحل ، أو بانه نموذج للامريكى الصميم ، أو أنه أوروبى اقتلع من جذوره ، أو بانه واقعى ، أو طبيعى ، أو رومانسى ، أو كلاسيكى ، أو رمزى ، أو نيهسيلى ، أو وجودى ، أو انسانى ... وليس فى الأدب الانجليزى والأمريكى غير همنجواى من نخل النقاد حياته





كان ارنست همنجواى يفضل ان يراه الناس صياداً للسمك على ان يروه اديباً !

همنجواى

علم نفسه الكتابة.. ثم أطلق على رأسه الرصاص!



مصارع الثيران .. إنه فى رأى همنجواى مثل الكاتب !

وغربلوها اكثر مما تخلوا حياة اللورد بيرون ، بحثاً وراء ما يشين سمعته او يلوث اسمه الأدبى .

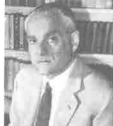
ولم يكن اهتمام النقاد بمحاولة الحط من قدر هذا الأديب والنيل من سمعته عفو الخاطر ، ولكن كانت له أسباب وعلل أهمها شخص همنجواى نفسه .. فهو من ناحية كان فريسة لما أصاب من نجاح بعد نشر كتابه «وداعاً أيها السلاح» فى عام ١٩٢٩ . واختار همنجواى بعد هذا النجاح أن يتنصل من «وصمة» كونه اديباً .. ولكم أثار حفيظة قرائه والمعجبين به بالافراط فى استعمال استعارات مأخوذة من محيط الملاكمة او كرة المضرب .. ورفضه بان يظهر بمظهر الأديب ، إذ كان يؤثر أن يراه الناس صياداً للسمك او الوحوش ، أو ملاكما ، أو محبا لمصارعة الثيران

ولهمنجواى بعض العذر فى ذلك ... فالجمهور الأمريكى الذى عاصره لم يكن يرتاح من الناحية الاجتماعية لفكرة «رجل الأدب» .. ولعلنا نذكر أن تى.إس. إليوت ، وهنرى جيمز ، وهمنجواى نفسه ، آثروا الاقامة فى انجلترا او فى اوروبا او كوبا على الاقامة فى امريكا نفسها ... وكانت فكرة التخفى وراء قناع ما ، شائعة إذ ذاك ومثال ذلك باوند،وييتس ، وإليوت ... إلا ان ما اثار سخط الناس على همنجواى ، هو انه كان يرفض أن يظهر بمظهر الجد وانه كان يعادى الاتجاه العقلانى ... ولكنه على الرغم من هذه الالاعيب وذلك التظاهر ، كان كاتبا جديا مجيداً . والواجب ان لا تضلل حياته الخاصة بعض النقاد .. فهى خاصة به وحده .. خاصة بذكراه .. لا تعنينا .

علم نفسه الكتابة !

الذى يعنينا هو ادب همنجواى .. كتاباته .. حصاده الفنى .. وعندما تمر عاصفة النقد الموجه اليه فسيجد الناس انهم مدينون لهمنجواى بالكثير ... فلقد كان فى أغلب كتاباته كلاسيكيا كما كان له أثر بيرونى (نسبة لبيرون) رومانسى على معاصريه ، لم يظهر فى الأسلوب الأدبى فحسب ، وإنما تجلى كذلك فى الأسلوب العام والخاص .

ولقد تمكن همنجواى حتى قبل نشر كتابه «وداعاً أيها السلاح» من تعريف اسلوب للكلام ، بل اسلوب لحياة جيل كامل .. أسلوب استمر اثره على البعض الى يوم نشبت الحرب العالمية الثانية . وهمنجواى ، أكثر من غيره من رجال الأدب ، هو الذى قدم لشباب الثلاثينات ولجيل الحرب العالمية الثانية تعريفاً للحرب وحدد مكان الفرد فيها إن كان له ثمة مكان . ولسنا نتردد فى ان نقول إن همنجواى هو المسئول الأول عن تجرد اطراف النزاع فى الحرب العالمية الثانية من كل ملامح المثالية أو التأثر بالانفعالات . وكان أثر همنجواى اكثر انتشارا من اثر بيرون ، لأنه بلغ مكانة اسطورية ، فتأثر به حتى من لم يقرأ له ، وتعلم قراؤه ايام الحرب العالمية الثانية



البرتو مورافيـــا .. من الذين تأثروا بهمنجـــواي





د. هـ. لورانس .. هل أثر في كتاباته ؟



إليوت .. كان مثل همنجواي يفضل الإقامة في أوربا



أثناء الحرب العالمية الثانية استطاع همنجواي أن يعلم الناس كيف يعيشون مع الكوارث

كيف يعيشون مع الكوارث .. بل ومنهم من تعلم كيف يموت معها .. فكان همنجواي بذلك واحداً من قلة استطاعت أن تعلم الناس درساً مباشراً .

لم يعتمد أثر همنجواي على مادة كتاباته ولا محتواها .. فقد سبقه كثيرون بالكتابة فيما طرق من مواضيع مثل مصارعة الثيران ، والرياضة والحرب ، والطفولة ، والدين ، والحب ، والموت . ولكن لم يكن لأي منهم ما كان له من أثر على الناس ... وكان أثر همنجواي يكمن في أسلوبه فهو أول أمريكي منذ «مارك توين» غير لغة الأدب في أمريكا تغييراً جذرياً .. ولكنه للأسف أثار حفيظة الكثيرين لأنه كثيراً ما لمح الى أنه الوحيد بين الكتاب الذى علم نفسه الكتابة

ولقد شغل نقاد همنجواي أنفسهم لفترة طويلة بالبحث عن العوامل التى أثرت في أسلوبه .. ورددوا اسم «مارك توين» ، «شروود أندرسون» و «إرزا باوند» و «فورد مادكس» وغيرهم ... أما همنجواي نفسه فقد اعترف دون تـردد بدينه «لمارك توين» . ثم إنه عزز رأى القائلين بأنه تأثر بمن ذكرنا غير «مارك توين» لما بالغ وألح في انكار ونفى أثر هؤلاء الكتاب على أسلوبه . فالمفروض أن همنجواي استعار شخصيات الأميين البدائيين من «شروود أندرسون» الذى يمكن أن نلمح أثره جلياً في رواية «رجلى العجوز» .

فموضوع سباق الخيل والاستعانة بغلام كراوية ، وجو الغموض الذى يسود الرواية توحى جميعا بأثر «أندرسون» على همنجواي .. والمفروض كذلك أن همنجواي تعلم من «جرترود ستاين» طريقة بناء الجمل والعبارات التى تربطها «واو الوصل» ، بدلا من الاستعانة بالطريقة التقليدية . ويقال إن «ستاين» علمته صنعة تكرار بعض الكلمات والأفكار ... وأنها بالاشتراك مع «باوند» و «فورد» علمته كيف يستبعد كل ما هو غير ضرورى أو غير لازم وكيف يستغنى عن استعمال الصفة والظرف والحال .

أسلوب ذو ثلاث طبقات

وواجب كل من يريد تقييم أثر أسلوب همنجواي أن يدخل فى حسابه أن عديداً من صغار الكتاب قد قلدوه ، فلابد إذن من تقييم الأسلوب قبل أن يرخصه هؤلاء المقلدون . ويجب على من يريد التقييم أن يذكر أن همنجواي ، وإن كان قد تأثر بغيره ، فان أسلوبه كان أصيلا لا يشوبه أي تقليد ، وأن هذا الأسلوب يمكن أن يوصف على نحو ما تصف الجيولوجيا طبقات الأرض ، بأنه يتألف من ثلاث طبقات .. طبقة بكيرة ، وطبقة وسطى ، وطبقة متأخرة ، وإن كانت هذه الطبقات تتراكب حافاتها أحيانا .

أما أسلوب الطبقة البكيرة ، كما يتجلى فى «والشمس تشرق كذلك» فيتميز بقصر جمله التى تنطوى فى الغالب على إعلان حقيقة من الحقائق .. ويتميز بالبساطة وبعده عن اللاتينية .. وفيما عدا «رجلى العجوز» نجد أن قصص «فى عصرنا» تروى كلها بصيغة الغائب مع الاحتفاظ بسمة الموضوعية ، كما نجد الحوار فيها دراميا ساخراً فيه تكرار والتواء ...

ويضاف الى ما يتجسم امامنا من ذكاء همنجواي ، روح دعابته وبعده عن المبالغة ، ويقظته وانتباهه الى الحقائق وما فى الحياة وفى سلوك الناس من تنوع .. وعندما يبلغ أسلوب هذه الطبقة البكيرة ذروته ، نجد أنه يولد آثاراً عاطفية تفوق فى عمقها تلك الوسائل القليلة التى يعتمد عليها المؤلف فى كتاباته .. على أن هذا الأسلوب يتدهور وينحط أحياناً كما هى الحال فى «اليوم هو يوم الجمعة» فيصبح أسلوباً عاطفياً زائفاً .

وأما أسلوب الطبقة الوسطى من كتابات همنجواي فله ميزات أسلوب الطبقة البكيرة إلا أنه أكثر مرونة وأطول باعاً وأوسع مدى .. استعمل الكاتب فيه الجمل الشرطية والعبارات التبعية بدلا من الاعتماد على الجمل التى تربطها واو العطف .. وهذا هو أسلوب رواية «وداعاً أيها السلاح» ، وأحسن ما جاء بعدها من



علم نفسه الكتابة.. ثم أطلق على رأسه الرصاص!

قصص قصيرة مثل «حياة فرانسيس ماكوبر القصيرة السعيدة» .

وأسلوب الطبقه المتاخرة الذى نراه فى «الموت بعد الظهر» فهو على نقيض سابقه .. مبالغ فى زينته ، طويل الجمل ، أثقل فى سخريته ، يستعمل لغة المتكلم وتغوص ناحيته الخيالية فى رمزية مجردة من كل رشاقة ... ولكن كتابات هذه المرحلة لا تخلو من فقرات او صفحات ، أو حتى من فصول لا تقل جودة وحبكة عن افضل ماكتب فى المراحل السابقة التى تتميز بنقائها .

ويمكن تعليل نجاح أسلوب همنجواي وشعبية صنعته ، بانه قادر على أن يبرز خلاله ما يوهم القارىء بأن الأمور المعقدة التى تتعلق بالسلوك والضمير ، يمكن اختزالها الى عناصرها الأولية وترتيبها ثم السيطرة عليها . ويبدو أن همنجواى قد حذق هذه الطريقة واتقنها الى حد الكمال .

وحقيقة الأمر هي ان اسلوب همنجواى ، فى بعض نواحيه ، محدود معيب ، ولكن العيوب مستورة بمهارة ، والحدود تبدو وكانها مصادر قوة . واسلوب همنجواى أسلوب معاصر دون أن يكون محليا أو اقليميا . وفى ذلك ما يعلل نضرته وجاذبيته . وهمنجواى يعتمد ابدا على الذاكرة بدلا من الاعتماد على التاريخ .. فهو يصور دنيا الحاضر المتفتح ولا يرسم دنيا الماضى حتى وإن تجلت مظاهر الماضى فى قصصه .. استمع اليه يقول :

«وركب اربعتنا عربة مفتوحة الى سان سيرو . وكان اليوم جميلا ، وسارت العربة خلال المتنزه وعلى محاذاة خط الترام الى خارج المدينة حيث كان الطريق كثير الغبار .. ومررنا بعدد من الفيلات تحوطها أسوار من حديد وحدائق مشحونة بالشجر وحفر مليئة بالماء ينساب منها ، وحدائق فيها الخضر والتراب يعلو أوراق الشجر ....» .

وهنا نجد أن «واو» العطف الوصفية تخلق سلسلة من الصور المرئية الواضحة دون أن تستطيع تحقيق اكثر من ذلك .

وداعا أيها السلاح

ويؤخذ على همنجواى أن الرواة فى قصصه ، وخاصة «فريدرك هنرى» فى «وداعا أيها السلاح» ، غير عاديين ، أو قل إنهم أهل بطولة ، يرغمهم الكاتب على سرد قصص بطولاتهم فينتهل بذلك أخلاقهم لأن الأبطال يعزفون عادة عن التحدث عن اعمالهم البطولية . وكان همنجواى يدرك هذا العيب ويحاول التغلب على هذه الصعوبة بصبغ أعمال هذه الشخصيات بشىء من الفكاهة والميل الى عدم المبالغة ، ولكن ذلك لم يشفع لهم أو يخفف من امتعاض القارىء مما يتفاخرون به من علم لا تحده حدود وخبرة ثقيلة للغاية .. خذ مثل هنرى .. تجد أنه يعرف كل شيء عن السلاح وهو خبير بأنواع النبيذ والطعام ، يعرف المدن وفن العمارة والرسم واللغات والجراحة والتكتيك الحربي والاستراتيجية والخيل ، ويعرف حتى سواحل بحيرة ماجيورى .. ونتيجة ذلك ؟ موسوعة .. شخصية لا تطاق .. ولا تحتمل .. ومع ذلك نجد أن القارىء لا يبرم بهمنجواى نفسه .. لأنه يحتفظ بتعاطف القارىء بسبب اتقانه لفن الحوار .. فحوار همنجواى واقعى .. ورام .. يعكس رأيا أو أكثر عن موضوع بالذات او عن الحياة كلها .. وهو ملىء بالاشارات والايحاء والايماء والالتواء .. متأرجح فيه إيجاز وبلاغة غير البلاغة التقليدية المألوفة .

والآراء التى تجمع على مدح حوار همنجواى وإطرائه ، تختلف وتتضارب فيما يتعلق بالنواحى الأخرى من أدبه .. ومرجع هذا الخلاف والتضارب هو التخبط فى تحديد الهدف الذى يرمى إليه همنجواى ، أو تعريف ما كان يريد تحقيقه ، والمادة التى كان يريد تقديمها .

ولعل « ويندام لويس » نطق بلسان غيره من النقاد أو عبر عن آرائهم في مقال له بغيض عنوانه « الثور الأخرس : دراسة لأرنست همنجواى» سخر فيه من طريقة اختيار همنجواى لشخصياته ، لأنه اعتبرهم «مجردين من كل عزيمة» وانهم «سلبيون» وانهم «نهب للأحداث» .. وجاء بعده «جون بيل بشوب» وقال عن شخصيات همنجواى :

«ولأنهم مجردون من كل إرادة أو عزيمة دون أن يعوزهم الذكاء ، نجد أن رجال همنجواى ونساءه مجردون من كل كيان روحى . فدنياهم تعاصر الحرب وما اعقبها من فوضى واضطراب ، وهى دنيا مجردة من كل القيم «التقليدية»»..

ومن الواضح أن هذا التعليق صادر عن شخص صلف يحتقر نوعاً معيناً من الشخصيات ونوعاً خاصاً من الآدميين سواء أكانوا من الملاكمين أو من رجال العصابات أو الجنود أو مصارعي الثيران .. ولكن من ذا الذى يقول إن هؤلاء غير جديرين باهتمام الكتاب ؟

جوانب لاتخلو من الغرابة

ونعود إلى الوجه الثاني من نقد «ويندام لويس» وما ذهب إليه من أن شخصيات همنجواي مجردة من كل إرادة أو عزيمة ، ونقف لحظة عند شخصية « جيك بارنز » وهو بطل مسيحي يناهض معايير السلوك فى عصره ، ويقيس السلوك ويحكم عليه ، وهو موضع احترام الناس واعجابهم ، بل ومنهم من يتبعه ... وهذه الصفات ذاتها تتجلى بوضوح اكثر فى شخصية « فريدرك هنري » بطل « وداعا ايها السلاح » ... والحوار بينه وبين القس فى هذه الرواية يشير إلى إلمام تام بتعاليم المسيحية ، وهمنجواي يصور الحرب بطريقة تجعلها وحشية بشعة مجردة من كل انسانية ، وفرار هنرى من الجندية كان بمحض ارادته ، ولحرصه على الاحتفاظ باحترام نفسه .

ولسنا من بين من يقولون بان الناحية الدينية فى كيان همنجواي وتكوينه الأخلاقي كانت من بين العوامل التى جعلته كاتبا مجيداً .. ولكن هذه الناحية تعين على تفسير ما ظنه بعض النقاد قوة رمزية فى كتاباته ، وبيان انها فى الواقع قوة روحية شبه دينية ، وهى القوة التى تعينه على خلق ما نلمس فى كتاباته من بساطة وما لها من جاذبية عالمية .

ومن دواعي فخر همنجواي انه اول

أديب غير أسباني استطاع ان يدرك وان يسجل بما له من سلطة ونفوذ أدبي ، ان مصارعة الثيران ليست رياضة بدنية فى ذاتها ، ولا هي لعبة من ألعاب السيرك ، ولكنها فن أصيل خالص . واهم من ذلك ان همنجواي أدرك ما بين مصارعة الثيران وبين النثر الخيالي من علاقة ، فكتب عن المصارعة ما رآه بعين خياله ، فكان في كتابته مقنعا للغاية . ويعتبر كتابه « الموت بعد الظهر » دليلا يهدى القارىء إلى خبايا مصارعة الثيران ، ولقد وجد همنجواي بوصفه كاتبا يهتم بالحاضر دون الماضى ، فى مصارعـــة الثيران هدفاً يدعو لاهتمامه . فمصارعة الثران عادة طبيعية لكاتب يهتم بالناس وهم يواجهون مواقف بالغة التطرف تحت تهديد العنف ويرى كرامة الفرد وراحة نفسه حين يحسن الأداء وهو فى موقـف بالغ الخطورة .. وهو يرى أن مصارع الثيران كالكاتب ، يخلق كيانا لم يكن له وجود قبل أن يبدأ عمله .. وأنه يتمكن بما له من مواهب وقدرة على ضبط النفس ، من التحكم فى نفسه وأن يتحكم فى الثور عن هذا الطريق ، وبذا يجمع كل هذه العناصر .. طقوس المصارعة .. والثور .. وهو نفسه ، فى واقع جديد .

هناك ناحية من نواحى اثر همنجواى الأدبى لا تخلو من غرابة .. فالملاحظ هو ان همنجواى كان له كبير الأثر على الكثير من الكتاب الامريكيين غير النابهين ، بينما كان له اثر واضح فى كتابات عدد من كبار الكتاب الانجليز من امثال جريهام جرين وكرستوفر اشروود ، وعلى المؤلفات الأولى لألدس هكسلى .. واغرب من ذلك ، على دى . إيتش لورانس نفسه . وكان لهمنجواى فى فرنسا اثر على بريفوست وكامو وسارتر .. ويقال كذلك ان همنجواى هو المسئول عن البساطة النسبية التى تتميز بها كتابات بعض أدباء المانيا مثل وولف جانج وهيندرك بل ، ومولر وسجفريد سومر .. ولم ينج كتاب ايطاليا من أثر همنجواى الذى يظهر فى كتابات اليوفتورينى ، وجوزبى برتو والبرتو مورافيا .

ولن يفوتنا فى هذا المجال ان نشير إلى أثر همنجواى على الكاتب الفرنسى هنرى دى مونترلان حتى ان هذا الكاتب كان يلقب باسم همنجواى الفرنسى رغم انه كان يحتقر كل من يسميه بهذا الاسم .

● ● ●

إرنست ملر همنجواى ، هذا الروائي الامريكى ، كاتب القصص القصيرة ، والذى تميز باسلوب رائق بارع الايجاز ، ولد فى «اوك بارك» بولاية إيلينوى ، فى اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليه ١٨٩٩ .. ولم يتعد تعليمه المرحلة الثانوية ، ولكنه فاز بجائزة نوبل للأدب فى عام ١٩٥٤ .

بدا هذا الأديب حياته صحفيا صغيرا يراسل صحيفة «كانساس سيتى ستار» ، فلما نشبت الحرب العالمية الأولى التحق بوحدة الاسعاف من فرقة المشاة فى ايطاليا . وفى ليلة الثامن من شهر يوليه ١٩١٨ ، اصابته شظية من قنبلة قرب قرية بياف فى شمال ايطاليا وجرحته جرحا بليغا دون أن تقتله . وبعد فترة نقاهة فى ميلان ، عاد إلى مدينة شيكاغو يمارس الصحافة ثانية إلى أن أبحر إلى فرنسا يوم ٨ ديسمبر ١٩٢١ وعمل مراسلا من الخارج لصحيفة «تورنتو ستار» . وعاش بعد ذلك خمس سنوات فى شظف من العيش يمارس الصحافة فى فرنسا واسبانيا وسويسرا والمانيا واليونان .

فى عام ١٩٢٣ نشر همنجواى ثلاث قصص وعشر قصائد ، وفـي ١٩٢٤ صدرت فى باريس رواية «فى عصرنا» ، فكان ذلك مشجعا على نشرها فى نيويورك (١٩٢٥) وأصاب همنجواى اول نجاح لما نشرت له رواية «والشمس تشرق كذلك» فى عام ١٩٢٦ ، نشر بعدها مجموعتين من قصصه القصيرة رسخت بعدهما قدمه واحتل مكانته كاحد كبار الكتاب . اما الرواية التى اكدت سمعته كروائى من الصف الأول فهى «وداعا أيها السلاح» التى نشرت عام ١٩٢٩ وهى مأساة ضابط أمريكى وممرضة بريطانية وقعت أحداثها فى ايطاليا وسويسرا المحايدة اثناء الحرب .. وانصرف همنجواى بعد ذلك إلى الكتابة عن مصارعة الثيران « الموت بعد الظهر» (١٩٣٢) ، وقضى فى ذلك عشر سنوات .

فلما نشبت الحرب الأهلية فى اسبانيا اهتم همنجواى بامرها اهتماما شديدا وكتب فيها قصته المشهورة التى ظهرت على الشاشة البيضاء «لمن تدق الأجراس» (١٩٤٠) وتعتبر اعظم رواياته . وهى تروى قصة أمريكى متطوع ينضم إلى احدى العصابات وراء خطوط الثوار .. وتصور القصة كيف خذلت القوات الفاشية الشعب الاسبانى ، كما خذلته العناصر الرجعية فى اسبانيا نفسها .

ولقد اثنت اللجنة التى تقرر منح جائزة نوبل على فن همنجواى القوى وسيطرته على طريقة القصص الحديثة وقدرته النادرة على بناء هياكل من الرمزية الطبيعية .

ومات همنجواى ، الذى صمد للقنابل ، فى داره فى «كتشوم» بولاية «أيداهو» يوم ٢ يوليه ١٩٦١ من اثر جرح سببته رصاصة اطلقها على نفسه .. وخسر الأدب وخسرت القصة وخسرت الرواية بموته كاتبا فحلا .

جمال الكنانى

الدوس هكسلى .. الأثر واضـــح فى مؤلفاته الأولى



جراهام جرين .. كان اثر الأديب على كتـــاباته واضـــحا



وليم فوكنر .. يراه الكثيرون احق بالقمـــة





السكين على العنق .. حالة من حالات العنف ، تقوم بهـــا الممثلة « ايزابيل ادجاني » في فيلم امتلاك

ماتبقى من سينما عام ١٩٨١

شهادة على عصر دموي

بقلم : رءوف توفيق

لم يشهد العالم حالة من العنف والارهاب ، مثلما يحدث الآن ، فيما يشبه الاعصار الرهيب الذى يطحن كل شيء أمامه ! .

اصبح الرصاص هو اللغة السائدة .. والدم هو الطعام اليومي !!

ومنذ سنوات قليلة .. كانت حادثة عنف واحدة ، من الممكن ان تهز العالم من أقصاه إلى أقصاه ، وتسجلها وكالات الانباء على ان شيئا خطيرا قد حدث .!

أما الآن .. فان اليوم الذى يمر دون حادثة عنف .. يعتبر يوما فريدا !!

وامتد العنف من دائرة اللصوص والسفاحين فى جرائمهم المعروفة .. إلى دائـرة المعارضيـــن والمتطرفيـــن فى السياسة . !

وشمل العنف العالم كله ، وكأنه وباء سريع الانتشار !

وسجلت الشاشة العالمية هذا العنف .. بمزيد من العنف !

وتبارت الأفلام لتأكيد المعنى الدموى!

وقد كانت كل الظواهر السينمائية ، تشير خلال الاعوام الماضية ، إلى أن ظاهرة العنف فى الأفلام ، تنمو وتتسع بطريقة سرطانية .. وكانت التوقعات أيامها تتنبأ بأن هذه النوعية من الأفلام لن يستمر الحماس لها ـ من المشاهدين



الصورة العليا .. لقطة من الفيلم البولندى « رجل من حديد » حيث يقوم احد الممثلين بدور زعيم العمال اثناء توقيع الاتفاقية مع الحكومة .. والصورة السفلى لنفس اللقطة .. ولكن فى الحقيقة وكما حدثت بالفعل



وبالتالي من المنتجين ... وانها مجرد موجة لاتلبث وان تاخذ مداها وتنتهي .. ولهذا أسرعوا وتنافسوا فى انتاج الأفلام المليئة بالعنف ، حتى يستفيدوا منها اقصى استفادة !

ولكن الموجة لم تنته .. بل ازدادت واخذت اشكالا مختلفة .. لا لسبب إلا ان الواقع اليومي لأحداث العالم اصبح واقعا اكثر عنفا وشراسة !

وهكذا استمد صناع السينما مبرر الاستمرار لأفلام العنف .

البعض يحاول أن يحلل ما جرى للعالم بهدوء وحكمة .. والبعض يستفيد من دم الواقع ، ليسفك مزيداً من الدماء على الشاشة فى تلذذ غريب ، وهوس شاذ ، اقرب ما يكون إلى المرض النفسي !

وبجانب أفلام العنف .. ظهرت افلام تعكس حالة الضياع والتمزق الحاد عند الشباب ...

وافلام اخرى من داخل المناطق الملتهبة فى العالم ، تدلي بشهادتها حول ما يجري فى بلادها !

وهكذا .. فان المتأمل لخريطة السينما فى عام ٨١ .. يكتشف انه امام خريطة اجتماعية وسياسية ــ متفاوتة التعبير ــ عن نبض ايام مشحونة بالقلق والتوتر ! فى الأسابيع الأخيرة من عام ٨١ ..





المسدس فى اليد دائما .. فى الفيلم الامريكى « شوارع العنف »

بدأ عرض فيلم «المزيف» للمخرج الالمانى العبقرى «فولكر شلندروف» الذى أذهل العالم بفيلمه السابق «الطبلة» .

هاهو يقود ابطال فيلمه الجديد «المزيف» داخل بيروت التى هدمتها الحرب الأهلية .. من خلال قصة هذا الصحفى الالمانى الذى يعتبر من أحسن المحققين الصحفيين فى المانيا (يلعب الدور الممثل الالمانى برونو جانز) والذى جاءته فرصة السفر لتغطية الحرب اللبنانية .. فيترك زوجته وحياته الجافة الباردة ، ليلقى بنفسه داخل بيروت .. وتتحول عينا رأسه الى كاميرا دقيقة ومراقبة لكل ما يجرى فى الشوارع ، وبين الحواجز والمتاريس ، وخلف الجدران المهدمة .. ويكتشف أن الحياة تنمو جنباً الى جنب مع الموت والخراب .. فالأطفال يذهبون الى مدارسهم والشوارع تنبض بالحياة العادية .. بينما القناصة فى الأطراف المتحاربة ، يتبادلون الرصاص والقتل والدمار ! ويقع الصحفى فى علاقة عاطفية مع امرأة متزوجة .. ويحاول أن يكتشف حقيقة ما يجرى فى داخله .. وأيضا ما يجرى على أرض المعركة فى لبنان ..

ويكتب مقالا عن الزيف الذى أصبح حقيقة يومية ، يتعامل معها الناس وكأنها هى الحقيقة الأصلية . فما يراه بين أطراف القتال فى لبنان ، انهم يحاربون بتناسق وطبيعية تدعو للحيرة والدهشة .. فهم يرتدون نفس الأقنعة ، ويستخدمون نفس الأسلحة ، وفى جميع الأحوال يستخدمون نفس أساليب العنف .. فعندما تقع مذبحة فى إحدى المعسكرات ، يكون رد الفعل .. هو مذبحة بنفس الشكل والأسلوب فى المعسكر المعادى .. وهذا النموذج ــ كما يقول الصحفى ــ يصور حالة الزيف فى هذه الحرب . !

وعندما ينشر الصحفى مقاله .. تثور حوله الاعتراضات ويتهمونه بالكذب والخداع .. ولكنه يدافع عن نفسه وعن منطقه ، وكيف أن مايراه هو مزيفا ، يراه الآخرون على انها الحقيقة .. ويقول :

« إن ما يثير ضيقى وحزنى ليست هى الحياة التى أحياها .. ذلك لأنى مازلت غير قادر على استيعابها .. رغم اعتقادى القوى بأن هذه الحياة المزيفة هى الحياة الحقيقة » . !

وهكذا يربط المخرج الالمانى «شولندورف» بين التمزق الداخلى لهذا الانسان .. والتمزق الداخلى فى لبنان .

وهذه النظرة الفلسفية يطرحها الفيلم من داخل بانوراما هائلة ومليئة بالتفاصيل عن الحياة والموت فى لبنان .. أو بمعنى أدق عن الحياة والموت فى هذا العالم التعس !

ايطاليا والارهاب

ومن داخل ايطاليا .. قدم لنا اثنان من اكبر مخرجى السينما الايطالية .. فيلمين عن الارهاب ومنظمات القتل والخطف التى ترفع شعارات سياسية .. وهى

الظاهرة التى تنوء ايطاليا بآلامها ومآسيها اليومية المتكررة فى شراسة !

المخرج الايطالى المرموق «فرانشيسكو روزى» يقدم فيلم «الأخوة الثلاثة» ليحكى ٢٤ ساعة فى حياة اسرة بجنوب ايطاليا ، تفرق أبناؤها كل واحد فى مهنة ، وكل واحد فى بلد .. وكل واحد فى مشكلته :

الابن القاضى مع مشكلة الارهاب .. يحقق قضاياه .ويطاردونه بالاغتيال اذا استمر فى نظر هذه القضايا !

الابن العامل ومشكلته مع ادارة المصنع .. وحيث لا يجد وسيلة للاحتجاج سوى الاضرابات والعنف .. ولكن لا يدرى متى يتحقق الهدف سريعاً .

الابن الثالث .. المدرس فى اصلاحية الأحداث ، والذى تشغله فكرة ان العالم لكى يتم انقاذه ، يجب ان يبحث عن إلهام روحى ، وقلب جديد وإلا جاء السقوط مدويا ورهيبا !

هؤلاء الأبناء الثلاثة (الذين يمثلون مشاكل ايطاليا المثارة حاليا) يجتمعون فى بيت العائلة ، تلبية لبرقية وصلتهم من والدهم العجوز (لعب الدور الممثل البارع شارلز فانيل) يبلغهم فيها بوفاة أمهم .. وها هم يلتقون معاً بعد غيبة طويلة .. وفى البيت الذى شهد طفولتهم وصباهم .. ومع جثمان الأم التى كانت تمثل لهم الحب والحنان .. كل منهم الآن يحكى مشكلته ويفضفض عن همومه .. حتى تأتى لحظة الوداع ، وتشييع جثمان الأم .. لينفجر كل منهم فى بكاء مرير ..

إنهم فى الحقيقة يبكون أمهم .. ويبكون أيضا أنفسهم !

ويعود الأخوة الثلاثة إلى دنياهم .. وهمومهم .. بعد ان استخلص المخرج من خلالهم ـ وباسلوب فني يشع بالعذوبة والانسانية والجمال ـ اهم القضايا التى تشغل ايطاليا اليوم .. وربما اخطرها قضية الارهاب .. حتى انه يكاد يكون اول مخرج ايطالي يجرؤ على طرح هذا الموضوع الملتهب للنقاش !! .

وعندما سالوه فى حوار صحفي : لماذا تاخر كثيراً فى اثارة هذا الموضوع .. بينما الارهاب يعشش فى ايطاليا منذ اكثر من عشر سنوات.؟!

أجاب المخرج « فرانشيسكو روزى » بمرارة واضحة :

« هل تظنون انه من السهل صنع فيلم عن ماساة الارهاب .. ؟! .. لقد فكرت فى هذا طويلا .. ودائماً ماكنت اشعر بان هناك شيئاً ناقصاً .. وقد كان من الممكن ان اصنع هذه الافلام من وجهة نظر المشاهدين .. ولكن لكي اقول لهم ماذا ؟ .. كيف يمكنني ان احكي قصصاً للجمهور .. بينما انا شخصياً لا افهم قواعد اللعبة الدائرة..؟!

مأساة رجل احمق

ومن ايطاليا ايضا .. يقدم المخرج «برناردو برتولوتشي» فيلما عن جانب آخر من القلق الذى تعيشه ايطاليا حالياً .. وهو الاختطاف والمطالبة بفدية كبيرة .. والضحية هنا فى قصة الفيلم .. رجل من الطبقة المتوسطة استطاع بجهده ان يبنى مصنعا لمنتجات الالبان ، وان يعيش حياة مترفة .. وهذا الرجل له ابن وحيد ، ويفاجأ باختطافه عن طريق منظمة تسعى للحصول على الأموال لزيادة مواردها وتدعيم خططها .

ويعكس الفيلم ماجرى للأب (اوجو تونيازى) والأم (انوك ايميه) وحالة الرعب والقلق التى انتابتهما .. وكيف بدا الأب يرهن المصنع ويبيع ما يستطيع منه ، لكي يجمع النقود المطلوبة كفدية لابنه المخطوف .. ويعود الابن ، لنكتشف أنه عضو فى هذه المنظمة وانه مشترك معهم فى هذه اللعبة السخيفة !

ويقدم لنا المخرج حالة الفوضى والارتباك الفكرى والاخلاقى بين اعضاء تلك المنظمة وكلهم من الشباب .. فى محاولة لإدانة هذا الاسلوب الذى تفشى فى ايطاليـا .

ورغم ان الفيلم لم يات على المستوى المأمول من المخرج «برتولوتشي» .. إلا انه تجرأ ودخل المنطقة المحظـورة ، ليتحدث عن الإرهاب .. ويحصل الممثل « اوجو تونيازى » على جائزة احسن ممثل فى مهرجان كان ٨١ .

شباب اوربا والأزمة

وعن الضغوط التى يعاني منها الشباب الأوربي .. قدم المخرج الانجليزى (كين لواش) فيلم « نظرات وابتسامات » عن مشكلة البطالة فى انجلترا من خلال قصة شابين احدهما التحق بالجيش هرباً من البطالة .. والآخر حاول أن يعمل فى اية وظيفة ولم يستطع .. واصبح عليه إما أن يقف فى طابور الحصول على اعانة بطالة .. أو أن يلتحق بالجيش ، وهذا ما لايحبه ! .. ولكن هل هناك اختيار فى ظل هذه الظروف الاجتماعية الشديدة القسوة ، والتى يعرضها الفيلم بجراة وصدق .

يقول المخرج الانجليزى «كين لواش» عن شخصيات فيلمه :

« انهم شباب فى عمر ١٧ .. كلهم حيوية وحماس وتفاؤل .. إنهم نتاج مجتمع غربي صناعي .. ولديهم الكثير ليقدموه للعالم .. ولكن ماذا لدى العالم ليقدمه لهم » . !

● ومن المانيا الاتحادية .. ياتي فيلم « مدينة الياس » كاول فيلم يخرجه الممثل الألماني « قاديم جلوفنا » ليقدم ماساة الشباب فى مدينة المانية .. حيث لا امل .. ولا مستقبل .. ولا طريق للهروب .. وهناك حلم يترنح بين الحين والآخر بين بطلي الفيلم وهما شاب وفتاة فى العشرينات ، إنه ربما تكون هناك فرصة للهجرة إلى امريكا .. ولكن يتبدد الحلم .. فليس هناك مكان فاضل يستطيع أن يقدم الحب والفهم للشباب.

والفيلم ليس به قصة لها بداية ونهاية .. ولكنه صرخة مستمرة ، ورحلة معاناة مع بطلي الفيلم وهما يحاولان أن يجدا مبرراً للحياة .. فكل ما حولهما يلفظهما ، ويطاردهما .. الأهل يفرضون عليهما اسلوبا لا يقبلاه .. والعمل يضعهما فى قوالب يرفضانها .. والمدينة تلتهم كل شيء بسرعة .. ولا تدع فرصة للتامل والخلاص .. وفى النهاية ياتى الضياع والتمزق واليأس .. ويصبح الحب مستحيلا ! .

● ومن المانيا الاتحادية ايضاً .. ياتي فيلم « كريستيان . ف . » من اخراج «ايرلش ايدل » ليتقل على الشاشة قصة حقيقية نشرتها فى مسلسل مجلة «شتيرن» الألمانية .. عن اعترافات فتاة



بعض افراد منظمة الاختطاف فى فيلم « ماساة رجل احمق » .



حوار حول الارهاب بين القاضى وأخيه العامل فى فيلم « الأخوة الثلاث »



القناصة فى بيروت .. لقطة من فيلم المزيف

الضياع والتمزق كما تجسده هذه الالمانية فى فيلم « مدينة اليأس » .

بدأت تدخل عالم المخدرات فى سن ١٢ عاما .. ثم أدمنت وانحرفت لتنفق على شراء المخدرات !!

وأبشع ما يقدمه هذا الفيلم هو رؤية طفلة تفقد أجمل سنوات البراءة والنقاء، نتيجة ظروف عائلية مرتبكة .. وفى مجتمع لا يرحم .. وبين جموع مراهقين وشباب لا عزاء لهم إلا المخدرات . !!

رجل من حديد

ومن واقع حركة العمال فى بولندا .. التى كانت ، ومازالت ، تشغل اهتمام العالم كله .. يقدم أكبر مخرجي السينما البولندية « أندريه فايدا » فيلمه « رجل من حديد » ليصبح هذا الفيلم أحد أهم أفلام عام ١٩٨١م .. وليسجل على خريطة السينما العالمية .. يقظة وجراة السينما البولندية التى قدمت خلال عام ٨١ عددا من الأفلام الهامة عن جذور الاحتجاج والمقاومة فى تاريخ بولندا .

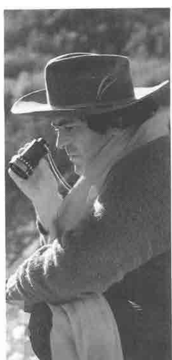
وفيلم « رجل من حديد » يعود إلى بدايات احتكاك العمال مع السلطة البولندية منذ أحداث ٦٨ ثم صدامات عام ٧٠ وعام ٧٦ .. لتتوج فى النهاية ، باتحاد العمال فى حركة التضامن عام ١٩٨٠م .

والمخرج « فايدا » يؤكد فى فيلمه .. على أن حركة العمال ، حركة وطنية ، وأن شهداء معارك العمال مع السلطة طوال هذه الأعوام .. كانوا بمثابة القوة الملهمة للاستمرار والصلابة .

وأثار الفيلم اهتماما عالميا بالغا .. وقد علق المخرج « فايدا » على التساؤلات التى ترددت حول مدى الاستفادة بالحقائق الكاملة لما حدث فى بولندا ، أثناء اخراج هذا الفيلم « ؟ » .

قال المخرج بتواضع شديد وثقة :

« أعتقد أن الانسان لا يستطيع أن يقدم الحقيقة كاملة فى اي عمل يعتمد على الفن .. فهي مسالة احداث او وقائع تاريخية .. نستخدم فيها الصور والوثائق والاعترافات والأدلة .. وبفضل كل تلك المصادر نستطيع الاقتراب من الحقيقة .. وقد ركزت كل جهدى فى ذلك الاتجاه .. وبقدر المستطاع استخدمنا صورا فوتوغرافية للوثائق الأصلية والأفلام والشرائط المسجلة ، بالاضافة إلى اننا كنا مبهورين بهذه الشخصيات الأصيلة الصادقة ، التى صنعت







المخرج « براتولوتشى » والممثلة « انوك ايميه » والممثل « اوجو توجمازى » وفيلم « ماساة رجل احمق » .

الأحداث وخلدها التاريخ .. وكل ما صنعناه أننا حاولنا اعادة تقديم هذه الشخصيات » . !

وثيقة فنية خطيرة

وشهد عام ٨١ .. وثيقة فنية خطيرة .. سجلها المخرج الأمريكي الكبير « جون هيستون » عام ١٩٤٥ .. وظلت هذه الوثيقة موقوفة عن العرض منذ ذلك التاريخ ، بامر من وزارة الدفاع الأمريكية .. حتى تم الافراج عنها فى بداية ٨١ ..

وهذه الوثيقة الفنية .. عبارة عن فيلم تسجيلي مدته ساعة بعنوان « ليكن هناك ضوء » .. اخرجه جون هيستون من خلال المستشفيات الأمريكية العسكرية والتى استقبلت الجنود الأمريكيين الذين اشتركوا فى الحرب العالمية الثانية ، وأصابتهم الحرب بصدمات نفسية وعصبية عنيفة .

والفيلم يتابع دخول نماذج من هؤلاء الجنود ، بداية من الفحص الطبي لاقرار مدى الاصابة ، ونهاية بعودتهم إلى حالتهم الطبيعية . !

وبراعة ذلك الفيلم ـ وقسوته ايضاً ـ انه يقدم الحقيقة الكاملة الرهيبة على بشاعة الحرب ومافعلته فى هؤلاء الجنود

الذين فقدوا النطق والسمع .. أو اصابت أجسادهم ارتعاشة دائمة .. أو عدم القدرة على الحركة .. أو النوم .. واحساسهم الدائم بالفزع .

ويعتمد الفيلم على مادة واقعية تنبض فى كل لحظة من مدة عرض الفيلم بهذه الآلام الانسانية المروعة ، والعذابات التى تفصح عنها عيون الجنود والتى استطاعت كاميرات دقيقة موضوعة فى زوايا مدروسة بعناية شديدة ، أن تلتقط ادق التفاصيل والمشاعر .. ليؤكد بها المخرج العبقري ، نداءه الذى اختاره عنوانا للفيلم « ليكن هناك ضوء » !

إن مئات الأفلام التى شهدتها دور العرض خلال عام ٨١ .. وهذه الأنهار المتدفقة من الدم ، على شاشات السينما .. وهذه العواصف المدوية بطلقات الرصاص ، والصراخ والأنين ، والتى جسدتها مكبرات الصوت ..

هذا المخزون الهائل من الألم .. والخوف .. والضياع ..

هذا الايقاع المجنون للحياة .. وسقوط القيم والأخلاق .. وتبدد الأحلام والآمال .. ليس إلا شهادة سينمائية حزينة على عصر مرتبك .. دموى ..

وقراءة سريعة لأهم الأحداث الواقعية التى شغلت العالم فى ٨١ .. تجعلنا نقول إن السينما العالمية لم تبالغ فى شهادتها .. بل لم تقل كل الحقيقة !

ويبقى الأمل فى عام جديد .. اكثر استقرارا وهدوءا ..

وافلام جديدة .. اقل عنفاً ومرارة ! .

رءوف توفيـــق

حركة العاصفة والاندفاع في الأدب الألماني

بقلم الدكتور عدنان رشيد

● يتميز الأدب الألماني بملامح خاصة وفريدة تميزه عن الآداب الاوربية الاخرى وذلك لتاريخه الحافل بالكفاح المرير الذي خاضه هذا الأدب والمراحل التي تمخض عنها حتى استطاع في منتصف القرن الثامن عشر وضع اللبنات الأولى لصرح الأدب القومي في المانيا ●

تعتبر حركة العاصفة والاندفاع ثورة ادبية عصفت بالكتاب الشباب عام ١٧٧٠ ، وكان هدفها تقويض الاقطاع واطلاق الحرية الفكرية للكتاب والمفكرين وتحقيق التحرر السياسي والاقتصادي للطبقة البرجوازية لكي تاخذ مكانها في مسيرة التطور وتحل محل الاقطاع .

وقد طالب الكتاب في هذه المرحلة بالتحرر من التبعية الاقتصادية للاقطاعيين الذين كانوا يرتبطون بعلاقات قوية مع الكنيسة كما طالب الكتاب الشباب في كتاباتهم بالتحرر من سيطرة الكنيسة على الحياة الفكرية ، وقد وصل هذا التطور ذروته عام ١٧٥٠ عندما ظهر كلوبشتوك ولسنغ .

عكس كلوبشتوك في قصائده التي نشرها انذاك الروح العاطفية التي تعبر عن القلب الانساني ومشاعر الحرية والصداقة وحب الطبيعة والوطن .

وأعلن لاول مرة بان المسيحية جزء من المشاعر النفسية ، كما أن الشاعر لم يعد بعد الآن مجرد واعظ للمثل الاخلاقية .

كلوبشتوك لم يجد في المانيا جمهوراً يتفهم افكاره وكان لسنغ في ذلك الوقت احد دعاة التحرر من سيطرة الكنيسة ونادى بشعارات وطنية تنطوي على مفاهيم ومثل اخلاقية وتقدمية .

إن العاصفة والاندفاع مدينة في نشاتها وتطورها الى المفكرين الانجليز والفرنسيين لاسيما فيما يخص المشاكل التي عالجوها،منها الاهتمام بالشعر الشعبي والأدب القومي .

وقد حدثت في انجلترا ثورة هزت المجتمع واعترفت بمبادىء العقل والحكمة . وقد اثر هوم وغيره من مفكري عصر التنوير الانجليزي وكذلك فولتير وروسو وغيره من مفكري عصر التنوير الفرنسي على مسار حركة العاصفة والاندفاع وعلى تفكير ممثليها مثل هردر ، وجوته ولنز وهامان وفاكنر ومالر مولر .

كان تاثير الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو كبيراً على ممثلي حركة العاصفة والاندفاع لاسيما في دعوته «العودة الى الطبيعة» والتخلي عن الحضارة الشكلية التي افسدت اخلاق الانسان .

وقد اثارت مؤلفات روسو عام ١٧٥٠ ضجة كبيرة بين اوساط المفكرين الالمان انذاك .

وادركت البورجوازية الالمانية المغزى البعيد لدعوة روسو في العودة الى الطبيعة في اقامة مجتمع متحرر ويعتمد على اساس العقل وان يتحرر من السيطرة الاقطاعية ، اما الطبيعة فكانت تعني عند روسو مناهضة الاقطاع واشاعة العدل الاجتماعي .

لقد دعت العاصفة والاندفاع الى ضرورة إضفاء الطابع الالماني على الادب والفن وعدم الاعتماد على التاثير الفرنسي والانجليزي كما استهدفت دعوة ممثلي العاصفة والاندفاع نسف مصالح الاقطاعيين الذين كانوا يحكمون المانيا من خلال دويلات صغيرة لم يكن يوجد ما يشابهها في اوربا . وكان يوجد في قصور هؤلاء اجانب من دول عديدة لم تربطهم اية رابطة قومية مع القومية الالمانية او مصلحتها العامة ، وكان هؤلاء يعادون بتصرفاتهم المصالح الوطنية الالمانية . ومن هنا ارتفع صوت المفكرين والكتاب الى ضرورة تطهير قصور الاقطاعيين من الاجانب كما طالب جيل العاصفة والاندفاع بضرورة المحافظة على حقوق الامة وعدم التفريط بها ، حيث كان الحكام الاقطاعيون يبيعون الجنود الالمان الى انجلترا لاستخدامهم في قمع حرب الاستقلال الامريكية وثورتها ضد الاستعمار البريطاني ، كما كان قيصر المانيا فريدريش الكبير لا يتكلم في قصره سوى الفرنسية وكان يقول .. «إنني لا اتكلم الالمانية سوى مع خيولي»

لقد اعارت حركة العاصفة والاندفاع للشخصية الالمانية اهمية كبيرة واصبح المواطن يطالب بالتكافؤ والمساواة في الحقوق ومنح مطلق الحرية لتطوير شخصيته دون قيود او حواجز اقتصادية وسياسية واجتماعية . وتعني الشخصية هنا تطوير العبقرية الالمانية وازدهارها في جو من الحرية والتشجيع ولذلك اطلق الكتاب على هذا العصر بعصر العبقرية .

ولاجل ازدهار هذه العبقرية لابد من وجود أرض صلبة تنطلق منها هذه العبقرية ، لذلك استهدف كفاح ممثلي العاصفة والاندفاع تطوير ورعاية الشعر والمسرحية الالمانية والاعتماد على قابليات الالمان الاصيلة. ان الانسان العبقري في مفهوم العاصفة والاندفاع هو ذلك الفنان العبقري الفريد في عمله ولا يهاب الصعاب ولا يخشى التقاليد ، وينطلق في عمله الفني من مصلحة الجماهير وان ينتج فناً يفهمه الشعب

لقد اتسم عصر التنوير بالحكمة والتعقل ، أما عصر العاصفة والاندفاع فقد اطلق العنان للعواطف والمشاعر الانسانية دون حدود او قيود وقد انعكس ذلك في رواية الام فرتر لجوته التي صدرت عام ١٧٧٤ والتي جسدت المشاعر والعواطف الشخصية .

وقد ادت المقاومة الاجتماعية ضد ادب القصور والصالونات الى التخلي عن القيود الجمالية . وكان الكاتب الانجليزي ادوارد يونغ قد نشر بعض الافكار عن الاعمال الاصيلة وترجم هذا العمل الى الالمانية عام ١٧٦٠ ودعا فيه الى



جوته « ١٧٤٩ ـ ١٨٣٢ »

تحرير العبقرية من جميع القيود .

وقد وصف يونغ فى كتابه ، هومير وشكسبير بالسذاجة لانهما كانا يتخذان من الطبيعة نموذجا لفنهما ، كما ان شكسبير لم يكن يعرف القيود والأصول الكلاسيكية ، ولكنه كان مترجما لطبيعة اخلاق البشر .

وعندما قرأ جوته شكسبير لأول مرة قال عنه : «لقد عرفته واحسست بعبقريته بكل احاسيسى ومشاعرى وادركت ابعاده اللانهائية ، ولا توجد اصالة اكثر من اصالة شكسبير فى تشريح شخصياته على طبيعتها . اما مسرح شكسبير فهو خير مكان لتوضيح وكشف خفايا العالم أمام انظارنا» . [.

وقد اهتم كتاب العاصفة والاندفاع بالاغانى الشعبية القديمة وجمع جوته فى شتراسبورغ عددا منها بتشجيع من هردر . لقد تاثر كتاب العاصفة والاندفاع بالكتاب الانجليز الذين سبقوهم بالاهتمام بالشعر الشعبى . وقد اكتشف الشاعر الانجليزى ماكفرسون عددا من الاغانى الشعبية الايرلندية ونشرها تحت اسم اوسيان ما بين عام ١٧٦٠ وعام ١٧٦٥ .

وقد أشاد هردر بالشعر الشعبى وقال انه يمثل الأصالة لأنه ينبع من نفس سليمة ومشاعر صادقة وليس فيه أى تزويق او رتوش عاطفية مصطنعة . وعلى هذا الأساس أكد هردر على ان الشعر أسبق الى الظهور من النثر ، لأن الشعر يصدر عن خلجات النفس ولا يحتاج الى دراسة واتقان كما هو الحال فى النثر .

وقف هردر ضد مفهوم الجمال القديم وطالب بتوسيعه لكى يستوعب ما اطلق جوته عليه بالشعر الشعبى المميز .

واشار هردر الى ان هذه الأشعار تتميز بالخيال والروعة والدلالة الواقعية وقد نشأت



شيللر « ١٧٥٩ ـ ١٨٠٥ »

اغلبها تحت تاثير الحماس المباشر وقوة التخيل.

وصف جوته لغة الشعر الشعبى بانها ليست فقط وسيلة تبليغ فحسب ، بل وسيلة تعبير ايضا . وكما قال هردر عن الشعر مستندا على قول هامان : «إن الشعر هو لغة الام للجنس البشرى»

وقد اشار الى ذلك ايضا الكاتب الالمانى بوركر الذى ينتمى الى مرحلة العاصفة والاندفاع بان الشعر الشعبى اعلى مرحلة فى سلم الادب .

لقد انعكس تاثير الشعر الشعبى فى كثير من مؤلفات ممثلى العاصفة والاندفاع ، فقد قام هردر بترجمة بعض الاغانى الشرقية للشعوب السامية ، ونشر بحثا عن اغانى سالمون عن الحب .

كما اشاد جوته فى روايته العاطفية «الام فرتر» بالشعر الشعبى وقاله انه الاصالة وان الحب الريفى هو الحب الأصيل والنقى . وتجدر الاشارة الى ان العاطفة طغت على ادب هؤلاء واعتبروا مغامرات الحب جزءا من الحياة باسرها وقد صدرت انذاك اشعار وروايات ينتهى فيها الحب الى نهاية مفجعة بسبب التقاليد السائدة .

ففى رواية «الام فرتر» لجوته يفشل البطل فى الظفر بمحبوبته ويؤدى به ذلك الى الانتحار ، رغم ان انتحار فرتر كان احتجاجا سلبيا ضد الانظمة الاجتماعية انذاك . وقد أدت هذه النهاية المأساوية للرواية الى انتحار عدد من الفتيات فى مدينة فايمار وغيرها تضامنا مع البطل ، وقد انتقد جوته هذه الموجة من الانتحارات وقال ان القراء لم يفهموا المغزى الحقيقى لانتحار فرتر .

ويعتبر فريدريش شلر خير من مثل العاصفة والاندفاع فى مسرحيته «كيد وحب» التى صور فيها كيد الاقطاعيين ضد فتاة تحب مواطنا من طبقة النبلاء لاحباط هذا الحب .

كما انعكست افكار العاصفة والاندفاع فى أعمال لنز الذى نشر مسرحيتين هما « الجنود» و «المعلم الخاص» .

كما تجسدت افكار العاصفة والاندفاع فى الصراع الذى صوره لنا جوته فى مسرحية فاوست حيث يحطم فيه فاوست صديقته كريتشن التى تتميز بالبراءة الطفولية فيتعاطف جوته معها وينتصر لتلك البراءة .

وتعانى كريتشن صعوبة فى التحرر من اخلاق وتقاليد المجتمع الاقطاعى انذاك فتمنح الرجل الذى تحبه كل عواطفها ، الامر الذى يؤدى الى جحود المجتمع عليها وتضحيتها باخيها فى سبيل ذلك ، كما انها تقتل طفلها جراء اليأس

إن جميع هذه الصراعات مؤشرات واضحة لمساوىء المجتمع الاقطاعى بجميع أخلاقياته

وقد طرق جوته هذا الموضوع ايضا فى مسرحية «اكمونت» حيث تعلن الفتاة المنحدرة من أوساط الشعب حبها للنبيل اكمونت وتصبح بطلة التحرر .

وفى خضم هذا النقد الحاد للاقطاع نشر شلر مسرحية «اللصوص» التى صور فيها كارل مور الذى ينتمى الى طبقة النبلاء ويقوم بسرقة الاغنياء والاقطاعيين بغية نصرة الفقراء معلنا سخطه على النظم الاقطاعية البالية وقد حدث مثل ذلك فى انجلترا بقيادة روبن هود وكذلك فى العراق اثناء ثورة القرامطة فى القرن الثالث الهجرى حيث كان العيارون يسلبون أموال الاغنياء ويوزعونها على الفقراء .

ويعلن فى المسرحية النبيل فرديناند الهجوم على الاخلاق والمثل الاقطاعية السائدة فى المانيا وكذلك سخطه على استرقاق الجنود وبيعهم لانجلترا وهولندا لاستخدامهم فى الحروب الاستعمارية .

إن نداء بوزا فى مسرحية اللصوص لشلر لازالة الاقطاع لم يؤد الى نجاح الدعوة ضد النظام السائد انذاك ، فهو يموت كما مات دون كارلوس ضحية الحرية من اجل الشعب ، ولكن صيحاتهم ظلت مدوية فى ضمير الشعب وساعدت على التحرر السياسى والاجتماعى فى المانيا فيما بعد .

وكما حارب اكمونت وضحى من اجل حرية شعب الأراضى المنخفضة ضد السيطرة الاسبانية فى القرن السابع عشر ، نجد ابطال العاصفة والاندفاع ينهون حياتهم بنهايات ماساوية رومانتيكية كرد فعل للاوضاع الشاذة فى المانيا فى القرن الثامن عشر .

وقد كان تاثير اعمال ممثلى العاصفة والاندفاع كبيرا خارج حدود المانيا ، وليس مستغربا ان تمنح الثورة الفرنسية عام ١٧٩٢ الشاعر شلر وسام البطولة تقديرا لمسرحية «اللصوص» التى الهبت مشاعر الشعب الفرنسى ضد الاقطاع وأسهمت فى الأعمال الأخرى الفرنسية والالمانية والانجليزية ، فى اشعال جذوة الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ .

د. عدنان رشيد ـ جامعة الرياض



قصـــــة قصـــــيرة

عيناها والصّبر

بقـــام : فـــاروق منـــيب

أخذ يعد الأيام ويفكر فيها . يوم أسود ويوم أبيض . ولما انتهى وجد انه خسر نصف دقيقة واحدة من عمره الطويل . كانت عندما أشار إليه الملك أن يقول في مدحه بيتاً واحداً من الشعر . حك جلد رأسه يعصره .. وضاعت الفرصة فى لمح البصر . لو طاوعته قريحته على الفور لتغير مسار حياته كله . ياله من انسان غبي وبليد وخامل البصيرة . بدل أن يمطر عليه الخير ، قيدوه بالسلاسل والحديد ، ورموه فى السجن ، حتى كاد يتعفن من النسيان . وفى الزنزانة الضيقة كان يتذكر كل اللحظات التى مرت به ، حلوها ومرها على السواء . وكان قد تعود على هذه العادة السيئة ، فاهمل الحاضر والمستقبل . وقال لنفسه : درجت على الحمق وصلابة الرأس منذ طفولتك الباكرة ، فتربصت بك عصابة الأصدقاء أشبعوك ضرباً وقهراً . وها هي الأيام تعود . فيم كنت تفكر ... قاموس اللغة فياض ، وبحور الشعـر وقوافيه بين أصابعك ، تلعـب بهـا كما تشـاء يأخيبتك الثقيلة . وضرب الجدار بعنف



حتى سال الدم من كفه . الآن يتأسف على ضياع لحظة العمر التى لا تتكرر . الملك لا يطلب من احد شيئا . الكتاب والشعراء هم الذين يتقدمون إليه بالكلمات الموشاة بماء الذهب . يا ابله كان المعنى حاضرا فى ذهنك ، فما الذي أصاب قريحتك ؟ . السجن حلال عليك . إذن تعلم من تجاربك المحزنة . هل تتعلم ؟ .

أصداف الفقر والفن

تنفس فى راحة شديدة . العالم الآن ملك يديه . ليس لحريته حدود . امامه كسرة الخبز وبقايا العسل الأسود ، وقليل من الجبن القديم والبصل ... ومشروع قصة يهل عليه من الماضي . تتهادى الفكرة منتشية بنفسها ، مزهوة بابداعها الجديد . اه لو ينزل البحر ، ليلتقط أصدافه الذهبية ولؤلؤه ومرجانه ؟ . فعلها مرات كثيرة . ورغم العناء الذى لاقاه ، لكنه كان يخرج فى كل مرة فرحاً وسعيداً ونابضاً . الفقر ليس عيباً ، القهر هو العيب . تذكر الحادثة القديمة ، فبصق مغيظاً وحانقاً ، ثم شع فى صدره أمل باهر . بدأ يستعد للمغامرة اللطيفة ، يدخل إلى عالمه المضيء . كان ياما كان .. رجل وامرأة أو طفل وشعب كان ... وامتلأ قلبه بالدفء والاشعاع . كيف يبدأ .. لا يعرف . المهم انه لا يسبح وحده .

وجوه الأطفال تفرش الأفق امام عينيه . وفي ركن مظلم كان يقعد اسكافي فقير ، يرتق أحذية المارة . حياه وراسه يشع بكلمات النبي .. اللهم احشرني فى زمرة المساكين . وقال :

ــ صباح الخير ياعم زلطـة

قال الأسكافي :

ــ صباح الخير ياولدي ..

ويحلق بعينيه الضيقتين اللامعتين ثم أردف :

ــ لم أصلح مركوبك بعد ... الشغل كثير ياولدى ...

قال :

ــ لم أجيء من أجل المركوب .. جئت لأتانس بـك .

قال الأسكافي :

ــ أحك ياسيدي .

قال :

ــ ليس لدي حكايات ...

قال الأسكافي :

ــ العالم اليوم مملوء بالشرور ...

وتمخض وهو يدق المسامير فى كعب حذاء على السنديان . وكان عجوزا وضامرا ومنهكا . وقال عم زلطة حين وجده ، صامتا :

ــ فيم تفكر ؟ .

قال :

ــ فى احوال الدنيـــا .

قال عم زلطة :

ــ صل ع النبي ... تشرب شاى ؟

قال :

ــ أشرب ...

واشعل الأسكافي راكية النار فى الحفرة امامه ووضع البراد ، ثم قال :

ــ هل تعلم أن العساكر يطاردوني من مكان لآخر . لأني لا ادفع لهم المعلوم . انهم لا يرحمون ، ولا يريدون ان تنزل رحمة ربنا على أحد . وضحك فى اسى ضحكة مشروخة تحمل همومه المزمنة ، ثم همس وهو يمسح قطرات من العرق تجمعت على جبهته :

ــ لكني تعودت على قرفهم ... يرتقون أحذيتهم بالعافية ... سفلق مفلق ! .

وصب الشاى الدافىء . كان الوقت فى الشتاء ، والريح تضرب خيمته الرقيقة القديمة ، ورشح أنفه لا يكف عن السيل . ذقنه المخروطية ، بيضاء الشعر ، تكسبه مكر الثعلب ، الذى تدرب على حيل الحياة . كان يفترسه بنظراته التحتية ليعرف خباياه . وكان هو الآخر يحاول أن يعرف منه . وظل الأسكافي الفقير يشاغله على مدى الأيام دون أن ينسى .

على مرفأ الدم والصبر

اليوم الأسود يختلط باليوم الأبيض الفرح بالحزن ، الظلام بالنور ، الحياة بالموت . ومن الصحراء القاحلة تنبع المياه ، ومن وسط الصخر ، وعلى حوافيه ، ينبت الورد . المثل يقول ، نزف ساعة ، ولا كل ساعة ، ولكن نزيفه لا يتوقف ، يوما بعد يوم وهو ينزف . الجدول معلق على الحائط .

يعرف الآن بسليقة حب الحياة وغريزتها أن لابد من النزف . وهذا الانفصام الذى يعيشه ، هو انفصام الموت مع الحياة ... وقطرة وراء قطرة يذبل ، ثم يصحو يرتل الآية التى يحبها : « لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم » . الجسد والروح معاً . والدم النازف ضريبة الكبرياء والفقر وشقاوة الطفولة . وتعلق قلبه بالمجهول ، فراى أنه استحال الى بكتريا متعفنة ياكلها الدود . ابتسم بمرارة وسخرية . هل يبقى المعنى والذكرى ؟ . ربما ... ربما . المثل يقول ... الصبر طيب ..ولو كان مرا نصبر له . وفى تلك اللحظة يخرج من ذاته ، ليعانق كل الأصدقاء : لماذا يا احبائي تغرقون فى الصراع ؟ . ومن صعيد مصر إلى أمدرمـان ، إلى بسكرة الى طرابلس ، الى بغداد ، الى لندن وباريس ، الى قطر والبحرين ... الى كل البلاد والمنافي على وجه الأرض ... نحن غرباء أيها الأحباب ... لأننا مازلنا نعاني ونرسم الأشواق . واحتضن المه وغربته وصبره . فتدفق دمه ونبضه مقتدياً عطاءهم . واخترقت شعاعات



الشمس الدم ، فتالق ونقى من السموم ، وخف وزنه ، فاصبح كريش النعام . ووقف على الشاطىء وحده ، يناشد المودات القديمة أن تدوم ، وأن تعمر الأرض بالمصانع والمعامل ودور العلم ، والا يقهر أو يستغل انسان آخر . وكاد أن يسخر من أمنياته المنطلقة . فمايزال السيف أصدق إنباء من الكتب ، واليد العليا ، لمن يمتلكون البارود والنار . ولو كان فى يد الأسكافي الفقير بندقية وميكروفون لتغير حاله ، ولما ضعف بصره ، ونام نومته الكئيبة ، وسط نفايات القرية . ولكن لا باس أن تحلم وتتمنى ، وسط النزيف الدائم ، وتقلصت عضلات قلبه ، فاستغفر الله من ذنوبه ، وشرب كوباً من الماء . وغمرته لحظات من الهزيمة الهادئة ، فارخى لتاملاته العنان ... سوف يتحول الى عدم ، ولكن لسانه لن ينطق ببيت الشعر الذى طلبوه منه . وهذا هو عناد وإرث الانسان الكاتب على الأرض ، أن يقاوم الذل ، ولهج بكلمات عرابي الخالدة ... إن الله خلقنا احرارا ، ولم يخلقنا إرثا وعبيداً ... ووالله لن نقهر أو نستعبد بعد اليوم . ذهب الخديوي وبقى عرابي . وعادت إليه ضربات القلب من جديد . بعد مائة عام تنفذ إليه روح الفلاح المصري ، تخفف من نزيفه . ياخسارة عليك ياعرابي ، صبرت ولم تنل ما تتمنى.

● نهر الحب والانكسار ●

زلت قدماه فى الطريق . غشيت عيناه بالظلام . قاوم وهو ينفض الغبار عن ملابسه ، فى البيت ظل ساكناً وصامتاً فى ركنه الأليف .

قالت له المحبوبة الصغيرة ، وهي على عتبة الدار :

ـ خلاص يابابا ، لن أستطيع أن أبقى ... نظر فى عينيها العسليتين . فى تلك اللحظة كان يود الهروب من العالم . تساند بجسده على احد الجدران . خرجت الكلمات من فمه مفككة الأوصال ، ضعيفة وواهنة ... يخونك العيش والملح يانانا . إني احاول الا أظلم احداً ، فكيف أظلم فلذة كبدي ؟ يابنت الحلال حرام عليك . قالت وهي تسرع الخطى :

ـ باي ... باي ...

هل انتهى الحلم الذى عاش من أجله عشرين عاماً ؟ . سالت الدموع على خده . انه يتذكر دموع ابيه الكهل وهو يبكي متهدجا : اين عبد العزيز ؟ هل اموت دون أن أراه ؟. وصدق حسه ، إذ مات عبد العزيز فى مستشفى الأمراض العقلية ، بعد ثلاثين عاماً من الاقامة الدائمة يضربونه . عندما ذهب اخوه ليراه ، حاملا له الطعام والملابس اخبروه بموته . كيف يا جماعة ؟

ردوا عليه فى صوت واحد :

ـ شيخوخة مبكرة يااستاذ ، وقد دفناه فى مقابر الصدقة .

وسبح فى نهر انكساره . الماضى مع الحاضر يحكمان الخناق على رقبته . وخاطب نانا هامسا لماذا تجددين الأحزان فى قلبي يانانا ؟ . كنت احاول ان انسى . وكنت وانت صغيرة تسالينني : كم اخ لك يابابا ؟ . فاتحاشى الحديث عن عمك عبد العزيز . ولما كبرت اخبرتك بالقصة كاملة . انا لا اتحمل المهانة ، فهل اهون عليك ، بعد ان اعطيتك سري ؟ . أنت تعرفيني أني لا أحترف الكذب ، فكيف تتركيني فى الوهم كل تلك السنين ؟ . هل نسيت الحصان القديم عندما قدمته إليك فى عيد ميلادك ، وانت تتعلمين المشي ، تتعثرين بين كل خطوة وأخرى ؟ . اين أيام مدرسة العائلة المقدسة ؟ . هل تذكرين عندما جريت إليك ملهوفاً ، فى لحظات الحرب احملك بين ذراعي ، خوفاً وحناناً ، ولأفديك من المكروه . ومع أن الدماء شحيحة فى راسي الآن إلا انني اتذكر ... اتذكر ... اتذكر ... فى الماضى كنت أبذل عرقي من أجلك . الآن أبذل دمي وعرقى ودموعي ، متعب حتى الثمالة . قبل أن انام كنت أطبع على جبينك قبلة تريحني من نزيف اليوم كله . اغضب فى بعض الأحيان ، ولكن قلبي يطرد الكدر الزاحف دائماً . اصررت أن اخاطبك راساً براس ، وعقلا بعقل ، ولكن الهاوية كانت تتسع شيئاً فشيئاً . قلت لي : اريد أن أعيش حياتي كما اريد ، ولم يكن لي حيلة إلا أن اقول : الحرية لا تنفصل عن المسئولية . ومع هذا ، كان القلق ياكلني ساعات وساعات ، حتى إذا ما وضعت المفتاح فى قفل الباب عائدة ، فان وهمي ينفرج ، وكربي يتفتت .. اطمئن عليك ... تدبين فى البيت ... خطواتك بلسم لجراحي . طيفك يداويني ... وماذا أقول لك يانانا ؟ ... إني اخاف على كبريائي من حبك ... الآن تخرجين بلا عودة . لماذا تجسدين كابتي ، التى حاولت أن اتخلص منها ، على طول السنين العجاف ؟ . مهلا ، فمازلت أركب قطار الأحزان ، اقطف منه ، واغزل ، فى عذاب وألم وأمل . فمن يدري ، فقد تحدث المعجزة ، وأعود أسبح فى نهر مياهي العذبة النقية . قال لي الطبيب الجراح : إن الفرصة امامك فى زرع كلية نادرة ، ولم أتعود على اقتناص الفرص تعودت على الزرع الصبور ، والحصاد الناضج . فهل يضيع حصاد عشرين عاماً معك . باي ... باي ... تشرخ صدري . والطريق الذى مشيت فيه يهزمني . قاومت ولازال النزيف ، ولكني لا استطيع أن اقاوم دموعي واكتئابي لفراقك . فهل ترحمين انكساري وكبريائي وحبي وتعودين ؟! .

ربمـا ... ربمـا ! .

● فاروق منيب
لنـدن

جمـــال الغيطـــاني

الخرطوم

مدينة امتزجت ملامحها العربية بالملامح الإفريقية !


الخرطوم اليوم بكل مافيها من حياة معاصرة

«أتيحت لي الفرصة لزيارة السودان لأول مرة عام ١٩٧٠ ، كانت المناسبة حضور احتفالات العيد الأول لثورة مايو ، غير أنني اعتذرت ، كانت حرب الاستنزاف تشهد تصعيداً خطيراً فى تلك الأيام النائية ، القصية ، وكان الطرفان الرئيسيان للقتال ، سلاح الدفاع الجوى المصرى ، والطيران الاسرائيلى المعادى ، كنت مقيماً فى الجبهة وقتئذ ، أصف لمواطنى المعارك من خلال عملى كمراسل حربى» .

وأعيش الحرب فى البقعة ـ التى كانت ملتهبة ـ من بلادى ، ولم أكن مستعداً للابتعاد ولو يوماً واحداً ، عن الضباط والجنود الذين عرفتهم ، وكنت استمد عوامل اتزانى النفسى من بطولاتهم ، ووقائع الأحداث اليومية ، اعتذرت عن السفر الى السودان ، مع اننى لم اكن قد خرجت الى اى قطر عربى فى ذلك الزمن الذى يبدو لى نائياً الآن كالقرون الخوالى ، ومضى احد عشر عاماً قبل أن تتاح الفرصة من جديد ، فى مارس (آذار) ١٩٨١ ، وفى أحد لياليه الحارة ، نزلت إلـى مدينـة الخرطـوم عبـر المطار الذى يقع فى قلب المدينة ، موقع فريد لمطار دولى ضخم ، كانت المناسبة ، وصول وفد اللجنة المصرية للتضامن الآسيوى الافريقى ، وكنت أحد أعضاء الوفد ، وكأى بلد عربى لا يشعر الانسان بغربة حال وصوله اليها ، الملامح العربية الأصيلة تطالعنا فى الوجوه وان امتزجت بالملامح الافريقية . السيارة تخترق شوارع الخرطوم الليلية ، الهادئة ، شبه الخالية من المارة ، لا تستغرق المسافة للوصول الى شاطىء النيل حيث الفندق ، إلا دقائق قليلة ، وقبل أن أرحل عبر المدينة ، أبدأ الرحيل فى تاريخها ، وتاريخ الخرطوم برغم حداثته ، إلا أنه حافل بأحداث تاريخية ذات طابع درامى ، وتكوين المدينة العمرانى ، مرتبط أشد الارتباط بهذه الأحداث .



مدينة امتزجت ملامحها العربية بالملامح الافريقية !

الأصل

ما أصل الاسم ؟

لم يختلف الناس حول اسم مدينة ، كما اختلفوا حول «الخرطوم» يقول بعض **الأوربيين** ان الاسم مأخوذ من القرطم ، وهو نبات تكثر زراعته فى مصر ، وكان يستعمل زيته للاضاءة ، آخرون يقولون ان الاسم يعنى فى لغة الشلك ، أو لغة الدينكا ، المكان الذى تجتمع عنده العيون والأنهار ، ويرجع الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم اللفظ الى أصول نوبية. من ناحية أخرى يقال ان العرب أطلقوا هذا الاسم على المكان لأن طرفه يمتد فى شكل شريط يشبه خرطوم الفيل حتى يلتقى النيلان الأبيض والأزرق ، ويبدو أن أصل اللفظ بالتاء أي الخرتوم ، ثم قلبت التاء الى طاء ، كنوع من تهذيب اللسان العربى ..

روايات متعددة ، ولكن لا توجد رواية واحدة حاسمة ، وفى التاريخ لا يذكر المؤرخون شيئا عن الخرطوم فى عهد مملكة النوبة المسيحية العليا ، فى سنة ١٦٩٨ زار الرحالة الفرنسى بونسيه السودان ، ذهب من قرى الى سنار مباشرة بدون أن يتوقف فى الخرطوم أو يذكرها ، فى سنة ١٧٧٢ اتجه الرحالة بروس من سنار الى شندى عبر الحلفاية دون أن يذكر الخرطوم ، وتجاهلتها ايضا الخرائط التى طبعت فى أوروبا أوائل القرن التاسع عشر ، لم يكن الموقع يشكل أهمية بالنسبة للرحالة الأوربيين ، وفى سنة ١٨٣١ زار ادوارد بارون فون كالو السودان ، ويعرف باسم ارسلان بك ، ودون مشاهداته ، وذكر أن رأس الخرطوم ليس به شيء إلا بعض الأكواخ الفقيرة ، لم تكن الخرطوم وقتئذ سوى نقطة عسكرية ، بينما كانت عاصمة الاقليم الحقيقية فى الحلفاية ، وبرغم ذلك ، فقد أدرك ارسلان بك أهمية هذا الموقع ، ومرور طرق القوافل به ، اقترح انشاء مدينة تجارية بها ووضع الخرائط اللازمة ، وفى مخطوطة كاتب الشونة ــ المطبوعة فى القاهرة ــ يذكر الموضع مرة واحدة فى فترة حكم الفونج ، ثم يأتى ذكر الخرطوم عند الحديث عن عبور جيش اسماعيل النهر من أم درمان الى الخرطوم ، ثم عند مجيء عثمان بك ، وتشييده النقطة العسكرية بها . ثم مجيء محــو بك خلفا لعثمان بك ، وفى كتاب طبقات ود ضيف الله الهام ، لا يرد ذكر الخرطوم على الرغم ــ كما يقول الدكتور محمد ابراهيم ابو سليم من أن مؤلفه من الحلفاية ، ويذكر كثيرا من أولياء هذه المنطقة ... لم يكن للخرطوم أهمية ، كانت منطقة مغمورة بالفيضان ، تغطيها الغابات ، وفى سنة ١٦٩١ ، جاء أحد الأولياء واسمه ارباب العقائد ، وعبر النهر لينشيء فى هذا الموضع أول قرية مأهولة ، كان من عادة الفقيه الذى يشتهر أمره ، أن يفارق مكان مولده ، وان يبحث له عن مكان جديد يستقر فيه ، وهكذا غادر الشيخ ارباب العقائد جزيرة توتى ، الى هذا الموضع ، وكان لارباب العقائد تلاميذ ، منهم الشيخ خوجلى عبد الرحمن الذى استقر بالخرطوم بحرى وبنى فيها مسجداً ومنزلا ، وتوجد منطقة الآن تعرف باسم حلة خوجلى . وفى الخرطوم بحرى منطقة تسمى الآن حلة حمد ، ترجع الى أحد تلاميذ الشيخ ارباب العقائد وهو حمد ولد مريوم ، وقد ساهم هؤلاء المشايخ فى نمو مدينة الخرطوم ، مع الفتح المصرى وصل اسماعيل باشا بجيشه الى هذه النقطة ، وأنشأ معسكرا للجيش ، وكان ذلك بداية لمدينة الخرطوم الجديدة ، وفى عهد محو بك اتسعت الخرطوم ، ويطلق اسمه الآن على منطقة الشجرة الواقعة جنوب الخرطوم ، وتعرف بشجرة محو ، كانت المنطقة تسمى فى البداية شجرة النقارة وكانت القبائل تتجمع حولها تدق الطبول وتقام فيها المهرجانات القبلية ، وحتى



الصناعات الشعبية فى أم درمان

اليوم تدق الطبول فى المواسم والأعياد ، ثم أطلق على المكان اسم شجرة ماحي ، وقيل انه المكان الذى ضرب فيه خيمته ، وظلت تعرف باسم شجرة ماحي حتى سقوط الدولة المهدية ثم فكر احد مفتشى الحكومة فى اثارة خيال السواح ، فزعم أن جوردون الانجليزى زرع شجرة ضخمة ورعاها حتى كبرت ، ومن ثم اطلق الناس عليها شجرة جوردون ، أما اليوم فيطلق عليها الناس اسم الشجرة فقط .

أول تخطيط

فى سنة ١٨٤٨ ، وصل الى الخرطوم فوج من المبشرين يقودهم الأب ريلو ، وقد قدر عدد سكان الخرطوم بحوالى ١٥,٠٠٠ نسمة ، وقد استقبل هؤلاء المبشرين تاجر سودانى مسلم ، رحب بهم ، وقدم اليهم مساعدات شتى نظرا لافتقارهم الى المال ، واشترى لهم من ماله قطعة أرض على شاطىء النيل الأزرق فأقاموا فيها ارسالية الخرطوم فى الموضع الذى تقوم فيه بلدية الخرطوم الآن ، وتجلى فى هذا التصرف سماحة أهل البلاد تجاه من يخالفونهم العقيدة .

.. تتعدد الروايات ، بخصوص ميلاد المدينة الفعلى ، ولكن المجمع عليه أن الخرطوم لم تصبح مدينة رئيسية إلا فى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، ويرجع الشكل الحالى للمدينة الى أواخر القرن التاسع عشر ، بالتحديد بعد هزيمة الثورة المهدية ، ودخول كتشنر الى الخرطوم ، منذ اليوم الأول لدخوله أولى المدينة اهتماما كبيرا ، وضع التخطيط الجديد بمعاونة بعض المهندسين ، وقد استوحى فى التخطيط شكل العلم البريطانى . ويعتبر هذا أول تخطيط لمدينة سودانية ، إذ قامت الخرطوم القديمة ، وأم درمان عفوا ، استهدف كتشنر انشاء مدينة على النمط الأوروبى ، خاصة الانجليزى ، ويذكرنا ذلك بالأماكن التى أنشأها المستعمرون الانجليز لتصبح صورة من مناطق العمران فى بلادهم ، يتمثل هذا فى منطقة المعادى بالقاهرة ، والجلاء بمدينة الاسماعيلية ، قسم كتشنر المدينة الى قطاعات متعددة ، الأول يقع بين شارع الخديوى (شارع الجامعة الآن) وما بين النيل الأزرق ، وفيه توجد المصالح الحكومية وبيوت الموظفين ، ثم يلى ذلك القطاع التجارى ، وهو يقع جنوب شارع الخديوى ويمتد غربا الى المسجد الكبير ، وشرقا الى شارع فيكتوريا (القصر حاليا) وجنوبا الى ميدان عباس (ميدان الامم المتحدة حاليا) . ثم يقع وراء هذا الميدان السوق العربى ، والى الغرب من شارع فيكتوريا القطاع الصناعى ، حيث تتجمع الصناعات الخفيفة كالحدادة ، والنجارة، حرص كتشنر على ربط قطاعات المدينة بواسطة شوارع عريضة تسير من ركن مربع الى آخر لهذا السبب ، وحرص أيضا على أن تكون المدينة فى طابعها سكنية ، بدأت الحياة تدب فى الخرطوم مع نهاية القرن التاسع عشر ، وجند كتشنر ثلاث كتائب من الجيش المصرى وعددا كبيرا من أسرى جيش المهدى لتنظيف الشوارع من الأنقاض وردم الأماكن المنخفضة من المدينة ، فى سنة ١٩٠٤ سويت الشوارع ، وتم رصف شارع رئيسى يربط بين قصر الحاكم العام ، والفندق الكبير ، والسوق ، والمسجد الكبير ، وقصور يمتلكها الوطنيون ، وانشامصنعاللثلج فى شرق المدينة ، وكلية جوردون التذكارية ، ثم توسعت المدينة ، وبدأ البناء ، ويضم كتاب «تاريخ الخرطوم» تفاصيل دقيقة عن تطور حركة العمران ، وشق الشوارع ومبانى المدينة ، والطابع الأوروبى الذى نشأت على أساسه «الخرطوم» لازال مسيطرا حتى الآن ، بعكس مدينة أم درمان المدينة الافريقية الصميمة ، التى تموج بالحياة ، والحركة ، ذات الشخصية المتميزة .



الفنان التشكيلي السوداني ابراهيم الصلحي

وقد لاحظت فى المبانى الجديدة التى أقيمت بعد الاستقلال ، وبعد ثورة مايو ١٩٧٠ ، استيحاء النمط الأوروبى الحديث ، يبدو هذا واضحا فى قاعة الصداقة الضخمة وقاعة مجلس الشعب ، كذلك شيدت الفنادق الكبرى على النمط الأوروبى الحديث ، فيما عدا الفندق الكبير الذى بنى أوائل القرن ويشبه فنادق أسوان الكبرى القديمة ذات الطابع الانجليزى المختلط بالطراز المحلى ، وبعد تجديد الفندق الكبير بعد ثورة مايو احتفظ بطابعه الأصلى ، وشرفته الفسيحة المطلة على النيل ، والحقيقة أن الخرطوم تتمثل فيها نفس المشكلة التى تعانى منها بلاد العالم الثالث ، فيما يتعلق بالعمارة ، وتقليد



مدينة امتزجت ملامحها العربية بالملامح الإفريقية!

الأنماط الأوروبية ، بصرف النظر عن الطابع المحلى للعمارة الوطنية ، أو مراعاة ظروف المناخ الخاصة فى البلاد الحارة ، والتى تؤدى الى الاعتماد التام على أنظمة تكييف الهواء الصناعية ، لذلك فان الطابع العام لمدينة الخرطوم يبدو حائراً ، فى التطلع الى النمط الأوروبى فى العمارة بمجمله ، وما بداخله من تناقضات فى الشكل الخارجى ، (قاعة رومانية ، ومنازل بالطوب الاحمر على الطراز الانجليزى ، وعمارات حديثة امريكية الطابع) وبين الطابع الوطنى للعمارة ، والذى يتمثل فى منازل الفقراء التى تقوم على الأطراف أو المساجد ، وأضرحة الأولياء ، ذات الشخصية المتميزة اذا ما قورنت بالعمارة الاسلامية فى البلاد الأخرى ، ومن أهم العوامل التى تكسبها هذا التميز شكل القباب التى تتوجد فى جميع مناطق السودان ، القبة العالية التى تستوحى فى استدارتها الى حد ما شكل ثمرة البصل الخارجى .

أم درمان

.. مع عبور النيل ، والانتقال من الخرطوم الى أم درمان ، يتم الانتقال من نمط فى العمارة والشكل ، الى نمط آخر مختلف تماما ، أم درمان مدينة افريقية صميمة ، تتدفق شوارعها بالحركة المستمرة ، بعكس شوارع الخرطوم التى تقفر فى غير ساعات العمل ، تقف أم درمان على حدود الصحراء ، ولأقسامها وشوارعها نظام خاص فى الانتشار والاتصال ، نابع من التخطيط النابع من داخل احتياجات المدينة ، وغير المفروض عليها من الخارج ، ويتمثل التخطيط ويتجسد فى السوق الكبير الضخم ، الذى يضج بالحيوية ، حيث تخصص لكل سلعة قسم معين ، بدءاً من سن الفيل ، والمصوغات ، وحتى الخضروات ، واللحوم ، كانت أم درمان مجرد موضع صغير بالجانب الغربى للنيل ، وعندما قامت الثورة المهدية وبات زحف الانصار على الخرطوم متوقعاً بنى الجنرال جوردون طابية من الطين فى أم درمان ، ركز المهدى هجومه على الطابية حتى سقطت ، وبعد أن فتح مدينة الخرطوم جاء الى خلاء أم درمان ليقيم فيها معسكراً للهجرة ، وقد نما هذا المعسكر نمواً كبيراً ، حتى أصبح عاصمة للدولة المهدية .

ولكن مدينة أم درمان لم تنته بعد سقوط الدولة المهدية ، والتركيز على عمران الخرطوم ، ويقال ان المهدى اختار موضع المعسكر بان أطلق لجمله العنان فسار الجمل حتى برك فى الموضع الذى توجد به القبة الآن ، وقد وقع اختيار المهدى على الموضع وبنى حجرة من الطين فى المكان الذى برك فيه الجمل ، ولما توفى الامام دفنه أصحابه فى حجرته أسوة بما فعله الصحابة عندما دفنوا رسول الله فى حجرة السيدة عائشة التى ماتت فيها ، أطلق المهدى على المكان اسم البقعة ، وكان يقال البقعة الطاهرة ، أو المباركة ، وعرف الموضع باسم دار الهجرة ، ولكن هذا الاسم اختفى ، وبقى «أم درمان» الاسم القديم الذى يقال انه اسم مكان قديم يرجع الى امرأة كان لها ولدا اسمه (درمان) .

فى قلب المدينة تقع قبة المهدى السامقة بلونيها الأخضر والفضى ، وغرب القبة يقع المسجد الكبير ، وهذه المنطقة كانت تقسم المدينة نصفين تقريبا . القسم الجنوبى ، حيث جناح الخليفة عبد الله وأقربائه وحرسه وأهل الغرب عامة ، والجناح الشمالى وهو جناح الخليفة على والخليفة شريف وأهل البحر عامة ، ثم تطورت المدينة واتسعت فيما بعد ، إلا أن قبة المهدى – فى رأيى – تعد بمثابة القلب للمدينة حتى الآن ، وقد بدىء فى حفر أساس القبة يوم الاربعاء الثانى من ربيع الأول سنة ١٣٠٦ هـ ، وكان ذلك بحضور الخليفة عبد الله ، والخلفاء ، والقضاة ، والأمراء ، وجماهير الانصار ، وقد بدأ الخليفة عبد الله الحفر بنفسه ، استمر الحفر حتى التاسع من نفس الشهر ، وفيه وضع الخليفة الحجر الأول الى التاسع ، ثم تبعه الخلفاء والانصار ، وكان أساسه فوق الأرض بالحجر ثم بنى فوقه بالطوب الأحمر ، وكان البناء مربع الزوايا ، وبعد أن ارتفع الى ١٤ ذراعا ، أصبح مثمنا ، ثم تبدأ القبة . وبعد اكتمالها أصبح الارتفاع خمسين ذراعا ، وكان فى علوها هلال ، ومن وسط الهلال يرتفع رأس حربة كبيرة ، إلا اننى لم أر هذه الحربة التى يبدو انها زالت منذ زمن وطليت القبة فى البداية بالجير الأبيض اللامع ليكون له بريق فى النهار والليل ، وداخل القبة يقوم الآن الضريح المحاط بالخشب المنقوش والمطعم ، وتفرش الأرض مجموعة من السجاد الثمين المهداة ، وعلى الجدران علقت بعض أعلام المهدى التى كانت ترفع أثناء المعارك ، ولازال قماشها يحتفظ بألوانه الأصلية .

كذلك بعض اللوحات الزيتية التى تمثل معارك المهدى ، لوحة تمثل الحرب بين السودان واثيوبيا ، ولوحة أخرى يبدو فيها عدد من الفرسان والمشاة وهم يقتحمون البحر تنفيذاً لأوامر المهدى ، كما يوجد بالقبة أيضا الحزام الذى كان يتمنطق به المهدى ، وسبحته ، ولوحة كبيرة تمثل شجرة نسب المهدى وينتهى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين جدود المهدى نجد محمد بن حاج شريف وقد حدثنا حارس القبة فقال انه عاش



الجامع الكبير بالخرطوم

مائتين وثمانين عاما ، قضى منها مائة وثمانين عاما فى الاسفار ، والترحال ، ثم عاد الى السودان ليستقر ، وليعبد الله حتى نهاية عمره ..

الى جنوب القبة نجد المقـر الرسمي للخليفة عبد الله ، وهو بناء بسيط يتكون من طابقين ، انشا الخليفة الدور الأرضي منه سنة ١٨٨٧ ، ثم بنى فوقه الطابق الثانى عام ١٨٩١ ، والبيت عبارة عن مجموعة من الافنية والغرف يؤدى كل منها الى الاخر ، ويستخدم الآن كمتحف ، ونجد به العنقريب (السرير) الذى ينام فوقه الخليفة ، وصوراً لمعارك المهدى ، والأسلحة التى استخدمت ، وقارب استخدمه الجنرال الفرنسى مارشند لعبور نهر الجور عندما كان فى طريقه الى غزو فاشودة ، وعدداً من عربات حكمدارات السودان ، وتمت الى طراز العربات الذى صنع فى بداية القرن ودفة الوابور الذى كان يركبه كتشنر اثناء حملة دنقلا ، وصور الزعيم السودانى عثمان دقنــة ، وكان قائداً عسكرياً موهوباً من قادة المهدى ، وقميصا أحمر للسلطان على دينار كان يرتديه عندما يذهب لحضور تنفيذ حكم الاعدام ، وكان السلطان علي دينار موجوداً بأم درمان خلال الثورة المهدية ، اشترك فى موقعة كررى فى ٢ سبتمبر ١٨٩٨ تحت قيادة الأمير يعقوب ، ثم عاد الى دارفور ونصب نفسه سلطاناً عليها بعد هزيمة الثورة ، دفع الجزية حتى عام ١٩١٦ ، ثم رفض دفعها ، وارسلت اليه حملة ، ومات فى الحروب التى تخللت هذه الحرب .

ونفارق البيت ، والقبة ، والمسجد الفسيح الذى يقع الى جوار القبة ، ونطوف بالسوق الكبير ، ولا تخطىء العين تعدد الاجناس داخل حركة السوق اليومية ، القادمون من افريقيا الغربية ، من كانو فى نيجيريا ، يبداون رحلة طويلة شاقة ربما تستغرق سنوات للوصول الى مكة ، بعضهم يصل ويؤدى فريضة الحج ، والبعض يموت فى الطريق ، واعداد منهم تستقر فى السودان ، وتوجد احياء كاملة على أطراف الخرطوم يسكنها هؤلاء المهاجرون او كما يعرفون هنا بالفلاتة ، وبالقرب من أم درمان توجد منطقة اسمها ام بدة بيوتها من الطين ، لم تصلها الكهرباء ، يسكنها عدد كبير من المهاجرين القادمين من الجنوب ، او الغرب .

فى ام درمان تنظم مهرجانات شعبية بشكل تلقائى تماما . خاصة يوم الجمعة الى جوار ضريح الشيخ حمـد النيل .

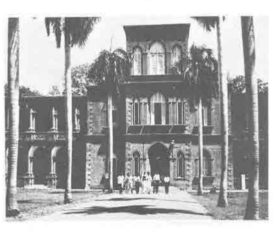
رأيت حلقة ضخمة تضم آلاف الرجال والنساء ، يشاهدون مباريات المصارعة ، بين أبناء القبائل المختلفة ، وللمباريات اصول ، وقواعد ، ومحكمون ، ويهتز الفضاء بزئير ابناء القبيلة التى انتصر مصارعها ، بالقرب من حلقة المصارعة ، وامام مسجد حمـد النيل يقوم ذكر اسبوعى بعد صلاة الجمعة ويستمر حتى المغرب ، وهو ذكر ذو طابع خاص ، ينتظم المريدون صفوفا ، ثم يتحركون حركة دائرية ، تصدر أصواتهم المكتومة ، تتشابك ايديهم ، بينما يطوف حولهم بعض الدراويش فرادى ، احدهم يشير بأصبعه الى السماء ، بينما يتوقف اخر ويدور بسرعة شديدة حول نفسه على ساق واحدة ، وينبطح اخر فوق الأرض مصوبا سلاحا وهميا الى عدو وهمى ، وينتهى الذكر بارتفاع صوت المؤذن داعيا الى صلاة المغرب ..

الثقافة

أكتشاف المدينة ، المقاهي ، الشوارع ، الطابع الخــاص ، الروح الداخليــة ، المعمــار ، حضور لقاءات اللجنة المصرية للتضامن الآسيوي الافريقي باعضاء اللجنة السودانية ، لقاء عــدد مــن الشخصيات العامة ، هذا ما كان يشغل البرنامج اليومي ، ولكن فى اطار ذلك كان لي هدفي الخاص ، وهو اكتشاف الحياة الثقافية فى السودان بقدر ما تسمح به المدة المحدودة ، والزمن المضغوط .

فى اليوم التالي مباشرة تجولت بالمكتبات ، ثم عرفت طريقى إلى قسم النشر بجامعة الخرطوم الذى يشرف عليه الأديب السوداني علي الملك ، وإلى المجلس الأعلى لرعاية الفنون ، الانطباع الأول ، هو جدية حركة النشر المحدودة هنا ، وارتقاء مستوى مطبوعاتها التى لا تصل إلى مصر ، ولا اظنها تصل إلى اقطار العالم العربي الأخرى .

فى السودان تصدر مجلة الثقافة السودانية ، ربع سنوية ، تصدرها وزارة الثقافة السودانية . هناك مجلة آداب السنوية المتخصصة التى تصدر عــن كلية الآداب فى الخرطوم . وتعالج قضايا التراث العربي ، والثقافة العربيــة ، وليست السودانية فقط . توجد مجلة اخرى خاصة بالفلكلور السوداني يصدرها معهد الدراسات الفولكلورية ، وتهتم الصحافة اليوميــة بالأدب . وتخصص جريدة الأيام يوميــن فــي الاسبوع (الاثنين والجمعة) لاصــدار ملحق ادبي . ويشرف عليه الصحــفي والاديب عيسى الحلو ، ومادة الملحق متنوعة ، من الواقع المحلي ، والعربــي



جامعة الخرطوم



والعالمي ، وهذا الملحق من انضج الملاحق الادبية فى العالم العربي .

فى مجال نشر الكتب ، تتركز جهود النشر فى دار التاليف والنشر بجامعة الخرطوم . كتب الدار منتقاه بعناية ، تشمل الدراسات العلمية ، والأدبية ، والابداع ، كما أن اخراجها متقن وأنيق . من أهم الكتب التى صدرت عن الدار (طبقات ود ضيف الله) ومؤلفه محمد النور بن ضيف الله الذى ولد بحلفاية الملوك (١٧٢٧ ـ ١٨١٠م) وترجم فى الكتاب لـ ٢٧٠ فقيهاً ووليا وخطيبا وقاضياً ، ويعد كتابه مصدراً أساسياً فى حياة السوادن الدينية والعلمية والأدبية والسياسية والاجتماعية ، ويكشف عن المؤثرات الخفية التى أسهمت فى تكوين جذور الشخصية السودانية . بل انه أحد المفاتيح الأساسية لفهمها ، حققه الدكتور يوسف فضل ، من كتب الدار الأخرى المهمة « محمد على فى السودان » للدكتور حسن أحمد ابراهيم . و « دراسات فى تاريخ السودان » ليوسف فضل حسن ، و « المهدية والحبشة » لمحمد سعيد القدال ، و « السودان والثورة المهدية » لمكي شبيكة ، و «القصة الحديثة فى السودان » و « نماذج من القصة القصيرة فى السودان » لمختار عجوبة ، و القصيدة المادحة للدكتور عبد الله الطيب « الروابط الثقافية بين مصر والسودان » للدكتور ابراهيم الحردلو الذى عمل مستشاراً ثقافياً فى مصر لسنوات عديدة

لقد عدت بأكثر من خمسين كتاباً قيما من مطبوعات الدار ، معظمها ـ إن لم يكن كلها ـ لم يوزع فى العالم العربي ، قال لي صاحب إحدى المكتبات ، انه فى اول القرن وحتى منتصفه ، كان الكتاب يصدر فى القاهرة وبعد اسبوع يوزع في السودان ، اما الآن فهناك الجمارك والرقابة ، وقوانين الاستيراد والتصدير فى كل قطر عربي ، متى يكون هناك سوق عربية مشتركة تتجاوز الخلافات والمحظورات ؟ وهل من المعقول ان يتردى الوضع بالنسبة للكتاب العربي في أواخر القرن العشرين عن اوله ؟ إن الامر لا يقتصر على السودان فقط ، ويكفي أننا الآن فى القاهرة لا ندري شيئاً عما يصدر من كتب فى بغداد ، ودمشق ، والمغرب العربى كله . وهذا وضع خطير ستكون له أثار سلبية على الثقافة العربية في المدى البعيد .

الجهة الثانية التى تتولى النشر ، المجلس القومى للفنون والآداب ، ويغلب نشر الاعمال الابداعية على مطبوعات المجلس ، لفت نظرى مسرحية يمنية من مطبوعات دار النشر بجامعة الخرطوم ، فبرغم الامكانيات المحدودة يجد مؤلف عربى من قطر آخر مكاناً له هنا .

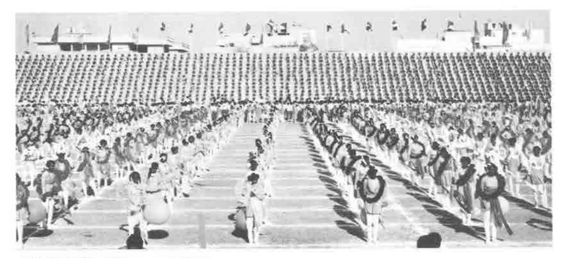
هناك أيضاً معهد الدراسات الافريقية والآسيوية ، وله مطبوعات قيمة . تشمل دراسات علمية ، يتم من خلالها اكتشاف وتسجيل التراث الشعبى للقبائل فى السودان ، ذات الأصول العربية ، أو الزنجية ، وهو تراث متنوع وخصب ، وما تحويه هذه المطبوعات يمثل ثروة فنية ، ومادة علمية هامة ، وهذا جهد رائد يتم لأول مرة فى افريقيا بجهد افريقى لا ينظر الى هذا التراث نظرة سياحية .

فى الخرطوم التقيت بوزير الثقافة الدكتور اسماعيل الحاج موسى ، واصغى باهتمام الى ملاحظاتى حول ضرورة مد الجسور بين الثقافة العربية فى الأقطار الأخرى والسودان ، إن الثقافة العربية كل لا يتجزأ ، واذا انعزل قطر عن الآخر انعكس هذا بشكل سلبى على مجملها . كيف يتم ذلك ؟ اعتقد انه من الضرورى أن تخطو الجامعة العربية خطوة فى هذا الاتجاه . بان تدرس الوسائل الكفيلة بتسهيل حركة الكتاب العرب .

فى احدى أمسيات الخرطوم الحارة ، جمعتنى فى حديقة المجلس القومى لرعاية الفنون والآداب جلسة تعارف مع عدد كبير من الأدباء السودانيين بالنسبة لنا فى مصر وجدت انهم يعرفون أدق التفاصيل عن حقيقة الأوضاع الثقافية ، وما يصدر من كتب ، واعمال فنية ، وللأسف لا نلم نحن بكل ما يصدر فى السودان ، نتيجة لتخلف وسائل تبادل الكتاب والمجلات الاوعية الاساسية لنقل الثقافة .

صحيح ان السودان قدم الى العالم


نهر النيل .. مصدر الجمال والهدوء والالهام للحياة الثقافية الخصبة



احتفالات الشباب حيث الألوان الزاهية ورشاقة الأداء

العربى الروائى المعروف الطيب صالح ، ولكن اعمال الطيب صالح ظلت فترة طويلة فى السودان مجهولة لنا ، ولولا انه قدم من خلال القاهرة ، فلا ندرى كم من السنوات كانت ستمضى قبل ان نسمع عن «موسم الهجرة الى الشمال» و «عرس الزين» .

الفن التشكيلى

.. تعرفت الى الفن التشكيلى السودانى من خلال الفنان الكبير ابراهيم العوام ، الذى تتميز أعماله برؤية شفافة ، فيها روح صوفية ، واستلهام لتقاليد الفن العربى الأصيل ، خاصة الخط ، تخرج ابراهيم العوام فى الجامعة الأمريكية عام ١٩٦٤ ، ومن كلية الفنون الجميلة المصرية عام ١٩٧١ . اقام اول معرض له عام ١٩٦٥ ، فى الفاشر ، وعرض فى مصر ، وكوريا الشمالية ، والمانيا ، حدثنى ابراهيم العوام عن مدرسة الخرطوم :

«هذا تعبير أطلقه ناقد نيجيرى ، قال أن هناك حركة متميزة ، فى البداية كانت هناك ردة الفعل نتيجة للتلقى الأوروبى ، والمعالجات الاكاديمية ، ثم بجـىء الادراك بأن الروح الأوروبية غير مناسبة ، وهنا حدث رد فعل مضاد الى التراث ، واستلهام عناصر تشكيلية من الواقع السودانى ، موجودة فى الخلوة ، فى الكتاب ، فى المسجد ، اشكال الأهلة ، الأقنعة الافريقية ، وهذا يوجد رؤية مختلفة للرؤية الأوروبية ، ويبدو ذلك فى اعمال أحمد شبرين ، وابراهيم الصلحى المقيم حاليا فى قطر وأعماله مقتناة فى متحف الفن الحديث بنيويورك .

ويقول ابراهيم العوام :

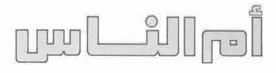
هناك المدرسة الجمالية الجديدة الرافضة للتراث ، والقضية عندهم جمالية بحتة ، يرفضون تسمية اللوحة. ويمثل هذه المدرسة حسن موسى ، وعبد الله بولا ، وهناك ايضا الاتجاه الواقعى ، وثمة اتجاه اخر يحدث ضجة الاتجاه البللورى او الكريستالى ، وممثلوه رفضوا أى مستوى من الحرفية ومع هذا الرفض تتحدث عن الشفافية فى العمل الفنى ، ويعتقدون أن الشفافية هى الأساس الجمالى فيه ، والفكرة ماخوذة من مسألة الجوهر والمظهر . على رأس هذه المدرسة حامد شداد وكمالا ابراهيم ، ومن الفنانين المتميزين ، احمد عبد العال ..

والفنان ابراهيم العوام ، يعمل الآن فى لوحة ضخمة بدأها مع بداية القرن الرابع عشر الهجرى ، يحاول فيها استقراء التاريخ الاسلامى ، ومحاولة القاء نظرة على المستقبل ، وتتجسد فيها فكرة اكتمال دفتر الكون فى القرن الرابع عشر ، كما يكتمل القمر فى اليوم الرابع عشر ..

يستوحى ابراهيم العوام عمله من الصوفية ، وقد دخل الاسلام السودان بطريق سلمى ، وليس بالفتح ، وانتشر عن طريق الصوفية . وفى الاسلام توجد التعادلية بين الروحية والمادية ، ويبدو واضحا فى أعماله التى تستخدم الخط العربى محاولة استعادة القوى البصرية للحرف ، وتحريره من بعديه ، واعادة تقديمه من جديد ، خلفيات اللوحات بيضاء ، بينما تتشكل الحروف فى اشكال معينة ، يحاول ابراهيم العوام استخراج امكانيات واسرار الحرف ، والحرف فى النهاية ما هو إلا وسيلة من وسائلنا التى نتواصل بها ، وتذكرنا لوحاته بتفسيرات الصوفية للحروف ، واستخراج الدلالات من اشكالها ، ونطقها ، وعلاقتها ببعضها ..

فى السودان حركة فنية تشكيلية نشطة ، متميزة وخصبة ، وحركة نشر محدودة ولكنها جادة ، وعميقة ، وحيوية ثقافية ، وخصوصية نابعة من وضع السودان كبلد عربى افريقى ، متى نتواصل مع الثقافة السودانية ؟ ، لاشك اننا فى حاجة الى مجهودات صادقة ومخلصة ، تتخطى كل الحساسيات حتى يتم ذلك ، وليت الأمر قاصر على السودان فقط .

جمال الغيطانى



أم النـــاس

شعر: محمد المهدي المجذوب

يا بائعةَ الكسرةِ
ألقاكِ
الشاشُ الأبيضُ بين يديك غمامٌ نامتْ فيه لفائفُك الغناءْ
يا سمراءْ
أشتمُّ سماحتَك الخضراءَ وترحابَ الاتقان رضاء جمالك يضحك لا لِلْغَىْ
لا غيرةَ من أترابك رزقُ الله تقسَّم فى أصحابكْ
كدْحٌ شاكرْ
أهواكِ أصابعِ صبرك والعمل الموصول الجيد لبٌّ نقائكْ
وَرَزانتك الشَمَّاءْ
الفقر تجمَّلَ سَمْتٌ من كبرٍ وحنانٍ بصَّرنى معناك
يشفينى من سخطى يشكو فى السوق لغير سميع
أسَمِعْتِ بذاكِ البائع ذاك السارق فى الديوانْ
خان الميزانَ سمعت شكايتَه الحَيْرَى
يا ويلاهُ إذا شكَّ الميزان
كفَّتُه الأخرى تسألنى عن توأمها المفقودْ
أسمعتِ بظل سجينٍ غُربَتُه عن ظلِّكِ تسألُنى
وأَرى أطفالَكِ فى ذاكَ البيتِ الأقْصَى
ينتظرونَ الخَيْر العائدَ كل مساءْ
يحبو أطفالُك فى بيتٍ يحبُو
معراجُ شُعْبَتُه فى راحاتِ الزَّغبِ ولَثْغِ الألسِنَةِ الأولَى
ذاك البيتُ الناشىءُ فوق ركائزَ
لا يَعْنِيهِ نفاقٌ مكتحلُ العيْنَيْن
لا يعنيه
لا يعنيه لصوصُ الشمسِ ولؤمُ السِّعر ولا تطفيفُ الكَيْل
وأوزارُ الخرطومِ المفتونَة
تعنيه الأم تُدِر الحُبَّ العائِدَ كل مساءْ



أطفالك أطفالى
أبكى فى سرى بين يَدَيْكِ
ودموعى ألوانٌ شتىّ فى جَنْبى
زهرٌ يتفتحْ
وجراحاتٌ منسياتٌ تَتَذَكَّرْ
تتساءلُ هل صادَفَهُمْ ذاكَ السُّكَّرْ
يَتَعَشَّقُهُمْ لم يعرف إلا فيهم حُلْوَ مَذَاقِهْ
أنكرنى لم تعرف نفسى إلا مُرَّ زَعَاقِه

● ●

أهواك عزيمتُك الغَرَّاءُ وهذا العملُ الطيبُ منذ الفجرِ عَلَى رأسِكْ
وجلست به كالوردةِ رَيَّا تومض فى ظَلْمَاءِ السوقِ المُسْتَنْقَعْ
تَيَمَّنى ثوبُك هذا الأبيضُ ، وجهك يسفر لا كالبدرِ ولا كالشمسِ
ولكن من إيمانِك

الثوبُ السابغُ دِرْعَ بلادى لا الباروكة والفستان العارى
فى وجهك هذا الباسم حزنُ الصَّبْرِ تَفَاعَلْ
ما أجمل هذا الحزن الصابرْ
ما أجمل هذا العمل الساهرْ
يتخطىّ القشرَ الصائحَ فى الصَّفحات وفى التِّلفاز وفى المذياعْ
يتخطى اللغْوَ الخادِعَ والساعِينَ إليه بأطماع شوهَاءْ
يا رَاهِبَةَ السودانْ
يا أم الناسِ جميعاً لا يشْرُونَ الكِثْرةَ بل يجنون بَهَاءَ صفاتك
يزن الأعمال ولا يزن الأقوال يضيع بها الانسان
أقبلتُ عليكِ أطهِّرُ نفسى من أعبائِى
أتعلمُ منك الخيرَ الكاسِبْ
أتعشّقُ حسْنَكِ والاحْسَانْ
وأضاحكُ فيكِ عَزائِى

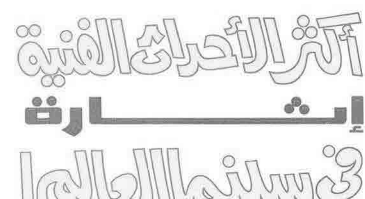
رسالة لندن من
مجدي نصيف







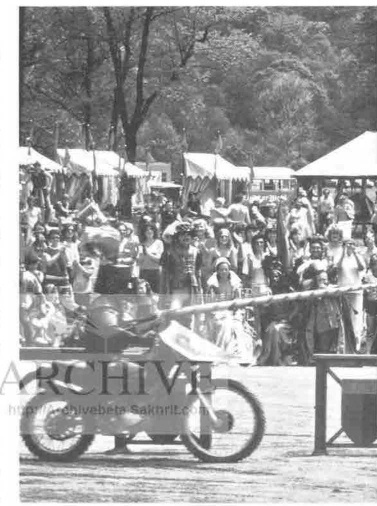
مهرجان لندن السينمائي الدولي الخامس والعشرون



«كان مهرجان لندن الدولى للسينما محظوظا دائما» .

هكذا قال كين فالشين مدير عام المهرجان فى جلسة النقاد والصحفيين التى سبقت الاحتفال هذا العام باليوبيل الفضى لمهرجان لندن السينمائى، وفالشين كذلك واحد من اشهر نقاد السينما فى الغرب .

ومهرجان لندن الدولى للسينما أصبح الآن واحدا من اكثر الأحداث الفنية إثارة فى بريطانيا والعالم . ويأتى فى شهر نوفمبر ، قبيل نهاية العام ، وقبل أن ينصرف البريطانيون الى الاعداد للكريسماس



الفرسان الراكبة .. كان مفاجأة افلام مهرجان لندن .. الفيلم من اخراج «جورج روميرو» الذى اعتاد تقديم افلام الموت والرعب !

وراس السنة واجازاتها . ويصبح المهرجان فرصة طيبة لمعايشة التجارب السينمائية وإعادة تقييم العديد من الأفلام ذات الأهمية والدلالة من مختلف انحاء الأرض. ورغم ان ميزانية المهرجان محدودة للغاية فهى أصغر ميزانية مهرجان دولى للسينما؛

إلا ان المهرجان اكتسب سمعة عالمية واسعة الانتشار جعلت منه مقصداً للمهتمين بفن السينما ، واصبح ساحة خصبة للمناقشات الفنية والندوات والمحاضرات عن الافلام وصناعاتها .

يقول كين فالشين حول المهرجان :

ـ بدات فكرة المؤتمر عام ١٩٥٧ ، وكان عدد الأفلام المعروضة انذاك لا يزيد عن ستة عشر فيلماً . لكن بداية المهرجان واكبت ايضا انبلاج فجر عصر جديد فى السينما : افلام «الواقعية الجديدة الايطالية» و «الموجة الجديدة» الفرنسية ، التى ما إن اوشكت الخمسينات على نهايتها حتى صارت حركة فنية متماسكة متكاملة على يد «فيتوريو دى سيكا» و «فريدريكو فلليني» و «كلود ليلوش» و «جان لوك جودار» و «الان رينيه» و «كلود شابرول» . وخلال عامين فقط تضاعف حجم المهرجان كماً ونوعاً . وما إن حل العام الثالث حتى كان المهرجان قد أصبح ظاهرة فنية عالمية لا يمكن لصناعة الفيلم فى العالم الاستغناء عنها .

ومنذ العام الماضى مارست ادارة المهرجان تقليداً جديداً ، هو تقسيم الأفلام المعروضة الى مجموعات نوعية لمساعدة المتفرج على الاختيار من بين هذا الكم الهائل من الأفلام . فهناك الرسوم المتحركة ، وافلام الأطفال ، والسينما البريطانية . وهناك قسم «الأفلام الأمريكية المستقلة» وهى تلك الأفلام من الموجة الجديدة التى انتجها الشبان الأمريكيون بتكاليف قليلة وبعيدة عن الشركات الكبرى السينمائية ، وهى عادة ما تكون افلاماً تلتزم بقضايا الانسان المعاصر .

ولقد شهد المهرجان هذا العام ١٧٧ فيلما من ٣٩ بلداً من انحاء العالم ، وليس بينها بلد عربى واحد . بالرغم من وجود فيلمين عربيين ، واحد للمغربى احمد المانونى (انتاج فرنسى) ؛ والثانى للفلسطينى ميشيل خليفى (انتاج هولندى ـ بلجيكى مشترك) .

مهرجان المهرجانات

لقد نجح مهرجان لندن السينمائى الدولى الى درجة أن النقاد يطلقون عليه اسم «مهرجان المهرجانات الدولية» . بل وأصبح المهرجان مميزاً عن المهرجانات الدولية الاخرى رغم أنه لا يقدم جوائز وكانت الأسباب التى يظن انها ستتسبب فى فشله ، هى الأسباب وراء نجاحه :

فأولا : لا يتبع المهرجان مؤسسة تجارية او حكومية . وإنما يتبع هيئة اكاديمية مستقلة هى «معهد الفيلم البريطانى» الذى يعتمد على الدعم المباشر من وزارة التعليم ومن «مجلس الفنون البريطانى» .

و «معهد الفيلم البريطانى» من اعرق معاهد العالم السينمائية والفنية ، وتعتبر مكتبته سواء تلك الخاصة بالكتب أم تلك الخاصة بالأفلام ، من اقدم واكمل مكتبات السينما فى العالم .

وثانياً : يصر المهرجان على استقلاليته عن الشركات الكبرى السينمائية

ولهذا لا يقدم المهرجان اية جوائز . وإنما يقوم قضاته باختيار افضل عشرة افلام من كل مهرجان عالمى (موسكو ـ قرطاج ـ طشقند ـ كان ـ البندقية) . ويقوم النقاد بترشيح عشرة افلام اخرى . ولا يعنى ذلك انها الأفلام الفائزة بالجوائز ، لان حسابات الربح والخسارة والسياسة والاحتكار تتدخل فى هذا ، وإنما يضع القضاة لوائح خاصة بهم تعتمد على اسس فنية واكاديمية بحتة .

ويعطى المهرجان الفرصة للمخرجين الشبان والجدد ، الذين يمثلون تيارات جديدة ويعبرون عن مضامين فكرية جديدة . وعادة ما يكون هؤلاء المخرجون من الشبان السينمائيين الذين يعالجون قضايا اجتماعية هامة تتناولها افلامهم . كذلك يقدم المهرجان افلاما عن قضايا التحرر الوطنى والتفرقة العنصرية والمراة .

اما مفاجاة مهرجان هذا العام ، فيقدمها كين فالشين بقوله :

ـ مثلما قدمنا عام ١٩٥٨ المخرج اليونانى انجلو بولس ، نقدم هذا العام المخرج الفلسطينى ميشيل خليفى فى فيلمه «الذكرى الخصبة» .

يقول ريتشارد راود الناقد السينمائى الامريكى ، والمستشار الأدبى للمهرجان :

ـ بينما احجم مهرجان «كان» ومهرجان «البندقية» عن تقديم ما يدور فى جميع انحاء العالم ، من كفاح الانسان ضد الاستعمار والعنصرية فى الخمسينات والستينات ، اعطى مهرجان لندن ، ومايزال ، الأولوية لهذه الموضوعات .



مهرجان لندن السينمائي الدولي



انظر وابتسم .. احد الافلام الانجليزية الجديدة التى تعالج مشاكل الشباب

كان مهرجان لندن سباقا فى تقديم الافلام الامريكية المعروفة باسم «افلام تحت الأرض» ـ التى كشفت بشاعة قصف النابالم على الشعب الفيتنامى وغير هذا من الموضوعات

وعرض المهرجان افلام المخرج الجزائرى محمد الاخضر حامينا ، عن كفاح الشعب الجزائرى من اجل الاستقلال .

وفى العام الماضى عرض المهرجان الفيلم الايطالى «اسرائيل البدو» للمخرج الشاب كارلو كارلوتو ، والفيلم شبه تسجيلى . وهو يقول لنا ما وراء الأخبار ، حيث ان الاخبار التى يقدمها لنا التليفزيون هى اخبار تخاطبنا وتتركنا عند اللحظة التى يقع فيها الحدث موضع الخبر . وهى لاتحاول ان تقدم لنا تفسيراً لما وقع قبل هذا الحدث ،

ولا توصلنا الى النتائج المترتبة على حدوثه . وهنا يقضى كارلو كارلوتو اسابيع طويلة فى مخيمات البدو الذين اصبحوا لاجئين بعد «الحدث الخطير عام ١٩٤٨» . وقد منعت السلطات الصهيونية عرضه لانه يكشف المؤامرات الصهيونية ضد الفلسطينيين ، وضد بدو صحراء النقب .

والظاهرة الملفتة للنظر هذا العام هى دخول المخرجين من اوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية فى انتاج الافلام ألانسانية ، ففى الأعوام السابقة كانت الأفلام الانسانية ـ الفنية المحتوى الجيدة التعبير السينمائى القليلة التكاليف ـ تقتصر على العالم الثالث وبعض الدول . والسبب فى عودة السينما الغربية إلى انتاج افلام هادفة هو ظهور اشكال جديدة من التعاونيات السينمائية ، تعرف فى الولايات المتحدة باسم «السينما المستقلة» . ويمثلها فى مهرجان لندن الدولى هذا العام ١١ فيلماً . كما يشترك المخرجون البريطانيون فى هذا المجال بـ ١٢ فيلما ايضا بعضها تم اخراجه عن طريق منح تقدمها وزارة التعليم .

موضة الاخلاقيات

وقد بدأت شركات السينما الكبرى تدرك اهمية التيارات الجديدة ، فدخلت

كمنافس فى الأفلام الهادفة بتوظيفها لمخرجين على درجة من الثقافة ، وفى رأى عدد من النقاد البريطانيين أن السبب وراء هذا هو حرص هؤلاء على «ألا يتخلفوا عن حركة المد فى رفع الوعى السياسى» . وفى رأى عدد آخر من النقاد أن السبب هو ظهور تيار أخلاقى جديد بين صفوف أصحاب الشركات والمنتجين أنفسهم ، تيار يعادى الحرب ويحذر من «تدهور قيم المجتمع» .

شركة يونايتد ارتست على سبيل المثال ، تقدم فيلم «على طريقة كاتر» تتردد فيه أصداء بشاعة الحرب الفيتنامية التى تركت بصماتها الفظيعة على المجتمع الأمريكى ومازال يعانى من ذلك حتى الآن رغم مرور سنوات على انسحاب الجيش الأمريكى . وسيناريو الفيلم كتبه جيفرى الان فيسكين الذى اقتبسه عن رواية للكاتب الروائى الشهير نيوتن تورنبرج . وقد استدعت الشركة الأمريكية المخرج التشيكوسلوفاكى ايفان باسير الذى اشتهر عام ١٩٦٦ بعد أن فاز فيلمه الثانى «كرة رجل المطافىء» باحدى جوائز مهرجان موسكو للسينما ، لاخراج هذا الفيلم .

يتركز الفيلم حول شخصية كاتر الذى يحسبه الناظر «عالة على المجتمع» «لا يصلح لشىء» . فهو «مشوه» «مشلول الذراع» «مبتور الساق» «أعور» . وهو يعاقر الشراب طوال الليل والنهار ، ويسىء معاملة زوجته . ولا نكتشف حقيقة المأساة إلا فى منتصف الفيلم ، حينما يتحدث «كاتر» عن رجل الأعمال السيد ج.ج. كورد الذى يمتلك الشاطىء والمدينة والصحافة المحلية ونصف أسهم شركة التليفزيون . نكتشف الحقيقة عندما يقول كاتر :

ــ «نذهب أنا وأنت لنموت فى أدغال فيتنام ، ليزداد ج‌ج كورد ثراء» .

وقد برع جون هيرد فى رسم أبعاد شخصية «اليكس كاتر» ، الذى يطرح مأساة جيل كامل من الشبان الأمريكيين الذين ساقتهم مصالح الشركات العالمية الكبرى ، وخاصة شركات السلاح ، الى حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، وألقوا بآلاف الأطنان من القنابل والمحرقات والنابالم على رؤوس أبناء الشعب الفيتنامى البسيط البرىء وحقولهم ومزارعهم وبيوتهم ومصانعهم .



الكاتبة سحر خليفة فى فيلم «الذكرى الخصبة» الذى كان مفاجأة المهرجان هذا العام

وتكمن روعة الفيلم ، وبراعة المخرج ، فى اللغة السينمائية الراقية التى استخدمها . فالاشارة الى فيتنام قليلة جدا ، وفى جمل قصيرة للغاية ولكنها ملتهبة الغضب ، مثل :

ــ «كنت ملقى على الشاطىء أنزف ، مبتور الساق ، وأنتم هنا تتعاطون المخدرات» .

ويركز الفيلم على البنية الاجتماعية الداخلية للمجتمع الأمريكى ، والفساد الأخلاقى الكامن وراء «العنف» الذى تصدره الولايات المتحدة الأمريكية الى فيتنام والعالم ، فخلف واجهة «الشاطىء» و «النادى» و «اليخت» و «حمام السباحة» ، «السيارات الفارهة» ، يقبع القبح والعنف وتناقضات مجتمع الظلم الاجتماعى . والمحصلة هى تعفن وانحلال البناء من الداخل : إنه يتهاوى وينهار عند أول صدمة .

ويشير كثير من النقاد الى أن دور الزوجة «مو» الذى قامت به ليزا ايتشهورن ، يعتبر أفضل دور نسائى لهذا العام ، فرغم قلة الحوار الذى أفرد لها ، تمكنت ليزا من رسم أبعاد تعقيدات شخصية أنثى نضجت فى السبعينات بعد امتصاص خبراتها الأولى فى الستينات ، وهى اشارات واضحة الى الحرب الفيتنامية .

ذكرى من فلسطين

واذا كان المخرج التشيكوسلوفاكى إيفان باسير قد نجح فى استخدام ظاهرة «العنف» فى كشف حقيقة مجتمع الرفاهية ، فان الفلسطينى ميشيل خليفى استخدم لغة سينمائية رقيقة ومبتكرة فى حركات كاميرا شاعرية رشيقة ولقطات انسانية تدور حول «الحياة اليومية» لعرب الضفة الغربية ، فتمكن رغم الرقة والشاعرية من نقل واقع مأساوى مرير ، للظلم الذى لم يسبقه مثيل فى التاريخ ، ذلك الظلم الذى تعرض له الشعب الفلسطينى .

ورغم بساطة الفيلم وقلة تكاليفه ، إلا أن كاميرات ايفزفان ديرميرين ، ومارك أندريه باتيجن ، تمكنت من تسجيل أدق تفصيلات الحياة مع المونتاج العبقرى الذى قامت به مفيدة الطلاطلى ، والذى ساعد على الاظهار الموهوب لثراء الحياة



احدى لقطات الفيلم الفائز بجائزة النقاد وهو فيلم الصحبة الحسنة



مهرجان لندن السينمائي الدولي

الاجتماعية للفلسطينيين فى ظل الاحتلال الاسرائيلى ، وهم يحاولون المحافظة على شخصيتهم «العربية الفلسطينية» بملامح ثقافتها ، رغم العذاب اليومى تحت نير سلطات احتلال فظيع .

ومن خلال التناقض بين الحوار البسيط لفلاحات فلسطينيات فقيرات ، أثناء اعدادهن لوجبات فخمة ، تمكن المخرج عن طريق الحوار العاطفى الذكى والساخر ان ينتزع الضحكات وان يشحذ الذاكرة لتفتح النوافذ على حقيقة المأساة الفلسطينية .

ويتمكن فيلم «الذكرى الخصبة» لميشيل خليفى من أن يصبح دراسة انسانية هامة للمجتمع الفلسطينى فى الضفة الغربية فى ظل الاحتلال وينجح فى أن يقدم «الانسان الفلسطينى» فى شخص«امراة عجوز» تصبح امثالها وحكاياتها هى معين لا ينضب يروى «الذكرى الخصبة» من التقاليد والعادات والتراث الثقافى الذى يعبر عن تشبث الشعب الفلسطينى بالأرض ، رغم محاولات الصهيونية . وقد شاركت الكاتبة الفلسطينية سحر خليفة بالتمثيل الى جانب فرح حاتوم فى تقديم لغة سينمائية راقية قال عنها الناقد السينمائى إيان كريستى :

ــ اذا تمكن المخرج من أن ينسج موضوعا انسانيا ، حول محور فكرة فنية فانه يكون قد أبدع بلغة السينما .

ولقد تمكن المخرج بمساعدة الممثلين من أن يرسم خريطة الجغرافيا الانسانية للمشكلة الفلسطينية حول محور «الذكرى الشعبية» لفلسطين العربية .

صعاليك معاصرون

اما المخرج المغربى احمد المانونى فقد قدم فيلماً اسمه «الحال» استخدم فيه الثقافة القومية . ويدور فيلمه حول فرقة موسيقية مغربية اسمها «الناس الغوانى» تحاول تقديم أغنيات عربية على طريقة فرق «الروك أند رول» الغربية باستخدام الات موسيقية عربية . والفرقة نفسها محاولة عصرية لاحياء حلقة من التراث الجاهلى ، مجموعة شعراء الصعاليك الذين كانوا يرتحلون من مكان الى اخر .

وتعتزم هذه الفرقة الطواف بعواصم العالم مع التركيز على أوربا الغربية ومن ثم يعتبر فيلم «الحال» ، مقدمة فنية طيبة



جدل ساخن حول اخلاق الفرسان فى محاولة لاتلال العصر .. لقطة من فيلم الفرسان الراكبة .. ابرز افلام المهرجان !

لطوافهم هذا . ويشير المخرج فى نفس الوقت باسلوب ممتع ، الى رفض الكبار وحملة التقاليد فى وجه هذه الظاهرة الجديدة .

ولعل فيلم «الفرسان الراكبة» هو ابرز افلام المهرجان هذا العام . إنه عن «المجموعات المتجولة» ذات الثقافة الخاصة جداً ، والتى تنفرد بها عن الثقافة الاجتماعية السائدة ــ كظاهرة الهيبيز فى الستينات على سبيل المثال ــ والفيلم من اخراج المخرج الأمريكى جورج روميرو . وروميرو مخرج غريب فريد من نوعه ، فما بين فيلمه «ليلة الموتى الأحياء» (عام ١٩٦٨) و «الفرسان الراكبة» الذى يقدمه فى العام الحالى ، قدم سلسلة من «أفلام الرعب» المتميزة الخاصة به ، عن الموتى الذين يتركون القبور . وإن كانت كلها تعليقاً نقدياً بشكل غير مباشر على المجتمع

وابطال فيلمه الجديد ، الدقيق الصنع الانسانى المحتوى ، مجموعة من الشباب راكبى الدراجات البخارية ، الذين يستخدمونها بدلاً من الجياد ، فى حلقات نزال كالتى شهدتها أوربا فى القرون الوسطى بين الفرسان . وفى هذا المجتمع الجديد ، هناك مجتمع بأكمله يرتدى ملابس بداية عصر النهضة ، بالرقص والموسيقى . وتتعرض الجماعة لمسالتين تتحول كل منهما الى امتحان عسير : الأولى عندما قابلوا الشرطى الشرير المرتشى الذى يريد فرض أتاوة عليهم . (وتتكرر ظاهرة العداء للشرطة فى معظم افلام روميرو) . والثانية عندما يتعرض عدد من «الفرسان الراكبة» لاغراءات التليفزيون والشهرة وشركات الانتاج الاحتكارية ، هنا يفكرون أمام الاغراءات فى التخلى عن مبادئهم ، المتمثلة فى رفض المدنية الحديثة والتحلى باخلاق الفرسان .

وهنا يطرح روميرو السؤال الأخلاقى التالى : هل يمكن أن يعيش «المفكر» و «الكاتب» حياة نقاء رومانسية فى المجتمع المعاصر ؟ وهل يمكن للفنان أن يقدم فنه لنفسه فقط وبقيم أخلاقية مجردة ؟

ولأن روميرو نفسه يعيش هذه «التجربة» ، فهو يلح على الجمهور لمحاولة البحث عن إجابة لحيرة الفنان بفحصه لعالمه الخاص جداً ، الفنان النقى «أحادى» الفكرة . ولا يقدم روميرو إجابة شافية .

● ●

ولاشك أن المهرجان فرصة طيبة للنقاد والسينمائيين والكتاب العرب الذين لم نر واحداً منهم فى القاعة القومية للعروض السينمائية على الضفة الجنوبية لنهر التيمز ، والتى تحتل مكانها فى مدينة الفنون التى تضم مبانى المسرح القومى ومعرض هايوورد وقاعة الاحتفالات الملكية وقاعة الملكة اليزابيث .

مجدى نصيف

بقلم: محمد فتحي

مطلوب للتليفزيون العربي:

طبقة واعية من كتاب الدراما

المتعة التى يلقاها ويسعد بها المتتبع للمسلسل الدرامى ـ ذى القيمة الفنية ـ لا تجيء من مجرد التشويق ، النابع من التسلسل الحكائى . او من إزاحة الستار عن سر غامض (مَن مِن أولئك الذين تحوم حولهم الشبهات هو القاتل ؟) . المتعة الحقيقية تجيء عن طريق التامل . التامل فى مصير .. فى موقف إنسانى قاصم للظهر ، موقف درامى قد يرى المرء نفسه مغروسا فيه .. انظر الى ذلك الطاغية جى آر فى المسلسل الامريكى المشهور دالاس . انك تسائل نفسك ، داخل نفسك .. أما من أحد قادر على الوقوف فى وجه هذا الطاغية ؟ هل يقوى اخوه الأصغر عليه ؟ اليس لطغيانه من نهاية ؟! انه يخرب البيوت .. يدمر الأسر .. يهدم بيوت المال .. يذبح كل قيمة اخلاقية موروثه .. يفلس الشركات ، ويدفع بالمفلس الى الانتحار .. ؟! وقد تجد نفسك فى آخر الأمر تقف مع الضحايا ، تبرر مسلكهم غير المشروع .. لقد ضاقت فى وجوههم السبل ، ولم يبقَ امامهم للتخلص من هذا الشر الكبير الا ان يصطفوا فى الطابور .. لاغتياله .!؟ اظهر من فى الطابور كانت أقرب الناس إليه .. زوجه ؟! زوجه واخت زوجه .. نعم ولكن ليس اقرباء الدم ! أواصر العرف الأسرى ـ وهو هنا فى هـــذا المجتمع مكين ـ تكف يد الأخ عن أخيه ، وتدفع به بعيدا عن الطابور .. كما دفعت بأخ له من قبل بعيدا .. الى ارض الله الواسعة .. ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟!

أو انظر الى ذلك الموقف الآخر ، الذى يواجه فيه الأخ الاصغر قوى لا قبل له على احتمالها .. من دسائس تغرق ناقلات الزيت الثمين .. ومبتز يطلب الملايين أو يدمر ابار الزيت .. ويدمرها بالفعل ، أمام أعيننا ، ونراها تشتعل لهيبا بنفسجيا مأساويا ماله إلى رماد متفحم .

لارى هاجمان يؤدى دور ج . آر . الشخصية المستبدة فى جميع تصرفاتها



تلك نماذج من نهاية الحلقات فى المسلسلات الأجنبية . مواقف لا تدعو الى التشويق والترقب بقدر ما تدعو الى التفكر والتامل العميق .. الى تحريك الضمير الانسانى .. كانما تلتمس الاستهداء فى مواقف التيه .. فى موقف هذا الرهين الانسانى من هذا الكون اللجي ، العجيب المثير المعقد .

عندما يبلغ المسلسل الدرامى العربى فى حياكته ونسيجه مثل هذا المستوى يكون قد تجاوز مرحلة الاضطراب الى الاستقرار والسير على الطريق المستقيم المسالة فى المقام الاول مسالة تاليف . ولعل المشاهد العربى طعم مذاق التاليف الجيد فى قلائد طه حسين وجوده السحار الأيام وعلى هامش السيرة ومحمد رسول الله .

بيد أن التاليف وحده ، لا يمكن اعتباره ، فى التليفزيون ، بمثابة جواز المرور ، أو بمثابة الشهادة المسوغة للقبول . فالجانب الآخر من العمل الدرامى او الصبغة او الحرفية الفنية ،

مطلوب للتليفزيون العربي طبقة واعية من كتاب الدراما

تلك التى تتضمن عمليات ما يسمونه السيناريو أو التجزيء المشهدى ، والاخراج ، والتمثيل ، وبقية الإجراءات الحرفية التى تصب الحياة فى المؤلف وتجسمه للعيان ـ هذا الجانب جوهرى لا يستقيم عمل درامى متلفز بدونه . فهو الأصل . بدون المسرح وخشبته وفنونه لا توجد المسرحية . بدون المنبر لا مكان للخطيب والخطبة . كذلك بدون أداة التليفزيون لا وجود لمسلسل تليفزيونى . اذن فهو فن له أصالته وتميزه وخصائصه . قد يكون لب الدراما الانسانية واحدا . لكن فن الكتاب غير فن المسرح ، غير فن التليفزيون ، الالكترونى .

من هنا لم تظهر بعد عندنا ، فيما احسب ، طبقة من الدراميين التليفزيونيين المتفهمين تفهما علميا لأدائهم ، بطبيعتها البصرية (اى الدارسين لطبيعة الضوء والصوت والتصوير دراسة علمية) ، والمتفهمين لسيكولوجية الفرد وردود فعله وتجاوباته والمتفهمين ايضا للخصائص الذاتية فى مختلف الأدوات الأخرى مثل أداة الكتاب والراديو والمسرح . كثيرا ما يلتبس عليك الأمر وانت تشاهد المسلسل التليفزيونى العربى .. هل انت أمام مشهد مسرحى .. فهو ثابت ، جامد ، لا يتغير ، الحوار فيه مستفيض مستطيل .. أم أمام مشاهد تليفزيونية يتعين أن تتغير بمعدل زمنى لا يقاس بالثانية وإنما بجزء من الثانية ؟!

شيء آخر جوهرى يغيب عن المخرجين والسيناريست العرب وهو انهم لا يدركون حقيقة تختص بها أداة التليفزيون . مما ينتقص من اعمالهم



طه حسين ـ من عمالقة الادب الذين قدم لهم التليفزيون بعض الاعمال

عبد الحميد جودة السحار ـ معظم مؤلفاته تقريبا قدمها التليفزيون فى اعمال درامية

كثيرا من القيمة . تلك هى ان التليفزيون فى جوهره ، يكره الاصطناع . انه يكبر (الواقع والكائن) ، يقرب ، يبصر ، يسمع ، يصفى ، يجمل (بتشديد الباء والراء والصاد والميم والفاء واللام على الترتيب) . لكنه لا يحب التلفيق والتزييف والاصطناع إذ قل ان ينجح فى الايهام بها . لذلك يكون التليفزيون فى احسن حالاته عندما يقدم الاخبار والوقائع والأحداث وكل ما هو واقع وكائن وصادق . بل ان فيه لصفة عجيبة سحرية . عين الكاميرا الالكترونية ذات خصيصة يدركها المتعاملون تعاملا وثيقا مع الجهاز .. تلك هى التغلغل فى الأعماق ، والكشف عن الباطن ، وخاصة فى نفس الانسان . انه مثل أشعة إكس يكشف عما يكنه الباطن مما لا تراه العيون المجرده . تستطيع أن تتحسس الحكم على شخص تراه على الشاشة . تستطيع الحدس هل هذا الرجل صادق فيما يقول ، أم كاذب ، أم ملتو ، أم مزيف ، أم مذعور .. هل يتظاهر بما ليس فيه ؟!

نعم التليفزيون نمَّام

لذلك وبناء على هذه الحقيقة وهى كراهية التليفزيون للاصطناع تحاول الأداة عندما تقدم الدراما ـ إذ انها وان كانت تعكس واقعا إلا انها بعد كل شيء تاليف وخلق ـ نقول تحاول ان تلبسها لباس الواقع أو ان تقتطع من الواقع ذاته . فعندما تصور مجتمعا مثل مجتمع المزرعة ـ فى دالاس مثلا ـ نرى هذا المجتمع رؤية واقعية شاملة . ولا يتسرب إلينا أدنى شك فى أن المزرعة التى نراها مزرعة وهمية صنعها لنا المزيفون ! نرى البيت تحيط به الخضرة الحية والمراعى الشاسعة . ونرى اصطبلات الخيل . ونرى الخيل وسائسيها . ونرى الأبقار ترعى . ونرى رياضات المزرعة مثل مطاردة الثيران والابقار وصغار العجول وكيفية الامساك بها . ونرى كيف تساس الخيل الجامحة والثيران الهائجة . ونرى الآفات والأمراض التى تصيب البهائم وكيف تعالج . ثم نتذوق الحشائش

لنتأكد من صلاحيتها للماشية ترعاها .

نحن لا نرى فقط مشاهد المزرعة الخارجية ، بل نرى ايضا داخل البيت . حجرة النوم ، وغرفة المعيشة العامة والمائدة فى الفراندا ، وحمام السباحة والسابحين فيه من اهل البيت . كذلك نرى أفراد هذا المجتمع العاملين فى المكاتب فى العمائر الشاهقة . نرى العمارة ومصاعدها ونرى داخل المكتب .. رئيس المكتب بمكتبه وتليفوناته وخزانة مشروباته ونرى السكرتيرات والآلات الكاتبة ، تماما كما هم فى الحقيقة والواقع غير الروائى .

مجتمع المزرعة موزع بين الزرع والرعى فى ناحية وإنتاج البترول الموجود فى الأرض فى ناحية أخرى . لذلك نرى آبار البترول وهى تعمل وتضخ حقيقة لا تمويها ، ونرى المصفاة . نشهد على الطبيعة كل ذلك وكل مايدور من صراع فكرى حول طبيعة البترول وطبيعة المراعى والتنافر بينهما بسبب ما يصيب البيئة الزراعية من تلوث ..

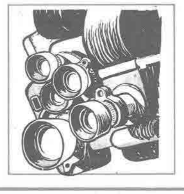
يمرض بعض اهـــل المزرعة فنرى المستشفى الحقيقى ، ومصحة عـامرة بنزلائها . ونرى المرضى يستشـــفون ، ويتدربون على الأجهزة المساعدة ، كمـا نرى الحديقة والشارع والسيارات تجرى فيه ، والجراجات والبارات والمقاهى والمطاعم .. المجتمع الكبير الشامل يمثل أمام عينيك وكأنما انت تسبح بين أرجائه .

أو انظر الى المسلسل المرح الضحاك ، المدعو سفينة الغرام .. انت ترى سفينة وليس إيهاما بسفينة . بل كأنك تعيش فيها . ترى الكبائن والقمرات ، وترى ظهر السفينة .. المشرب ، والملهى والبيانو قائم فيه ، والمسبح والمقاعد مصطفة حوله . وترى مشاهد الغرام بين الاحباء ومن خلفهم البحر الممتد ، بأمواجه ، ثائرا أو هادئا كبحر من زيت ، أو داكنا ، أو بترولى اللون . وترى المطبخ ، والمطعم منسقة فيه الموائد المهيئة تنسـيقاً لا شائبـــة فيه ، عمـــل مطعمين لا تليفزيونيين !

وقس على هـــذا فى كل مـا ترى من مسلسلات اجنبية وتفكر فيه .

ثم انظر بعد ذلك الى اى مسلســـل عربى يجرى على شاشتك . وتفكر فى ذلك الذى ذكرناه من الطبيعة والتوازن والتنقل بين المشـــاهد الداخليـــة والخارجية . وهىء نفسك لتنتقل مع المخرج من الداخل الى الخارج او بالعكس . أغلب الظن أن المخرج سيخيب أملك تماما . فالمشاهد كلها تجرى فى غرفة أو غرفتين او ثلاث ، كل شىء فيها ينطق بالزيف من أثاث وستائر وأبواب ونوافذ وزهور .

ان تكن الأحداث فى طائرة أو قطار فنحن نصنع فى الاستديو شيئاً يمثل ركنا من الطائرة أو ركنا فى عربة قطار .



وان تكن محطة سكة حديد فنحن لا نشهد غير غرفة مصنوعة تمثل غرفة ناظر المحطة .. ولا نرى رصيفاً ولا قضباناً ولا ركاباً ولا سيمافور ولا نرى قطاراً ولا نسمع صفيراً ولا .. ولا ..

فى مسلسل تجرى احداثه فى قرية ، لم نشهد من القرية غير غرفة نوم شيخ البلد ، وامرأته على الدوام نائمة فى سريرها ، وهو يستقبل فى نفس الغرفة خفيره وحلاقه وعيونه من الخطاب . لم نر حقلا ولا بقرة ولا حمارا ولا ترعة ولا كوم سباخ ولا شجرة صفصاف .. حتى الساقية والبئر والطريق صنعت جميعها داخل الاستديو !

تمويه وإيهام لا يخفى على عين مشاهد . ولعل فيه يكمن السر فيما ينتابه من انقباض وبرم ، فى حين ينشرح صدره ، عندما يمتد بصره وخياله ، عبر المشاهد الطبيعية الممتدة الآفاق التى تقدمها له المسلسلات الأجنبية الجيدة .

هل المنتجون والمخرجون العرب ، وهم عاملون على نطاق الوطن العربى كله ، يستهينون بعقلية الجمهور ، عامدين ، وكأنما يقولون له طظ !؟

هل المنتجون والمخرجون العرب يجهلون الحقائق الأساسية عن طبيعة الأداة التى يتعاملون معها وتغل عليهم ما تغل من دخل سمين ؟!

هل يصدق عليهم القول المشهور .. ان كنت لاتدرى فتلك مصيبة . أو كنت تدرى فالمصيبة اعظم ؟!

طبقـــة واعيـــة من الدراميين التليفزيونيين .. متى تظهر ؟!

محمد فتحى

شيء ما .. هاجس خفي في أعماق النفس ، يدفع الكثرة من الشعراء ، إلى الحديث عن الموت في زمن مبكر من حياتهم . يدورون حوله في قصائدهم . يرحبون به ، أو يخافون منه . وعندئذ يقبلون على الحياة يعبون منها قبل أن تقلع بهم السفينة يوماً .. إلى مالا نهاية !



الشعراء ورحلة العمر القصير.. الجميل!

بقلم : د. الطاهر أحمد مكي

اراد جوان مرجال (١٨٦٠ ـ ١٩١١) ، وهو شاعر عظيم من قطلونية ، إحدى مقاطعات اسبانيا في الشمال الشرقي ، أن يكتب قصيدة مدح اخيرة ، بعد ان ابدع الكثير من قصائد المديح ، وان تكون في مدح الموت ، فامسك القلم ذات ليلة ، وخط الكلمات التالية : « إن اعظم ما يمكن ان يمدح به الموت ان يقال إنه لا يوجد » ، ولم يكتب غير هذه الجملة ، ومات في اليوم التالي .

لم يتجاوز الشاعر الواقع ، ولم يكن متجنياً على الموت ولا منكراً له ، وإنما اراد ان يقول ان الموت لا وجود له في عالم التجربة ، وإنما يوجد في الاحساس فقط ، ويمكن أن نعيشه فقط ـ ويالة من تناقض ! ـ ولا يمكن أن نموته فعلا ، لأن الحي يمكن ان يفكر في العدم ، وأن يتصوره ويعايشه ، ولكنه لا يستطيع أن يكون العدم نفسه ، ثم يتجاوزه إلى الوجود ثانية ، ويصف ما رأى وأحس ، ومامن احد تحدث عن الموت تجربة ، كلنا نتحدث عنه تصوراً ، وإحساساً ، وما اكثر ما نتحدث عنه ! .

ورغم أن الشعر يضيق بالكلمات ذات المعاني الجامدة ، والمصطلحات المحددة ، لأنها تحاصر الخيال وتسجنه ، خيال المبدع والمتلقي على السواء ، ومع ان كلمة «الموت» ذات معنى واضح محدد ، إلا ان جهل المرء باسبابه وما وراءه ، وما يحدث اثناء الانتقال من الوجود الى العدم ، فتح الباب واسعا امام الخيال الانساني ليتصوره بالطريقة التي يحبها ، في ضوء مزاجه ومعتقداته ، وتسليمه او تمرده ، ورضاه او سخطه ، ومن ثم اصبح لفظ «الموت» كثير الدوران في الشعر العالمي والعربي على السواء .

شيء ما ، هاجس خفي في أعماق النفس ، يدفع الكثرة من الشعراء ، أحدّهم عبقرية ، واعظمهم إبداعا ، واسبقهم رحيلا عن الدنيا ، إلى الحديث عن الموت ، والدوران حوله في قصائدهم ، في زمن مبكر من حياتهم ، وإلى الترحيب به ، او الخوف منه ، فيقبلون على الحياة يعبون منها ، قبل ان تقلع بهم السفينة يوما الى عالم الفناء ، ويتكرر حديثهم عن الموت لفظا ومعنى وصفة ، حتى يكاد ان يصبح «فكرة ملحة» ، تقفز بين الابيات ، وتفرض نفسها على القصائد ، تتطلبها الدواعي حينا ، وتجيء عرضا لأوهى الاسباب في اغلب الاحيان .

كان طرفة من شعراء الجاهلية اول من تحدث عن الموت ، وابان عن رايه فيه : «إذا لم يكن من الموت بد ، وإذا لم يكن وراء الموت شيء ، وإذا كان الموت ملما بالفقير والغني ، بالجواد والبخيل ، بالشجاع والجبان ، افليس من الخير أن ياخذ المرء في هذه الحياة بلذات النفس والجسم جميعا ، فيرضي نفسه باداء الواجب ، والارتفاع عن الدنيات ، ويرضي جسمه في الاخذ باعظم نصيب ممكن يتاح له من اللذة والمتاع» ؟ .

الا ايهاذا اللائمي اشهد الوغى وأن احضر اللذات هل انت مخلدي
فان كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني ابادرها بما ملكت يدي
لعمرك إن الموت ، ما اخطا الفتى لكا لطول المرخى وثنياه باليد
ارى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوي في البطالة مفسد .

وقتل طرفة ، وهو دون الثلاثين .

وتقول القصة إن عامل عمرو بن هند على البحرين قال له ، حين اراد أن ينفذ فيه حكما بالموت : إني قاتلك لا محالة ، فاختر لنفسك ميتة تهواها . فقال : إن كان لابد فاسقني الخمر ،

واقصدني . ففعل به ذلك ، فمازال ينزف دمه حتى مات .

ويمضي العصر الجاهلي ، ويجيء الاسلام ، وتفيض الجزيرة العربية باهلها شرقا وغربا ، واينما ذهبوا يحملون معهم دينهم ولغتهم ، وتدخل الحياة الفكرية فى صراع مرير من الآراء والمبادىء والمعتقدات ، ويصبح الموت قدر الله لا مهرب منه ، ويمضى عدد من الشعراء به الى جوانب مختلفة ، فياخذ منه ابو العتاهية مقرعة يذكّر بها المقبلين على الدنيا ، والغافلين عن الآخرة ، فى عظات خطابية ، افقدها الكثير من تاثيرها،انه توجه بها الى الآخرين ، ولم يقف بها عند نفسه ولا مرة واحدة :

لدوا للموت وابنوا للخراب
فكلكم يصير إلى تباب
لمن نبني ونحن إلى تراب
نصير ، كما خلقنا من تراب

وقد تضطرب نفسه لمشاهدة البؤس البشري على ايامه ، فتجيء صرخاته حديثا عن الموت ، وتعلقا به ، فى ان يحسم الأمر ، وان يلقى العظة امام المقبلين على الدنيا ، يريدونها باي ثمن ، ومهما كانت تعاسة الآخرين فادحة :

حسمت المنى ، ياموت ، حسما مبرّحا
وعلّمت ، ياموت ، البكاء البواكيا
ومزقتنا ، ياموت ، كل ممزق
وعرفتنا ، ياموت ، منك الدواهيا
افي كل يوم نحن نلقى جنازة
وفى كل يوم منك نسمع ناديا
وفى كل يوم منك نرثى لمعول
وفى كل يوم نحن نسعد باليا

وكان شعر الرثاء فى الأصل يهتم بالميت فحسب ، وقلما يعرض للموت نفسه فلما حاول المتنبي ان يرثى حالت كبرياؤه دون ان يبكي او يتحسر ، فجعل من رثائه بسطا لفلسفته فى الحياة والموت ، ورأى الموت أمرا محتوما على كل حي ، لأن الحياة من كسب الزمان ، والأجسام من تراب الأرض ، وسوف تستعيد الأرض ما أخذ منها ، ولذلك ينبغي الا نجزع امام الموت ، وان نستقبله كأمر محتوم :

نحن بنو الموتى فما بالنا
نعاف ما لابد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا
على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوه
وهذه الأجسام من تربه

وقد اختلف الناس على كل شيء إلا الموت ، فقد اتفقوا عليه ، ثم اختلفوا فى حقيقته ، فقال قوم : إنه هلاك للجسم تخلص به النفس ، وقال آخرون : إنه هلاك للجسم والنفس معا ، وتردد المتنبي بينهما ، فلم يستطع ان ينتهي إلى نتيجة حاسمة ، فأقامه الفكر بين العجز والتعب :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم
إلا على شجب والخلف فى الشجب
فقيل : تخلص نفس المرء سالمة
وقيل : تَشرك جسمَ المرء فى العطب
ومن تفكر فى الدنيا ومهجته
اقامه الفكر بين العجز والتعب .

والموت آت لا محالة ، ومن يخال انه ناج بما يملك من مال ، او يلوذ به من جاه ، فهو احمق :

فالموت آت والنفوس نفائس
والمستغر بما لديه الأحمق

وكما لا يرحم السلطان مهما قوى واستبد ، ولا يتردد أمام صاحب المال مهما طاول وحاور ، لا يضعف أمام الجمال مهما سحر وفتن:

يدفّن بعضنا بعضا وتمشى
اواخرنا على هام الأوالي
وكم عين مُقَبَّلة النواحي
كحيل بالجنادل والرمال
ومغض كان لا يغضي لخطب
وبال كان يَفكّرُ فى الهزال

● إنه يبدو مخيفاً لنا لأننا نتخيل أننا سنلقاه.. لكن في الحقيقة لا لقاء بيننا

والمتنبي يحتقر الخوف من الموت ، ويذم الجزع قبيل فرقة الروح ، ويندد بالأسى بعدها :

إلف هذا الهواء اوقع فى الأنـ
فس ان الحمام مر المذاق
والأسى قبل فرقة الروح عجز
والأسى لا يكون بعد الفراق

وهو فى هذا يلتقي مع ابيقور ، الفيلسوف اليوناني ، في فكرته عن الموت ، إذ يقول : « إن الموت يبدو مخيفا لنا ، لأننا نتخيل اننا سنلقاه ، ولكن فى الحقيقة لا لقاء بيننا ، فاننا حينما نكون لا يكون موت ، وحينما يكون موت لا يكون لنا وجود » .

وجاءت رؤية المعري للموت وليدة فلسفته ، وجماع فكر حائر متردد ، ركب صاحبه عقله ، ومضى به ، تتدافعه العواصف الهوج ، فلم يستقر على شاطىء ، ولا انتهى إلى رأي واضح محدد ، لأن الأمر غم عليه فى أمور كثيرة ، فقد عاش مرحلة انتشر فيها الفساد ، وعم الشر ، وشاع البلاء ، فاثر كل ذلك فى نفسه ودفع به الى التشاؤم ، واثر فى سلوكه فلزم الوحدة ، وسجن نفسه زهاء خمسين عاما ، واثر فى ادبه وتجلى ذلك واضحا فى « اللزوميات » ، وفى «الفصول والغايات» :

اراني فى الثلاثة من سجوني
فلا تسال عن الخبر النبيث
لفقدي ناظرى ولزوم بيتي
وكون النفس فى الجسد الخبيث .

لقد هجرته الحياة فهجرها ، وأسرفت فى إيذائه فحمل عليها ، وجلبت له البؤس فيئس منها ، ولم ترفعه الى المنزلة التى يستحقها فاخذ يحط من قدرها ، ويذيع فى الناس أن الموت أفضل منها :

ربي متى ارحل عن هذه الد
نيا فاني قد اطلت المقام
لم ادر ما نجمي ولكنه
فى النحس مذ كان جرى واستقام
فلا صديقي يترجى يدى

ولا عـدوى يتخـشى انتقـام
والعيـن سقـم للفـتى مُنْصِـب
والمـوت يـاتي بشفـاء السقـام
والتـرب مثـواى ومثواهـم
ومـا راينـا احـداً منهـم قـام .

واخيرا اوجز ابو العـلاء فلسفته فى الموت فى قصيدته الدالية الشهيرة ، التى رثا بها ابا حمزة الفقيه ، ومطلعهـا :

غيـر مجـد فـى ملتـى واعتقـادي
نـوح بـاك ولا ترنـم شـادي .

وتعد من روائع الشعر العربي ، فقد جمعت بين صدق اللوعة وعمق الفكرة ، ومزجت بين عاطفة متاثرة مؤثرة تتغلغل إلى أعماق النفس، حكمة رصينة معبرة تتجلى فيها قيمة الحياة بازاء الموت ، فى تصوير رائع ، ولفظ حسن ، وكاني به يرثى فيها البشرية جمعاء ، فهو يرى الارض فاضت بالمقابر على امتداد تاريخ الانسانية . فاستحالت الأجساد ترابا ، وتحولت إلى معادن نستخرجها ، او اسمدة تخصب الأرض وتغذى الشجر ، او ترابا نسير عليه ، ورب حفنة منه بين ايدينا ، هي فى اصلها البعيد رماد جسد ، وما اكثر القبور التى تستقبل اكثر من وافد ، يختلفون صفات واخلاقا :

صاح ! ، هذى قبورنا تملأ الرحـب
فاين القبور من عهد عـاد
خفف الوطء ما اظـن اديم الارض
إلا من هذه الاجساد
سر إن اسطعـت فى الهواء رويدا
لا اختيالا على رفات العباد
رب لحد قد صار لحدا مرارا
ضاحك من تزاحم الأضداد
تعب كلها الحياة . فما اعجب إلا
من راغب فى ازديـاد .

ويذبل وهج الحضارة العربية ، ويعود كل شيء حديثا معادا وقولا مكرورا ، ولم يعد الشعراء يلتفتون الى الموت قوة وظاهرة ، حتى حين يبكون رفاقهم ، وإنما قنعوا بان يعددوا ماكان لهم من صفات ممدوحة حقا او متخيلة ، دون ان تكون لديهم القوة والشجاعة ، وتوهج الداخل ، لكي يقفوا امام الموت نفسه متاملين . وجاء علماء البلاغة بعدهم لياخذوا من اشعارهم تعريفا للرثاء فقالوا عنه إنه لا يختلف عن المديح إلا فى صيغة الفعل ، هذا يستخدم المضارع ، وذاك يتحدث عن الماضى .

ويركن الادب العربـي مع اهله الى إغفاءة طويلة ، حتى إذا استيقظ ، وتحرك ، ووقف على قدميه ، ايقظهم معه ، وتغذى بتيارات وثقافات جديدة ، فكان له مع نهضتنا هذا الثراء فى الشعر والنغم ، والاتجاهات والقضايا ، والصدق والمغامرة ، وكان الموت بين ما شغل الشعراء ، والرومانسيين منهم بخاصة ، وقضوا امامه امرا غامضا ، وقوة ماحقة ، وسرا محيرا ، وقدرا لا حيلة لاحد فى دفعه ، وليس بكاء على رفاق ذاهبين فحسب ، وكان اكثر المتاملين له ، والمتحدثين عنه ، اسبق الجميع رحيلا عن الدنيا .

كان محمد عبد المعطي الهمشري (١٩٠٨ ـ ١٩٣٨) ، اكثر الشعراء حبا فى الحياة ، وفرقا من الموت ، واشدهم إصرارا على الحديث عنه ، وقلما تخلو له قصيدة فى مرحلته الأولى من الاشارة إليه ، كانما استقر فى اعماقه نبعا ، فهو يلون انغامه بالحزن والتشاؤم والبكاء ، رغم انه كان موفور الصحة والعافية ، يفيض نضارة وقوة ، وشبابا وحيوية ، فهو عملاق ، عريض المنكبين ، لا يشكو مرضا ، ويحب ان يتانق فى ملبسه ، ويمشى فى الارض مرحا ، يشق طريقه فى ثقة وكبرياء واعتداد . ومع ذلك يكره ركوب البحر مخافة ان يغرق ، وإذا سار فى الشارع اثر وسطه ، وابتعد عن جانبيه حتى لا تسقط المباني عليه فتدفنه تحت انقاضها .

سِرْ إن اسطعت في الهواء رويداً
لا اختيالاً على رفات العباد
تعبٌ كُلّها الحياة فما
أعجبُ إلا مِنْ راغبٍ فِي ازديادِ

فى قصيدة « عاصفة فى سكون الليل » ، وقالها ولم يزل طالباً فى كلية الآداب ، يطل الموت فى كثير من مقاطعها ، رغم طولها ، فلذا حمل الليل الحزن لقلبه ، واقام منه هيكلا ، جعل هو من الموت « شَمَّاساً » يرتل فيه الحانه ، فتجيء اشعاره الحزينة صدى لها :

هاهو الليـل كمـا بدا
يحمـل الحـزن لقلبـي والحنيـن
هيكل الاحـزان فى مذبحـه
قـرّ العشـاق قربـان العيون
رتـل الشمـاس فيـه لحنـه
وصـدى ترتيلـه هـذى الشجـون .

ويناجي الليل يترضاه ، يامل عنده العزاء ، ويود ان ينشده اغنية فنيت فى الزمـن ، واستحالـت فى البلى قبرة ، غير انها لا تشقشق فجرا على غصن بان ، ولا تهدهد ضحى فى ايك حديقة ، وإنما تغنى ليلا فى وادي الموت ، واستحالت احلامه زهورا فى عالم غامض ، تنعق موتا ، ويتدلى عودها على اشباح من الموتى :

إننى ياليـل احكي غنوة
فنيت فيـك على مـر السنين
واستحالـت فى البلـى قُبَّرَة
تتغنى فى دجـى وادي المنون
....
واستحالت عندها من غضـب
زهـرة فى عالم غير مبين
تنضح الموت .. وتدلى عودها
نحو اشباح المنايا العابرين .

والشاعر عاطفة غالها فكر طيه الموت ، وحين اقترب من الليل يحاول ان يعرف اسرار الاسى والانين ، استحالت هذه جداول تعبرها «فزعات الموت ليلا فى سفين» . وبعد اعوام خمسة عاد الهمشرى الى هذه القصيدة ، يشذبهـا ، ويصقلها ، ويستبدل بعض الفاظها ، حذف بعض ابياتها وابقى على بعضها ، فعل ذلك فى اواخر حياته ، قبل ان يدهمه الموت ، ونشرت بعد ان فارق دنيانا ، ومن عجب انه لم يمسس منها بيتا واحدا ، ولا فكرة واحدة ، مما تتصل بالموت .

وقال قصيدته «الذكريات» فى نفس العام

الذى ابدع فيه «عاصفة فى سكون الليل» ، وهو ١٩٣٣ ، واخذ فيها يسترجع ماضيه ، ويتحدث عن الحب ، مما لا مجال معه لذكر الموت ، لكن شيئا فى اعماقه ، يدفع به ، على غير ارادة منه قطعا ، الى ابياته هذه ، فيقول ان حبه لا يخشى الموت ، وكانما ادرك ان قولته هذه كانت مجازفة ، لا تعبر عن إحساس يعمل فى اعماقه ، فعاد يسائل حبه : ماذا يصنع اذا حاصره الموت ، هل يواجهه ، ويلقى على يديه مصرعه كما تفعل النفس ، وما يلبث ان يسترد ايمانه به ، فيرى الحب اقوى ، فيهيب به : «انت للموت موت» ، وانت صنو الحياة ، ونور الله ، وسوف تبقى بعد الفناء شبحا شفافا تسبح فى الفضاء ، ترقب الكون فى سبات الموت ، وتراها مثل حلم يرف :

ويك يا حب ، اين تمضى اذا ما
نسجت حولك المنون شباكا
وبعثت الانفاس معسولة حيـ
ـرى اليها تبثها شكواكا ؟
اترى يا هوى ستقتحم المو
ت وتلقى كالنفس منه رداكا ؟
....
ايها الحب انت للموت موت
ذو غلاب على البلى مستخف
سوف تبقى بعد الفناء سبوحا
فى فضاء من الاثير يشف
تلحظ الكـــون فى ســـبات المنايـــا
مثـــل رؤيـــا تهـــوى بـــه وتـــدف

وفى هذه السن الباكرة يخص الموت بقصيدة كاملة ، ويجعل منه كائنا وهو عدم ، وجسدا وهو لا شىء ، وله سفن يلفها فى غياهبه السود ، تمضى بمن تقل خفافا ، وتموت السنون ليلا ،

ياخيالي ! ، مـــاذا يطـــوف بقلبـــي
ياخيالـــي ، مـــاذا يســـارق اذنـــي
اى شىء احـــس ؟ اى دبيـــب
مستلـــذ يخـــدر الـــروح منـــى
إنـــه ارغـــن الفنـــاء يغـــني
ويعيـــد الحيـــاة فـــي مثـــل لحـــن

ويرى فى شاطىء الاعراف واديا للموت ، الطيور فيـه تنعب موتـــا ، وكل ما تقع عليـه العين موت :

لهفـــي ! كـــل مـــا ارى فهـــو مـــوت
ينـــذر الارض موعـــدا بالثبـــور

وفيه يستريح الزمان والموت ، ومن ظلام الكهوف تنبعث الاحـــلام تشكـــو المـــوت ، وتستغيـــث منـــه الارواح وتبكي ، ويفـــزع الجن والاناسي ويضنى .

رسل الليـــل ان تخـــوض ظلامـــه
لو راوه خـــروا لديـــه سكارى
يسالون : ايـــان يـــوم القيـــامه ؟ .

وإذا اعجبه السكون واطمأن إليه لم ير فيه إلا انه حاكم الموت ، وكان يحكم الحياة قبله ، فاذا جمح به الخيال تصور مغنيا فى وادى الموت يغني الفانين لحنا صامتا ، والحب طائر تلفه عواصف الموت ، فاذا احب اشتهى ان يموت راشفا ثغره ، فاذا مات فشعاع ذاب فى قطره ، او نحلة ماتت على زهرة ، ويرى القمر عاشقا ، فاذا مدحه خال النفوس حانت منيتها ، وفي عيونه سحر سوف يحييها .

ويوقف قصيدة باكملها على «حياة الشاعر» ، فيناجي خياله : إن ضحكاتنا ، والامنا ، ومشاعرنا ، غدا تفنى ، وتسلمنا الحياة إلى العدم ، « ويحكم فينا الموت والموت جائر » ، ثم يسائل نفسه : لقد عشت فى دنيا الخيال معذبا فهل ترانى اموت سعيدا ؟

كان الهمشرى يغنى للموت وهو فى سن الصبا والمراهقة ، تلميذا فى الثانوى ، وطالبا فى كلية الآداب ، وحيدا يحلم ويامل ويخاف ، ويلوذ من نفسه الى نفسه ، فلما عمل محررا فى مجلة التعاون بوزارة الزراعة ، وكان يراس تحريرها الدكتور ابراهيم رشاد ، ولم يكن مجرد موظف عادى ، وإنما فيلسوفا داعية ، يؤمن برسالته ، ومعه الأديب القصاص الدكتور محمد ابو طايلة ، والشاعر الراوية « محمد مصطفى حمام » ، وجد فى صحبتهم انسا اخرجه من احزانه ، ودفئا انساه برودة الوحدة ، ورفقة ازاحت عنه قتامة الحياة ، فنسي الموت والحديث عنه ، والفناء وما يتصل به ، وبدا يغنى للفلاحين ، ويصف حياتهم ومواشيهم ، ويترجم عن الانجليزية شعرا ما يوائم هذا الاتجاه ، ومن عجب ان موجة التفاؤل التى غمرته ، ولفت احاسيسه الداخلية ، لم تنجه من الموت المفاجىء الذى كان يخافه ، فاجريت له عملية الزائدة الدودية ، واثناء العملية اصيبت امعاؤه بالشلل ، ولقى وجه ربه بعد اربعة ايام ، وهو فى عنفوان شبابه لما يتجاوز الثلاثين من عمره إلا ببضعة شهور :

ومضي الركب فى الردى وتلاشى
اثر الركب فى « ضريح الليالى »
فكان الحيـــاة كانـــت منامـــا
وغـــرور الحيـــاة طيف خيـــال

كان حديث الهمشري عن الموت رومانسيا خالصا ، حين يناجيه او يخافه ، حين يتحدث عنه ويتامل افعاله ، ولكنه لم يتعمق مشكلة الحياة والموت فلسفيا ، وانما وقف عند ظاهرها فحسب ، وهو امر طبيعي ، فقد عرض لها فتى لم تحنكه التجربة ، وجاءت وفق شعور لا اثر للعقل فيها ، وكانت إرهاصا برحلته المبكرة ، وافتعالا ان نردها إلى تاثره بالشاعر الانجليزى كيتس ، وكان فى موقفه من الحياة والموت مثله ، او الى جماعة « ابولو » التى احتضنته ، وفتحت له صدر مجلتها ، لان كثيرين مثله .

● في آخـر لحظاتـه مع الحياة .. بلغت معايشـة الشـابي للموت حَدَّ الترحـيب بـه ، واللهفـة على لقائـه ، بعـد رحـلة ثـرية غـنى فيـها الحـياة وتـأمل العصافـير والربيـع والشـمس

الشعراء
ورحلة العمر القصير.. الجميل!

امتدت بهم الحياة ، وكانوا رومانسيين خالصين ، ولكنهم لم يعرضوا للموت من قريب او بعيد ، وإنما اقبلوا على الحياة نهمين ، وعاشوها طويلا ، واعتصروها حتى اخر قطرة ، واحتسوا كاسها حتى الثمالة ، والوحيد من بينهم الذى شاركه مشاعره واتجاهه رحل عن الحياة فى مثل عمره ، وحتى دونه باعوام ، واعنى به : ابا القاسم الشابي .

رحل الشابي عن الدنيا فى عمر الزهور ، كما يقال ، مات فى الخامسة والعشرين من عمره ، بعد أن عانى المرض سنوات ، ومات شيئا فشيئا ، ومن ثم كان لحديثه عن الموت رحيق متميز ، فقد كان الموت قاب قوسين منه او ادنى لسنوات طويلة ، فلم يعد يخافه او يخشاه ، ولم ير فيه شيئا غير عادي او مفاجاة غير متوقعة ، وهو فى حديثه عنه اصيل يستمد افكاره وصوره من دفق مشاعره وفيض خاطره ، فجاء موقفه منه ، والتعبير عنه ، جديدا وطريفا :

فى اخر لحظاته مع الحياة ، واخر قصيدة له فى الدنيا ، وهي « فى ظل وادى الموت » ، بلغت معايشة الشابي للموت حد الترحيب به ، واللهفة على لقائه ، بعد رحلة ثرية مع الحياة ، شدا فيها وغنى ، وتامل العصافير والربيع والشمس ، وبدا الظلام يلفه ويتغشاه من كل جوانبه ، والظلام والموت توامان فى شعر الشابي ، وراى نفسه غريبا فى الدنيا ، بعد أن عدا فى شعاب الحياة حافيا ، واكل التراب حتى مله ، وشرب الدموع حتى ارتوى ، وخبر الأحلام والحب ، والالام والياس والأسى ، حتى شاب فتى :

ثـــم مـــاذا ؟
هذا انـــا : صرت فى الدنيـــا
بعيدا عن لهوهـــا وغناهـــا
فى ظـلام الفنـــاء ادفن ايامي
ولا استطيع حتى بكاهـــا
وزهور الحيـــاة تهـوى بصمـت
محـزن ، مضجـــر ، على قدميـــا
جـف سحـر الحيـاة ياقلبي الباكى
فهيـا ،نجرب المـوت .. هيـا !

«هيا نجرب الموت هيا» ، فى بساطة القى بها الشاعر العظيم ، كما لو كان يدعو حبيبة له الى مغامرة فاتنـة .

ولم يكن الشابي وهو يفتح قلبه وذراعيه للموت متشائما ولا قانطـا ، وإنما نهر متدفق من الأحلام والطموح والارادة ، وبها راح يبشر بين امته ، يود أن يرى شعبه وقد تحرر من الاستعمار والفقر والجهل ، فابدع فنا ، وصاغ انغاما ، ولكن الواقع مختلف ، فلا شيء « إلا الموت والصمت والاسى والظلام » ، فاذا يئس منه ارتحل بعيدا ينشد السلام فى «قبور الزمان» ، واثر البقاء مع الموتى ، وارتضى القبر سكنا ، وتناسى الحياة والزمان ، وحن الى العالم الذى وفد منه ، فما قبل الحياة وما بعدها صنوان :

ليتني لـم ازل
ـ كما كنت ـ ضـــــوءا ،
شائعـــا فى الوجود غير سجيـن .

وهو فى هذا يلتقى مع بعض الاتجاهات الفلسفية ، إسلامية وعالمية ، ومع اراء المتصوفة ، فى أن النفس ، او الروح ، نور من اصل علوى ، ينزع دائما الى العودة الى الاصل الذي صدر عنه ، حيث الصفاء والطهر ، ولا يعوقه عن ذلك إلا ادران الجسد وشوائبه ، فالروح سجينة فى الجسد ، والموت يحررها منه .

وإذا كنا ندين للمتنبي بوصفه الرائع للحمى حين زارته وهو فى مصر ، وتقديم صورة مجسمة لها نابضة بالحياة ، فنحن ندين بتجسيم الموت ، وتصويره كائنا يرى ويلمس ، ويجيء ويمضى امامنا ، لابي القاسم الشابي ، وهي صورة لا اذكر لها شبيها فيما قرات ، فى ادبنا العربي أو الاجنبي ، وكمال الصورة واستغراقها ينبيء بان الموت لم يعد في نظر الشاعر كابوسا مفزعا يهرب من ذكره ، ويجيء لماما بغيضا على خاطره . إنه يهبط على المرء متقنعا بالصمت كاعماق الكهوف ، مظلما كالليل البهيم ، متلصصا تحمله اجنحة السكون ، ولكن ظلام الدجى رحيم ، وطيف الموت قاس لا يرق فى مواجهة الحياة ، ولاترتعش يده امام تملق القلب ، يعتصر الزهرة فيعريها من اوراقها ، ويرى الطير طيفه فيجمد النشيد فى اعماقه :

قد قنعت كف المســاء الموت
بالصمت الرهيب ،
فغدا كاعماق الكهوف
بـلا ضجيج او وجيـب ،
ياتي باجنحـة السكـون
كانـه الليـل البهيم .
لكـن طيـف الموت قـاس
والدجــى طيف رحيم .

....
ارايـت ازهــار الربيـــع
وقـــد ذوت اوراقهـــا
فهـوت إلـى صـــدر التراب
وقـد قضـــت اشواقهـــا
ارايـت شـحرور الفــلا
مترنمــا بيـن الغصــون
جمـــد النشيـــد بصدره
لمـــا راى طيـــف المنون ؟

وكان الشابي فى الأيام الأولى من مرضه قوى الارادة ، واسع الأماني ، عريض الأحـلام والآمـال ، فجاء تشبثـــه بالحياة قويا فى مستوى روحـه ومشاعـــره :

ساعيـش رغـم الـــداء والأعـــداء
كالنســـر فـوق القمـة الشمـــاء
ارنو إلـــى الشمـــس المضيئـة هازئـــا
بالسحب والامطـــار والانـــواء
لا المـــح الظـــل الكئيـب
ولا ارى
ما في قـــرار الهـوة السـوداء
واسيـر فـي دنيـــا المشاعـــر حالمـا
غـــردا
وتلـك طبيعـــة الشعـــراء !

وكان تشبثـــه بالحيـــاة وهمـــا ، وانتصـــاره على الموت طيفـــا ، فلمـــا انزاحـــت عنـــه الغشـــاوة ، ادرك الحقيقـــة واعيـــا ، وبكل ما في روحـــه من عذوبة ، وما في شعـــره من طلاوة ، احتضـــن نهايتـــه متفائـــلا ، فلـــم يعد له بقـــاء فى هذه الدنيا ، ولم ير الموت ظلاما كما اعتاد ، ولا جاء فى الظلام ، وإنما أصبح فجرا انشـــق عن الليـــل ، جاء مع هدير المياه ، وربيع الحياة ، يدعوه إلى الرحيل،فيهز قلبـــه ، ويعلنه بالا بقاء لـــه ، فنشر قلوعه ، وخلف الهمـــوم وراءه ، وجرى زورقه فى الخضم العظيم من عالم الفنـــاء ، ومضى يلوح : الوداع .. الوداع ! :

من وراء الظـــلام
وهدير الميـــاه .

قد دعاني الصباح
وربيع الحياه .
ياله من دعاء
هز قلبي صداه .
لم يعد لي بقاء
فوق هذى البقاع .
الوداع الوداع !
ياجبال الهموم
ياضباب الأسى
يافجاج الجحيم
قد جرى زورقي
فى الخضم العظيم
ونشرت القلاع
فالوداع الوداع !

هذه الرقة فى تناول الموت والحديث عنه ، والعذوبة فى تصويره ، مع الاعتراف بقسوته ، لا تتاتى إلا لروح شفاف راى وراء العدم شيئا اجمل من الحياة ، وراى فى هذه الدنيا ما هو اتعس واقسى من الموت ! .

هذا الاحساس الصارخ بالموت عند من رحلوا عن الحياة فى زمن مبكر ، وليد شىء فى اعماق النفس يتجاوز التقليد ، وهو ليس وقفا على الأدب العربى وحده ، وإنما نجده فى الآداب العالمية الأخرى كلها ، وساختار منهم شاعرا واحداً فحسب ، قل ان يعرفه احد فى اللغة العربية ، او حتى لا يوجد ، ومن ثم فلا تاثير له فى احد من شعرائها ، ولكنه من ابناء حوض البحر الابيض المتوسط ، وهو عند من يؤمنون بالحتمية الجغرافية ، له طابع مشترك ، وخصائص تجمع بين اهله فى العمق ، وتؤثر فى سلوكهم ، وتقارب بين مشاعرهم ، وتوحد نظرتهم الى الكون ، وموقفهم من الحياة والموت رغم الاختلاف الظاهر بينهم ، أو اللون ، أو الأزياء ، وهذا الشاعر من ايطاليا ، وهو : سرجيو كورازينى (١٨٨٧ ـ ١٩٠٧ م) .

رحل كورازينى عن الدنيا فتى فى عمر الزهور لما يتجاوز الواحد والعشرين من عمره ، ورغم ان حياته كانت قصيرة للغاية ، كان شاعرا ملهما ابدع حركة ، وانشا مذهبا ، وخلق فى عالم الفن اتجاهاً ، ودخلت مدرسته تاريخ النقد الأدبى تحت اسم «الشفقيون» ، وازدهرت فى روما بين عامى ١٩٠٥ و ١٩١٠ م ، وجاءت تعبيرا عن مجتمع قلق ، ومغلق فى وجه التجديد ، ويتسم بالعجز والخوف ، فسجن شعراؤها انفسهم داخل ذواتهم يقتاتون حزنا جافا ، وينطوون على الام لا سبيل الى الشفاء منها ، وجاءوا رمز عالم منهك يتهيا للرحيل ، ويومىء فى الوقت نفسه الى ان الشعر الايطالى على ابواب فجر جديد .

بدأ كورازينى يتغنى بالموت صبيا ، مدفوعا الى ذلك دفعا بقوى داخلية لا حيلة له فى ردها ولم يكن راضيا عن اتجاهه هذا ، وكان يقول عن نفسه إنه ليس بشاعر ، فلكى تكون شاعرا يجب ان تحب الحياة ، وان تعيشها بكل جوارحك ، وان تعتصر مباهجها آخر قطرة ، وان تندمج فيها حتى تصير معها شيئا واحداً ، ولكنه على النقيض من هذا كله ، لم ير غير الموت ، ولم يشعر بشىء غيره ، ولم يغن لأحد سواه :

اه ، إنى مريض حقا
واموت كل يوم قليلا
انظر : كيف تمضى الأشياء
ولهذا لست شاعرا
اعرف
كى أكون شاعراً علىّ
ان أعيش حياة تختلف تماما
ولكنى ـ يا إلهى ! ـ
لا اعرف شيئا
غير الموت .
آمين ! .

ان يموت او يبكى كل الأشياء ، يبكيها حتى تعز عليه الدموع نفسها ، وهو مشفق على نفسه تقمص فى مواجهتها شخصاً آخر محايداً يرقب الامها وعذاباتها ، ومن يفعل صنيعه ليس شاعرا ، إنما هو طفل يبكى ، فحين تغيب الحياة يمضى الشعر معها ، واصبح مفهومه مع «الشفقيين» ان يرقب واقع الحياة ، وقد تحول كل شىء فيها الى خرائب واحزان :

لماذا تدعونى شاعرا
انا لست شاعرا
لست إلا طفلا صغيرا يبكى
انظر :
لا املك غير الدموع اقدمها للصمت
لماذا تدعونى شاعراً .
احزانى
مجرد احزان مسكينة وشائعة .
ومباهجى
كانت بسيطة وساذجة ،
بالغة السذاجة
فاذا اعترفت بها اخجلتنى
افكر اليوم فى ان اموت
اريد ان اموت
لمجرد انى متعب فحسب
انا الآن مراة مهملة .
مراة غلبانة حزينة
انا لست شاعراً .
وإنما صبى حزين يريد ان يبكى !

لماذا كان الشعراء العباقرة وحدهم هم الذين يغازلون الموت سباقين ، ويصحبونه مبكرين ؟

الحق ان الخوف من الموت يختفى ، فيما ارى كلما ارتفع ادراكنا بمعنى الحياة ، ووظيفتنا فيها ، ومن ثم يصبح تقبله شيئا سهلا حين يدرك المرء دوره واهميته ، فالحياة نفسها لا قيمة لها ما لم يكن المرء قادرا على ان يميز نفسه عن الآخرين برسالة يؤديها او دور يضطلع به ، وحين يمل المرء الحياة ، ولا صلة لهذا بقصرها او امتدادها ، ويشعر بان يومه كامسه ، وغده سيكون كيومه ، لا يحمل جديدا له ، ولا لغيره على يده ، يصبح الموت شيئا جديدا بالنسبة له يمكن ان ينتظره وان يتطلع اليه . ومثل هذا الاستعداد لا تجده عند الانسان العادى ، وإنما هو وقف على العباقرة وحدهم ! .

د. الطاهر احمد مكى

● الحياة لاقيمة لها مالم يكن المرء قادرًا على أن يميز نفسه على الآخرين برسالة يؤديها ودور يقوم به . إدراكنا لمعنى الحياة يجعلنا أقل خوفًا

كاتب مجهول اخر يفوز بالجائزة !

باقتراب اكتوبر من كل عام تتصاعد فورة تخمين من سيفوز بجائزة نوبل للادب ، وكانت الدوائر الادبية الغربية تتوقع فوز واحد من عدة كتاب ابرزتهم فى العامين الاخيرين بشكل خاص ، منهم الروائى البريطانى غراهام غرين والروائى نايبول ، ولكن ستوكهلم كانت تبشر بفوز واحد من الكتاب المسرحيين من امثال هارولد بينتر وارثر ميلر وبيتر فايس ، لكن جائزة هذا العام ، مثل جائزة العام الماضى كانت من نصيب كاتب يهودى الاصل ، بلغارى المولد ، اوروبى النشاة ، بريطانى الجواز ، هو ايلياس كانيتى ، خير من يمثل «اليهودى المتجول» وبذا صارت جائزة نوبل للادب وللعام الثالث على التوالى الى كاتب ظل خارج تيار الكتابة المؤثرة على الاجيال المعاصرة وغير معروف حتى فى الدوائر الاكاديمية او الاعلامية سواء فى بريطانيا التى ظل يحيا بها منذ عام ١٩٣٩ او المانيا التى يكتب بلغتها ، لانه يهودى ، كما قال والقاذفات الالمانية النازية تمطر سماء لندن عام ١٩٤٤ بوابل من قنابلها : «لو قدر لى ان اعيش فان ذلك بفضل جوته» . وقد حاولت بعض الصحف الغربية ان تترك الانطباع بانه اول كاتب بلغارى يفوز بجائزة نوبل ولكن «النيوزويك» الامريكية اكدت انه

الياس كانيتى



لايسهل تحديد هذا الكاتب لامن جهة جنسيته او نوعه الادبى ، فهو يهودى من اصل اسبانى ، ولد فى بلغاريا عام ١٩٠٥ ، ونشا فى انجلترا ، والنمسا ، وسويسرا ، والمانيا ، وهاجر الى فرنسا عام ١٩٣٨ ، وظل يسكن فى مدينة لندن منذ عام ١٩٣٩ فى عزلة تامة حتى ان اسمه لايظهر فى اى قائمة تعريفية بالكتاب وغيرهم .

ويبدو ان لجنة الاكاديمية السويدية لجوائز نوبل قد شعرت بانها بالغت فعلا فى انتشالها لمغمور لاغداق ما يقارب ١٨٠ الف دولار عليه ، اذ قال احد اعضائها :

«اننا يجب ان ننتصف للادب المكتوب فى الدول قاصرة النمو» واضاف : «بالطبع كانت هناك اخطاء .. وربما تمضى سنوات كثيرة قبل ان يتم تقدير قيمة كاتب ما ..» .

وكلمته حق اريد بها باطل ، لااكثر .. فلا هو كاتب يمكن ان يكون ذا قيمة يحتمل اكتشافها وتقديرها ، ولا بلغاريا التى لم يشر ناقد لاعمال هذا الرجل الى وجودها فى روايته الوحيدة ، وبعض مذكراته تمثل الدول قاصرة النمو ، الا اذا كانت هى الهدف التالى - بعد وارسو - لزعزعة الاطراف الهشة فى اوروبا الشرقية وجاء فى التقارير الادبية التى حاولت ان تلملم ملامح لكانيتى ان لجنة الجائزة المكونة من ١٨ عضوا ، والتى عادة ما تتكتم على ترشيحاتها ومداولاتها وتصويتها ، قد انقسمت فى ارائها هذه المرة اكثر من السنة الماضية عندما منحت الجائزة للبولندى تشيسلوف ميلوش .

وتقول الانسة ماريان بويارز ، الناشرة الانجليزية لاعمال كانيتى ان المؤسسة الادبية الانجليزية لم تكترث اطلاقا بهذا الكاتب بالرغم من انها - اى الناشرة - قد اخبرت النقاد بان سيكون له شان يحرز به جائزة نوبل .. وقالت ان تجاهل النقاد له كان كبيرا حتى ان كتابه الاخير «اصوات المغرب» لم يجد من يكتب عنه فى صفحات تقديم الكتب الجديدة ومراجعتها ، بالرغم من ان الناشرة قد كتبت الى النقاد مشيرة الى اهمية الكتاب .

فما شان هذا الكاتب ؟

فى عام ١٩٣٥ كتب كانيتى أول رواية له ، وظلت هى «بيضة الديك» فى محاولته الروائية ، وهى باللغة الالمانية بعنوان «الاغشاء» ونشرت عام ١٩٤٧ مترجمة الى الانجليزية تحت عنوان «برج بابل» فى الولايات المتحدة ، وهى عن حياة استاذ اعزب متخصص فى الدراسات الصينية . انقطع عن العالم ليعيش بين ٢٥ الف مجلد فى مكتبته . ولايعرف اى شىء عن الحياة .. حتى يتزوج المراة التى تقوم بخدمة بيته ، فيواجه العالم الحقيقى وينتهى الى تدمير مكتبته ونفسه ، باحراقها والاحتراق فيها

ويرى النقاد ان عمله هذا تاثر بالروائى الالمانى الرومانتيكى طوماس مان و بالانطباعى الالمانى الفريد دوبلين ، مما يسقط عنه عنصر الاصالة المطلوبة فى كاتب مؤثر ومقدر ومع ذلك تجد الاكاديمية السويدية تخصه بالجائزة على هذه الرواية ، وتصف كتاباته بانها تتسم بالنظرة الواسعة ، وثراء الافكار والقوة الفنية .

وكانت نية الكاتب ، كما يقول ، تتجه الى كتابة جزء ثان من تلك الرواية ، ولكنه مثل بطل روايته انطوى منزويا عن الحياة العامة طوال الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة والفترة التى طغت فيها عملية إعادة بناء اوروبا الغربية ، ولم يكتب جزءا ثانيا ، بل عالج بشكل تحليلى القوى الاجتماعية والسيكولوجية التى كان قد عالجها فنيا فى روايته ، كما تقول الغارديان البريطانية وكان ان صدر كتاب «الجموع والسلطة» الذى استغرقت كتابته عشر سنوات ونشر عام ١٩٦٠ ، وهو يستمد معظم مادته المصدرية من علم الانثروبولوجى من نوع يعتبر الان متخلفا ، ولم يستطع بنبرته التشاؤمية ان يجذب جيل التفاؤل فى اواخر الستينات .

وبجانب عدد من المسرحيات التى تمثل نوعا من الاقنعة الساخرة ، كانت اولاها «الزفاف» عام ١٩٣٢ واخرها «المهلة الاخيرة» عام ١٩٥٦ ، كتب كانيتى «محاكمة كافكا الاخرى» وهو عبارة عن كتيب يعالج فيه حياة كافكا الخاصة .

واذا كان المحكمون قد شبهوا كانيتى بالكاتب الروسى ديستوفسكى واظهروا قرب الشبه بينه وبين كتاب اخرين ترعرعوا فى مدينة فينا التى فرسها كانيتى عام ١٩٣٨ من امثال كافكا ، وروبرت موسيل ، وارثر كوستلر ، فما ذلك إلا محاولة للرفع من شانه على حساب سمعتهم .. ويمكن اخذه كدليل على افتقاره الى عناصر الابداع والتاثير .

اوديسيوس اليتيس — تشسلاف ليموش



٢١ وجها لممثل « الكابوكى »

يالة من امتحان لمدى قدرة التحمل ان يقوم ممثل واحد باداء ٢١ دورا يستغرق اداؤها ١٢ ساعة ، وهذا كفيل بان يحطم ممثلين كثيرين ، ولكنه بالنسبة لاينوسوكى ايشيكاوا فرصة طيبة لاظهار مهاراته وقدراته فى افضل تقاليد مسرح الكابوكى اليابانى ويقول اينوسوكى الذى ورث تقليدا مسرحيا تجاوز عمر تجربته ٣٥٠ عاما :

«كان ممثلو الكابوكى فيما مضى يؤدون ادوارهم مثلى ، ولكنهم في هذه الأيام لايحرصون على التفانى فى العمل بتلك الجدية» .

وهو يبدأ اداءه فى مسرح كابوكيزا بمدينة طوكيو بتصوير كلاسيكى لرجل وحيد يتامل الوجود فى جزيرة منقطعة عن الحضارة ، وذلك فى مسرحية (شونكان) التى تدور حول ثلاثة رجال يثورون على زعيم العشيرة ، فيتم نفيهم وبعد حين ياتيهم مبعوث خاص منتفخ الأوداج زهوا بنفسه ، يحمل العفو لاثنين منهم ، ليس (شونكان) واحدا منهما ، ومن توتر وتقلصات الأداء يدرك المشاهد ان (شونكان) قد قتل المبعوث الخاص .











بعد ذلك ينتقل لأداء دور الأسد الأب وهو يعد شبله لمعارك البقاء التى تنتظره ، يدفعه من حافة صخرة عالية ، وينتظر عودته سالما ، ويرى المشاهد كل خلجة من القلق على محيا الأسد الأب . وتعقب ذلك رقصة لفراشتين . ثم يعود الشبل عبر ممر الأزهار ، ويؤدى والده رقصة بازياء تمثل روح الأسدين ، رقصة منطلقة شجاعة ثم يقوم اينوسوكى بدور امراة عجوز تستثار فتنقلب ساحرة ..

وفى الجزء الثانى من البرنامج اليومى يؤدى اينوسوكى ادوارا تكلفه تغيير الازياء لها ، ورحلة من العاصمة الامبراطورية القديمة كيوتو الى مدينة ايدو ، طوكيو حاليا .

إن مسرح الكابوكى مازال فنا مثيرا ورائعا بالنسبة لأهل اليابان ، بالرغم من طغيان التلفزيون وشيوع الافلام السينمائية والمسرح الغربى الطابع ، وفيه يبكون ويضحكون ويهللون .. وفقا لما يقتضيه المسرح الشعبى الأصيل .

سينتقل مسرح الكابوكى الى اوروبا الغربية ، لتقديم بعض العروض . والمشكلة التى تواجه ممثليه هى مدى استطاعتهم ان يحركوا المشاهد الغربى حين يقومون باول جولة لهم فى اوروبا . والى اى مدى يستطيع المشاهد الاجنبى ان يفهم العمل المقدم بمجرد قراءة ملخص للقصة .



وبمتابعة الاداء وتخمين مايدور .. من النبرات والتعابير والايماءات ؟

«على ان اقدم سلسلة متتابعة من المشاعر الصريحة فى وقت قصير» هكذا يقول اينوسوكى البالغ من العمر ٤١ عاما ، واكثر ممثلى الكابوكى شهرة ، ثم يستطرد :

«وهناك تغيرات شعورية كثيرة ، من ضيق وحزن وسعادة ، انني اريد ان يرى الأجنبى فى هذه الدراما اوسع مدى ممكن لفن الكابوكى حتى وان لم يفهم ما يقوله الممثل» .

ومثل كل ممثلى الكابوكى يعارض اينوسوكى اشتراك المراة للقيام بادوار النساء ، والتى كانت محرمة على النساء ، وحجته فى ذلك ان الازياء ثقيلة جدا على المراة !

ج . ب . شـــو
والمرأة الخارقـــة

لا يخلو مؤلف عن بيرنارد شو من بث مثير ينزع واحدا من اقنعته . فالرجل كان واسع العـــلاقات ، متنوع النظـــرة ، وكـــان يرتاح الى النساء ، وان مقت فيهن الأنوثة . ولكن ذلك كله لم يمنعه من ان يكون موقفه من المرأة مليئا بالتناقض . فهو يصر على ان النساء لم يلعبن دورا مهما فى حياته اذا ما قورن باصدقائه ولكن الم تكن بياتريس ويب صديقة عمر له ؟ وماذا عن الأدلة المتوفرة التى تشير الى انه كان واقعا تحت سحر عدد من النساء اللائى كان يطالبهن كطفل مدلل بالاهتمام به ، يكاتبهن فيكثر ويصارحهن فيغدق . الم يكتب لبعضهن مسرحيات ؟ وغامر بسمعته وارتضى المهانة فى سبيل السيدة باتريك كامبل بسبب سلوكه الولهان . وما حرصه على زوجته الغيورة سوى رضائه بالحماية التى امنتها له لأنه كان يدرك مدى ضعفه امام النساء .

وكتاب مارفوت بتيرز الصادر عن دار نشر كولومبس ـ ٤٦١ صفحة ـ مداره «بيرنارد شو والممثلات» وفيه اضاءة لعدد من النساء اللائى فتن بهن شوفى المسرح وكشف لمواقفه تجاههن .

هناك فلورنسفار .. الجميلة ذات الموهبة الموسيقية والصوت العذب .. والقدرة الصحفية وكانت تكتب فى مجلة (العصر الجديد) تحت اسم مستعار . وقد تخلصت من زوجها دونما حرج تماما مثلما كانت تتخلص من معجبيها الكثر .. وقد اعجب شو بسلوكها ، وراه نظيفا ، بينما كان الشاعر ييتس يحسبه سلوكا كريها . ولكنه اتهمها فيما بعد بانها سقطت عن المستوى الرفيع من الاداء الذى كان يتوقعه منها . وفى دفقة من الشعور بالوحدة هاجرت الى سيلان لتصبح مديرة لكلية للبنات . وماتت هناك بذات الصدر .

واخرى .. هى اليزابث روبنز .. جميلة ، عارمة متقفة ، امريكية ، غرق زوجها الشاب فى نهر وهو يرتدى بذلة كاملة من الدروع . جاءت انجلترا عام ١٨٩١ ارملة مشحونة الرأس بروايات ومسرحيات عن تحرير المرأة . وقد وصفتها مؤلفة هذا الكتاب بانها تذكرنا ببيرنارد شو نفسه ، ولابد انها لم تنخدع باطرائه وتعاليه .. وكان هنرى جيمس ، الروائى الأمريكى ، مفتونا بها ، وقرا مسرحيتها «حق التصويت للنساء» وكاد ان يوقع فى وثيقة تطالب بحق المرأة السياسى .. من اجلها .

وهناك جانيت اشيرش التى لعبت دور (نورا) فى اول اخراج لمسرحية (إبسن) (بيت الدمية) فى يونيو ١٨٨٩ . والتى كانت نقطة مشعة فى تاريخ شو المهنى . ولكن جانيت دمرت جمالها وموهبتها .. وماتت . ومن بين الممثلات الشهيرات تبرز الن تيرى لأنها تجنبت بمهارة اى لقاء فعلى بينها وشو لسنوات طويلة ، وان كانا يتراسلان فى خطابات مليئة بعبارات الوله والغزل المكشوف .

ولكن ، اذا صدق مايكل هولرويد فان حب شو كان لأمرين فقط (الضحك والاصلاح) .. وكانت مسرحياته والأدوار التى كتبها لممثلاته بريقا يشع عن هذين الأمرين ، وبهما ايقظ عصبا جديدا فى جمهور المسرح البريطانى .



برنارد شو



كمبيوتر لرصد
« العشاء الاخير »



تعتبر لوحة «العشاء الاخير» لليوناردو دافنشي من اكثر معالم مدينة ميلانو الايطالية جذبا للسياحة . لكن معالم المدينة الصناعية بتلوثها وحركة الجلبة بها ، ورطوبة جوها كادت أن تدمر كنزها الفني .. الذى بدات الشقوق تظهر فيه ، وتزداد ، مما دفع بالحكومة الايطالية الى اتخاذ اجراءات لحماية اللوحة . فاقيم جدار حديدي متين خلف اللوحة يسندها من السقوط ، وهناك محاولة لاستصدار قانون يبطل حركة المرور فى المنطقة المحيطة بالكنيسة التى تضم اللوحة ، وخاصة حركة الحافلات الضخمة التى يستقلها السواح الى الموضع .

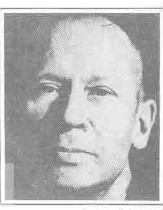
ولكن افضل تدبير قامت به الحكومة الايطالية هو شراء «عقل اليكتروني» به شعيرات استشعار حساسة لرصد التشقق الذى تعاني منه اللوحة . وقد كلفها خمسمائة مليون ليرة ايطالية ، أو ما يعادل ٤٠٠ الف دولار أمريكي .

وقد وضعت اجهزة الاستشعار على بعد متر من الحائط الذى رسم فيه ليوناردو لوحته فى الأعوام ٩٧/ ١٤٩٥ ، لتقوم هذه الاجهزة مرة كل ساعة برصد اللوحة وإرسال المعلومات الى العقل الاليكتروني .

جانيت أشيرش . ممثلة — اليزابيث روبنز . كاتبة مسرحية — فلورنس فار . صحفية



الشعر والطب النفسي



الشاعر الامريكي ا. ا. كمنغز

محلل نفسانى يستخدم قصائد «كمينغز» كمرشد للعقل

كان الشعر دائما ملاذ من يبحث عن الحقيقة ولكن ديفيد فوريست توجه الى الشعر بحثا عن الحقيقة النفسانية ، وعقد حلفا خاصا مع اشعار ا.ا. كمينغز لاعتقاده بانه حين يكون شعر هذا الشاعر الامريكي بجانبه ، يستطيع ان يتفهم الصراعات التى ترقد فى البال المضطرب ، ويسبرها بشكل افضل .

«إن كمينغز يتعامل مع بعض اصعب واشق المسائل والأسئلة فى التحليل النفسى ، كما ان قوته البيانية قادرة بشكل يمكنه من المضي الى الحدود القصوى للتعبير ، نحو الأفكار التى ترقد فى عمق تقصر عنه الدموع ـ حسب قول الشاعر الانكليزى وردزورث .

وإذا اطرحنا المعالجات المهنية ووسائلها جانبا ، فان الدكتور فوريست يشعر بان الشاعر كمينغز يمكن ان يقدم نوعا من المرشد الشعرى لكل من يحب الشعر ، مرشدا لتوليد واشعال وتنشيط اجهزة الدفاع ووسائله التى يستخدمها الناس لتعينهم على التعامل مع المواقف المختلفة فى وجودهم ، وسائل مثل حسن الدعابة والفكاهة ، والتسامى ، والحرمان والتبرير ، والتى تمكن الناس من معالجة الم الحياة والموت والحب والبغض والوحدة والنزعة العدوانية ، والعدوان .

معالجة الموت

يستحوذ الموت كموضوع شعرى على جل انتاج كمينغز ، ولم يبدع فى اى موضوع اخر قدر ابداعه فى معالجة الموت : فهو يضحك عليه ومنه ، ويتعامل معه وكانه موضوع جنس ، يغازله ويهينه ، ويخشاه ، ويقبله ، ويتقبله فى اخر الأمر كقدر .

وقد استخدم كمينغز حس الدعابة ايضا فى معالجة الموت كما فى قصيدته عن الرجل العادى الطاعن فى السن ، الفلاح الذى نجح اخيرا بعد موته فى إقامة مزرهة للديدان ، او كما فى قصيدة اخرى عن موت من نوع اخر .

عمى (ايد)
الذى هو ميت من العنق فما فوق
يقتاده على طول شارع برايتل
جرو مخصي

إن مؤهلات الدكتور فوريست لقراءة وتقويم شعر كمينغز تعادل مؤهلاته الطبية ، فقد ظل يقرا الشعر ويدرسه مع التركيز على اعمال كمينغز منذ ان كان طالبا ، ولاكثر من عشرين عاما . وقد تخرج من كلية برينستون بامتياز فى اللغة الانجليزية ، ويرجع فوريست تفوقه الأكاديمى الى ان كمينغز نفسه هو الذى نصحه فى اختيار موضوع دراسته الجامعية العليا ، ومنذ ذلك التاريخ كتب فوريست عدة اوراق عن اعمال كمينغز ، ومازال يعمل مع استاذين عارفين باعمال الشاعر هما «نورمان فريدمان» و «ريتشارد س كيندى» وذلك لانشاء جمعية «ا.ا. كمينغز» لتشجيع الدراسات وبعث الاهتمام بشعر كمينغز . وقبل اشهر قليلة مضت نشرت اول طبعة من مجلة الجمعية .

إن فوريست لا يصف الشعر كدواء لمرضاه لان تفسير الاشعار امر ذاتى فى معظم الاحوال ولكن اذا وجد مريضا يظهر اهتماما بكتابة الشعر او قراءته ، فان ذلك يحفز اهتمامه ، لانه قد يساعده ومريضه على التعبير عن صراعاتهما .

ويرى الدكتور فوريست ان فى عمليات الخلق الشعرى لدى كمينغز ، وفى تجاريبه اللانهائية مع وضع المسافات والترقيم والاستخدام الواعى للأحرف الكبيرة فى اللغة الانجليزية ، وفى تقسيم الكلمات ، ما يوازى الكتابة الفصامية ، والتى يراها اطباء النفس طيلة الوقت . وكان «كمينغز» فى حالته الطبيعية ماهرا مثل مرضى انفصام الشخصية فى توليد كلمات جديدة ، ويظهر ذلك فى قصيدته ضد العلوم الطبيعية والتكنولوجية ، حيث يقول :

لا تدخلنك رقة على هذا الوحش المشغول ، اللابشرية

إن التقدم مرض مريح : ضحيتك (الموت والحياة سالمان) يتلاعب بضخامة ضالته الالكترونات تحسم شفرة موسى حلاقة واحدة كسلسلة من الجبال ، والعدسات تمدد اللارغبة عبر المنحنيات اين ومتى وحتى تعود اللارغبة الى لا نفسها) .

إن استخدام كمينغز للحروف الصغيرة والكبيرة فى اللغة الانجليزية ليس استخداما متعسفا عشوائيا كما قد يظن بعض القراء .. فهو يكتب كلمتى (انا) و (انت) باحرف صغيرة ، ولكنه كثيرا ما يكتب (نحن) وكل ما يشير الى صفة جمع المتكلم بالأحرف الدالة على علم : وتلك ، كما يرى د. فوريست ، هى طريقة الشاعر فى إطراح فرديته جانبا للاحتجاج بقوة الحب :

(إن من يخلص الحب يقوم باعمال تبدو جنونية) كما يقول د. فوريست ، (فالناس كثيرا ما تعانى الكثير فى الحب ؛ ويقول بعضهم إنهم قد يلحق بهم الأذى إن منحوا مشاعرهم للاخرين . هناك امتزاج للشخصيات فى الحب) .

وقد حاول كمينغز ان يجد حلا شعريا لهذه المشكلة .. مثال ذلك هذه القصيدة :

سيدتى هل تاتين معى الى بيت عقلى البالغ الصغر . إن القمر مستدير كما ترين عبر النافذة وليس لي فى الحقيقة من يقوم بخدمتى . هناك غرفة خالية . ونكاد نستطيع ان نذهب (انت وانا) فى توحد ابيض كبير هناك . ولكن ان كذا او كذا .

ببطء فتحت النافذة ضالة بالغة ؛ القمر (بشعر ابيض مستعار وازرار مجلوة) سياخذك بعيدا .

وكل الساعات ستنهار فى اليوم التالى .

ولقد سئل د. فوريست عما يشاع عن موقف كمينغز المضاد للعلوم ، فقال :

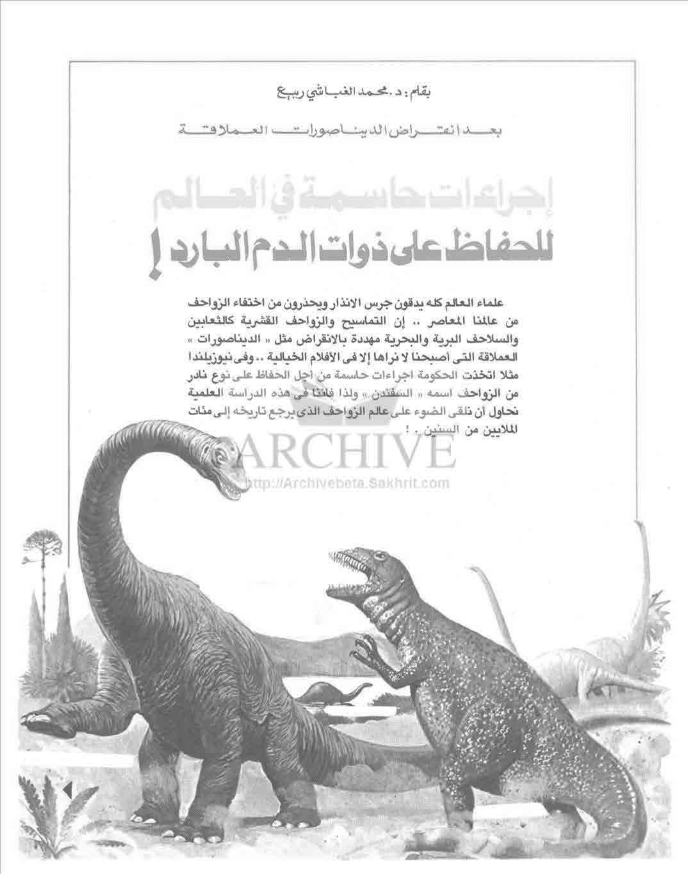
«كان يكره الات ثقب الصخور الضخمة ، والضجة واجهزة الراديو والتكنولوجية . ولكنه سمح ذات مرة باجراء تحليل نفسانى له ، وكان يعود الطبيب إن مرض . لقد قام بعمله كشاعر وتحدث عن كوننا اشخاصا ، وعن عواطفنا وعلاقاتنا مع عواطفنا ؛ وكمرشد فى هذه المسائل . لم يكن كمينغز سيئا .

بقلم : د . محمد الغباشي ربيع

بعد انقراض الديناصورات العملاقة

إجراءات حاسمة في العالم للحفاظ على ذوات الدم البارد !

علماء العالم كله يدقون جرس الانذار ويحذرون من اختفاء الزواحف من عالمنا المعاصر .. إن التماسيح والزواحف القشرية كالثعابين والسلاحف البرية والبحرية مهددة بالانقراض مثل « الديناصورات » العملاقة التى أصبحنا لا نراها إلا فى الأفلام الخيالية .. وفى نيوزيلندا مثلا اتخذت الحكومة اجراءات حاسمة من أجل الحفاظ على نوع نادر من الزواحف اسمه « السفندن » ولذا فاننا فى هذه الدراسة العلمية نحاول أن نلقى الضوء على عالم الزواحف الذى يرجع تاريخه إلى مئات الملايين من السنين . . !



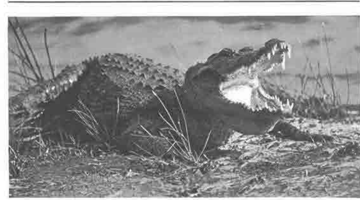
للزواحف تاريخ طويل عريق ملىء بالتغيرات على مدى مئات الملايين من السنين ..

فالزواحف حيوانات من ذوات الدم البارد ، انحدرت من البرمائيات البدائية وتطور البعض منها الى الطيور والثدييات ..

والزواحف تتميز بانها تتنفس تنفساً كاملا عن طريق الرئة بمعنى ان جلد الزواحف ليس له اية وظيفة تنفسية وهو يستعمل فقط لحفظ السوائل من التبخر لكى يقى الجسم من الجفاف الذى تتعرض له أثناء معيشتها ، خاصة فى الأجواء الحارة ، وهذا الجلد حرشفى خال تماماً من الغدد مما جعله يقوم بهذه المهمة بكفاءة عالية ، ويساعد فى ذلك الجهاز الاخراجى لها فى اخراج حامض البوليك عن طريق الكلية فى صورة غير ذائبة .

والزواحف يطلق عليها ذوات الدم البارد ذلك لأنها تستمد كل حرارتها من الجو الذى يحيط بها ويشترك معها فى تلك الصفة الأسماك والبرمائيات . وهى لا تستخدم الغذاء الذى تتناوله فى توليد الحرارة إلا بصورة ضئيلة جداً لذا نجد أن درجة حرارة الزواحف ترتفع وتنخفض حسب درجة حرارة الجو الذى تعيش فيه .

وهى تستمد الحرارة بتمددها فوق



نوع من التماسيح يعيش فى الهند .. يفتح فمه لتلطيف درجة حرارة جسمه



صغير التمسلح الشهير بـ « الكايمان » الذى يعيش فى المناطق الاستوائية بامريكا الجنوبية

هذا النوع من الزواحف نادر جداً ، واستطاع ان يحافظ على صفاته خلال ٢٠٠ مليون سنة ويطلقون عليه « التيوتارا » او « السفندن »

سطح الرمال الساخنة أو بعض الأحجار فى الصحراء أو الأراضى القاحلة ، أما فى فصول الشتاء واثناء الأيام شديدة البرودة فانها تلجأ الى الجحور تحت الأرض معلنة عن مرحلة البيات الشتوى لها لتظل كامنة فى هذه البيوت تحت الأرض طوال فترة الشتاء دون الغذاء أو الماء .

وقد كان لعدم قدرتها على توليد الحرارة من داخل أجسامها أكبر الأثر فى توزيعها الجغرافى فهى قليلة فى الأماكن شديدة البرودة ، وربما كان معظمها فى تلك المناطق من الزواحف صغيرة الحجم ، والحال عكس ذلك فى المناطق المعتدلة والحارة من العالم !

وبالرغم من قلة امكانيات الزواحف الطبيعية ، إلا أنها سيطرت على الأرض وسادت أرجاءها لفترة بلغت مائة وستين مليون عام ، كانت تشكل خلالها المواد الأعظم من الكائنات الحية ، ومنها ما بلغ أحجاما ضخمة جداً ، ومنها ما كان يمتلك الأجنحة التى تشبه أجنحة الخفافيش ، ومنها من لجأ للماء لكى يعيش فيه وبعضها تحورت أطرافه وأصبح لديه القدرة على أن يمشى على أرجله الخلفيتين !

لماذا انقرضت ؟

والزواحف من الحيوانات التى تضع البيض ، إلا أن بعضها يفقس البيض داخل جسم الأم بعد تلقيحه داخليا لتلد الصغار ، وفى حالة وضع البيض فانه يفقس بتأثير حرارة الشمس أو الحرارة المتولدة من تحلل المواد العضوية فى التربة دون أن تحتضنه الأم كما تفعل الطيور !

ويختلف بيض الزواحف عن بيض الطيور ، فالبيض فى الزواحف يغلف بقشرة كلسية أو جلدية وهى مسامية لكى تسمح بتنفس الجنين لكنها تقاوم الجفاف فى نفس الوقت .

والزواحف لا توجد لها أطوار يرقية تمر بها فى دورة الحياة كما هو الحال فى البرمائيات .

لذا فانها لا تضطر للعودة الى الوسط المائى فى بعض مراحل حياتها كما تفعل البرمائيات !

والقلب فى الزواحف يتكون من ثلاث حجرات وهو لذلك يعتبر أقل كفاءة من قلب الثدييات والطيور ، وقد يكون ذلك هو السبب فى قلة نشاطها فترات طويلة من السنة ، بالاضافة الى أن الدم فى الزواحف لا يحتوى على كميات كبيرة من الأكسجين كما هو الحال عند الثدييات والطيور !

والغريب أن الزواحف لازمها سوء الحظ منذ ملايين السنين فانقرض الكثير من أنواعها واختفت تماما ولم يعثر إلا على هياكلها المتحجرة من ملايين السنين .. وانقراض هذه الأنواع حير العلماء ، وذهب كل يعلل انقراضها الى عوامل مرضية أو تغيرات طبيعية ، والبعض يرجح انقراضها لعدم درايتها الكافية بالعناية بمواليدها أو لعدم مقدرتها على مسايرة الظروف المتغيرة على امتداد ملايين السنين .

ويرجع انقراض بعض أنواع الزواحف الى حوالى ثمانين مليون عام مضت ، وربما أراد الله لها ذلك حماية للكائنات الأخرى لكى تستمر الحياة ، ذلك لأن بعضها كان من اكلات اللحوم بكميات كبيرة وبشراهة فائقة ، ولقد ثبت أنه فى الوقت الذى بدأت فيه الزواحف فى الاضمحلال ، فان الثدييات أخذت تسجل الانتشار والازدهار ، ذلك لما للثدييات من قدرة على ممارسة نشاطها وتأقلمها مع كافة الأجواء والبيئات ، ولما تمتاز به عن الزواحف فى رعاية صغارها وحمايتها من الآخرين !

السحالى المروعة

ومن الزواحف المنقرضة وأكثرها شهرة «الديناصور» أكل اللحوم ، وكان يمشى على رجليه الخلفيتين ، أما الأماميتين فكانتا صغيرتين جداً ، وطوله كان حوالى ستة أمتار وهوواقف



إلى اليسار .. تمساح النيل أثناء خروجه من البيضة وإلى أسفل .. العش الذى تبنيه التماسيح لتضع البيض ويرى فى الصورة البيض قبل الفقس فى تجويف الأرض



وطول الجمجمة حوالى المتر وربع المتر وكان الفكان مزودين بأسنان حادة !

وديناصور معناها الحرفى (السحالى المروعة) وقد ازدهرت لمدة ١٢٠ مليون سنة ثم انقرضت فجاة – وقد عاشت متباينة الاحجام فبعضها كان لا يتعدى حجم الانسان العادى بينما كان يصل بعض انواعها الى اكثر من خمسين طناً وزناً .

وترجع نشاة الديناصورات الى العصر الترياسى منذ حوالى ٢٠٠ مليون سنة مضت ، من مجموعة صغيرة من الزواحف يطلق عليها مغمدة الأسنان ، تطورت الى مجموعتين كبيرتين ، المجموعة الأولى هى ذوات الأرداف شبيهة السحالى ، والأخرى ذوات الأرداف شبيهة الطيور .

كما دلت بعض الحفريات على أن انواعاً منها كان لها منقار يشبه منقار البط واقدام ذات كف يشبه اقدامها وذيول مفلطحة تساعدها على العوم فى الماء .

ويرجع انقراض الديناصورات الى العصر الكريتاسى من حوالى ٨٠ مليون سنة تقريباً .

ويعلل انقراض الديناصور ات الى انها اصيبت بامراض وبائية قضت عليها او ان الثدييات كانت تتغذى على بيضها بشراهة .

على انه لم تكن الديناصور ات وحدها التى انقرضت فى تلك الفترة بل صاحبها انقراض انواع اخرى من الثدييات .

ويرجح بعض العلماء أن يكون سبب ابادتها عوامل تدميرية هائلة مثل تكون جبلى او انفجار فى الأشعة الكونية او سقوط بعض النيازك على سطح الأرض !

الزواحف المعاصرة

والزواحف المعاصرة تتمثل فى أربع رتب هى التماسيح ، والتيوتارا او السفندن ، والزواحف القشرية وهى تضم الثعابين والسحالى ، اما الرتبة الاخيرة فهى رتبة السلاحف البرية منها والبحرية .

والتيوتارا أو حيوان السفندن يعتبر من اقرب الزواحف المعاصرة فى التقسيم الى الديناصور ات المنقرضة ، إلا انه هو النوع الوحيد من تلك الرتبة الذى استطاع أن يحافظ على نوعه من الانقراض ليقطع هذا المشوار الطويل وعلى مرور ٢٠٠ مليون سنة ، وهو يحتفظ ببعض العلامات التى وضعت اساساً لتقسيم الزواحف ومنها وجود علامات معينة على الجمجمة وكذا العين الصنوبرية التى تنمو مع نموه باستمرار طوال حياته بالاضافة الى سقف حلق كامل ! .

وكاد حيوان التيوتارا أو السفندن أن ينقرض بعد ان بلغ ذروته فى الانتشار فى نيوزيلندا ، إلا أن الحكومة النيوزيلاندية سرعان ما تنبهت الى خطورة الامر مما اضطرها الى اتخاذ اجراءات حاسمة للحفاظ على هذا النوع النادر من الحيوانات ! فعاد مرة اخرى الى الانتشار فى الجزر الشمالية منها .

والسفندن او التيوتارا يبلغ حوالى قدمين طولا ولونه اسود او زيتونى ، مزود ببقع صفراء . وهو من الزواحف التى تفضل العيش فى الأجواء الباردة على عكس السواد الأعظم من الزواحف وهو يقضى معظم نهاره داخل الجحور ولا يخرج منها إلا عندما يحل الظلام باحثاً عن غذائه الذى يتكون من بعض الحشرات والقواقع وغيرها .

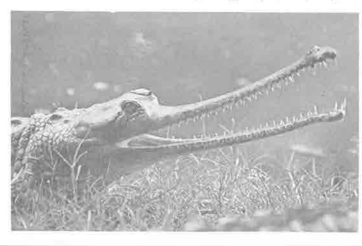
والسفندن له صوت يشبه نقيق الضفادع ، والأنثى تضع بيضاً قد يصل عدده الى أربع عشرة بيضة فى حفرة تحفرها له فى الأرض ثم تغطيها كى لا يتعرض لسطو الطيور الجارحة أو بعض الحيوانات الأخرى ، ثم ينقضى على هذا البيض علم كامل لكى تخرج الصغار منه ، والصغار تبلغ من الطول حوالى ١٠ سم وتنمو ببطء طوال حياتها الى أن تبلغ من الطول قدمين تقريباً !

أما عن سنوات عمره فقد سجل التيوتارا فى نيوزيلاندا فى الأسر خمسين عاماً من العمر ، وفى حديقة حيوانات دبلن عاش ٢٥ عاماً . اما فى السويد فقد سجل ٢٨ عاماً ، وكان طوله يكاد أن يكون ثابتاً بعد فترة زمنية معينة بلغ فيها ٣٧ سم فقط !

الزواحف الكسولة

اما التماسيح فهى تعد من الزواحف المائية ، ويوجد منها ١٢ نوعاً شهيرة

تمساح « الجيفال » الهندى الذى يتغذى على الأسماك



تعيش جميعها فى المياه العذبة بالمناطق الدافئة فى العالم ، ويوجد منها نوع واحد تطيب له المعيشة فى المياه المالحة فى جزر الهند الشرقية .

ومن صفات التماسيح انها كسولة ، تقضى معظم نهارها مستلقية فى الماء او على ضفاف الأنهار تحت اشعة الشمس وصغار التماسيح تتغذى على الحشرات والضفادع وتتدرج فى تغذيتها على الأسماك ثم صغار الحيوانات الى ان تكبر فتستطيع ان تتغذى على الثدييات والطيور ، وبعضها يأكل الانسان اذا ما اتيحت له الفرصة .

والتماسيح تضع البيض فى حفرة على الشاطىء قريبة من المياه التى تعيش فيها ثم تغطيه بالطين او بعض النباتات وتقوم بحراسته الى ان يفقس، واثناء الفقس تقوم الأم بمساعدة الصغار على الخروج من البيض وتسهيل ماموريتها ويبدو أن الصغار بحكم الغريزة تعرف ذلك فهى تصدر اصوات الاستغاثة اثناء محاولتها الخروج من البيض !

ومن أشهر التماسيح تمساح النيل يقد كان منتشراً فى نهر النيل ، إلا انه اختفى تماماً بعد بناء خزان اسوان ، ولكنه يوجد ويعيش بكثرة عند منابع النيل ، وهو يبلغ ٦ امتار طولا ولون ظهره اخضر برونزى مزين يتحرك بسرعة فى الماء ولكنه اقل حركة على الأرض ، وعند السباحة فى الماء لا يظهر منه سوى عينيه وانفه .

التمساح الامريكى ويشتهر بأسنانه القوية



ويتغذى تمساح النيل على الأسماك ، ولديه من الصبر والخداع الكثير فهو يختبىء على ضفاف النهر لعدة ساعات فى سكون تام حتى تقترب بعض الحيوانات لتحصل على ماء الشرب وهى فى غفلة تامة لينقض قابضاً عليها بفكيه القويتين ويغوص بها فى القاع .

وانثى التمساح تضع بيضا فى حجم بيض الأوز ، وتقوم بوضعه فى حفرة وتغطيه حتى يفقس بعد ذلك لتعود الصغار الى الماء بالغريزة لتسبح فيه من اول يوم لها .

ولتمساح النيل تاريخ عند قدماء المصريين فكانوا يطلقون عليه «تشابسا» وهى كلمة معناها فى اللغات المصرية القديمة شروق الشمس ، وربما كانت تلك التسمية نظراً لبريق عينيه الشديد الذى يبدو ظاهراً بوضوح عندما يطفو على سطح الماء — وكان قدماء المصريين يقيمون لتمساح النيل الشعائر والاحتفالات الدينية فى مواسم معينة وذلك فى معابد طيبة . كما كانوا يقومون بتربيته ايضا فى تلك المعابد ويتقربون اليه بتقديم الحلى والجواهر حتى اذا مات قاموا بتحنيطه وحفظه فى المقابر !

أشهر التماسيح

ومن التماسيح الشهيرة المعاصرة ايضا تمساح «الكايمان» وهو يعيش فى المناطق الاستوائية فى أمريكا الجنوبية ومنه الكايمان الأسود ، وسمى كذلك نسبة الى لون الظهر ، اما البطن فلونها مائل الى الاصفرار ، وهو يبلغ خمسة امتار طولا ، وتوجد عدة انواع من تمساح الكايمان تعيش فى نهر الأمازون ومعظم انهار امريكا الجنوبية وتهاجر منها فى فصل الجفاف الى البرك والمستنقعات داخل الغابات ، وبعض هذه الأنواع تعمد فى فصل الجفاف الى دفن نفسها فى الطين الى أن يحل موسم سقوط الأمطار لكى تعود مرة اخرى من بياتها وتدب فيها الحياة من جديد !

والليجاتور من التماسيح المعاصرة ايضا ومنه الليجاتور الأمريكى الذى يعيش فى نهر المسيسبى ولونه اخضر داكن او اسود ، والليجاتور الصينى الذى يتميز بالصغر فى الحجم عن الأمريكى ولون ظهره أسود مرقط باللون الأخضر وتوجد عليه خطوط صفراء أما بطنه فلونها رمادى .

وتمساح المصبات يوجد عند مصبات الانهار ويحلو له التنقل بين ماء البحر المالح ومياه الأنهار العذبة ، ويمتاز هذا النوع بكبر حجمه ، ويبلغ طوله ٣٣ قدماً ، ويعرف بشراهته واعتدائه المتكرر على الحيوانات الكبيرة وحتى الانسان ، ولهذا النوع من التماسيح غدد فكية تفرز نوعاً من المسك إلا انه غير مقبول الرائحة !

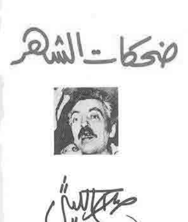
والتمساح الأمريكى ايضا من التماسيح التى تقطن اماكن متفرقة فى الولايات المتحدة الأمريكية فى كولومبيا وفلوريدا وفنزويلا ، كما يوجد ايضاً فى جزر الهند الغربية — ولون ظهره زيتونى ضارب الى السواد .

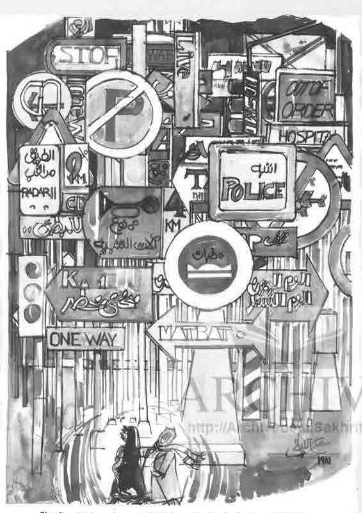
اما تمساح الكاتافراكتس فهو يعيش فى انهار غرب افريقيا من السنغال الى الكونغو ، وهو يسمى التمساح طويل الفم نظراً لأن فمه بالغ الطول رفيع ، وطول هذا النوع من التماسيح ١٨ قدماً وهو اكثر التماسيح خوفاً وحذراً ، ولقد تعود الأهالى فى تلك المناطق على سيده واكل لحومه .

وهناك تمساح الجافيال الذى يشبه فمه المنقار ، وله اسنان رفيعة مقوسة مخروطية ، ولون ظهره زيتونى داكن ، وهو يتغذى على الأسماك التى يسهل عليه اصطيادها بمنقاره الطويل الرفيع واسنانه الحادة ، وهو اكثر انواع التماسيح اجادة للسباحة ، وهو لا يميل الى افتراس الحيوانات الثديية أو الانسان بل يقتصر فى أمر غذائه على الأسماك ، لذلك فان بعض الهندوس يقدسونه ويعبدونه !

ويعيش هذا النوع فى أنهار الهند وبعض الأنهار المنتشرة فى قارة أسيا !

د. محمد الغباشى ربيع





العلامات موش لينا ياحميده ، انا وانت « رحال » يعني مشاة



حارس مـــرمى ـ .. الحارس الله .. !!

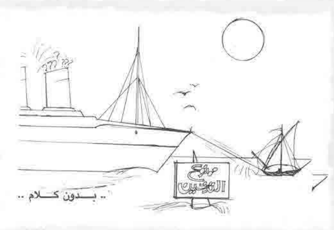


(الحر) نيران حرارة .. !!



.. طبيب ـ .. اهلا .. ازيك يا روحى .. !!

طبيب لاخوه الغلبان ـ دى آخر مرة اسالك عن الصحة .. وبعدها حضطر اعالجك بفلوس .. ..



.. بـدون كـلام ..



ست ـ .. مالهم .. أهله !!



قطع من الشطرنج من القرن الثانى عشر تم العثور عليها فى اسكتلندا

الشطرنج .. حرب سلميّة

بقلم : إبراهيم السمّان

لقد اختلفت الروايات فى معرفة تاريخ الشطرنج ، فنسب تارة الى القائد الاغريقي (بالميداس) فى حصار طروادة ، ومن المؤرخين من نسبه الى الكلدانيين او الاشوريين او الفراعنة ، وذكر المؤرخ السويسرى «ليوبولد دى سوسور» أن الشطرنج من اختراع الصين فى القرن العاشر قبل الميلاد .. وقد عثر علماء الآثار السوفيتيون على احجار شطرنج يعود تاريخها الى القرن الثانى بعد الميلاد ومنها حجر على هيئة فيل واخر على هيئة ثور

على ان العلماء المعاصرين يجزمون بان الشطرنج هو اختراع هندى ، معتمدين فى ذلك على مصادر الثقافة العربية الاسلامية التى اكدت ان مخترعه هو «صصه بن داهر البرهمى الهندى» . وانه وضعه فى القرن السادس الميلادى . فقد قال المسعودى إن «صصة» وضعه للملك «بلهيث» وجعل احجار الشطرنج على صورة آدميين وغيرهم من الحيوان وجعلهم درجات ومراتب قد يظن انها صور البروج .. وقال الزمخشرى « ان ملوك الهند كانوا حكماء لايريدون القتال وإراقة الدماء فوضعوا الشطرنج ، وكانوا اذا تنازع ملكان اصطف الجيشان وتقابل الفريقان وتقدم الملكان فلعبا فى موقع المعركة بالشطرنج ، فمن غلب استولى على الشيء المتنازع عليه من غير قتال» وذكر اليعقوبى ان فضائل الهند ثلاث : «الشطرنج ، وكليلة ودمنة ، وتسعة احرف تجمع الحساب» .

وقد حظيت لعبة الشطرنج باهتمام بارز فى التاريخ العربى فحققت انتشارا واسعا فى عهد الدولة الاموية والدولة العباسية ...

ومن الشخصيات العربية التى عنيت بهذا الفن أبو عثمان الجاحظ .

واما الفيلسوف يعقوب بن اسحق الكندى فقد قال فى وصيته لولده «يابنى كن كلاعب الشطرنج مع الناس تحفظ شيئك وتاخذ من شيئهم، فان مالك اذا خرج من يديك لم يعد اليك» .

وقد ورد كثير من شعر العرب فى وصف الشطرنج كاشارة الشاعر صفى الدين الحلي فى قصيدته القومية المشهورة :

سلى الرماح العوالى عن معالينا
واستشهدى البيض هل خاب الرجا فينا

والتى جاء فيها :

بيادق ظفرت أيدى الرخاخ بها
ولو تركناهم صاروا فرازينا

ومن درر الشعر العربى فى الشطرنج قول الشيخ جمال الدين بن نباته :

أفديه لاعب شطرنج قد اجتمعت
فى حسنه من معانى الحسن اشتات

عيناه منصوبة للقلب غالبة
والخد فيه لقتل النفس شامات

وذكر الثعالبى فى «يتيمة الدهر» اخباراً عن مشاركة ابى العلاء المعرى فى لعبة الشطرنج فقال على لسان الشاعر المصيصى «رايت بمعرة النعمان عجباً من العجب رايت أعمى شاعراً ظريفاً يلعب الشطرنج ويدخل فى كل فن من الجد والهزل ، يكنى ابو العلاء» .

●●

ومن الشطرنجيين الذين لمعت اسماؤهم فى التاريخ العربى احمد بن يحيى بن ابى بكر بن ابى حجلة التلمسانى ، شهاب الدين ابو العباس (٧٢٥ ـ ٧٧٦ هـ) الذى ولد فى تلمسان ثم رحل الى دمشق ثم انتقل الى القاهرة واشتغل بالأدب وولع به ثم ولى مشيخة الصوفية بصهريج منجك بظاهر القاهرة ومات فيها . وقد صنف اكثر من ثمانين كتاباً فى شتى فنون المعرفة والعلوم واشهرها (ديوان الصبابة) ، و (منطق الطير) وقد عالج فيها امور الشطرنج .

وقد تالق فى الأندلس نجم شطرنجى هو ابو زيد محمد بن عمار وهو شاعر كبير وقد لاعب ملك قشتالة الفونس فغلبه .

وقد ذكر مستشرق اسمه كرجكوفسكى أن فى متحف ارميتاج فى ليننغراد كتاباً

مباراة بين الملك والملكة فى ايطاليا فى القرن الثانى عشر



هكذا يرتبون قطع الشطرنج قبل المباراة



عربى المنشا فيه صور لشتى الالعاب يمثل الحياة فى زمن الفونس الذى كان من أكبر دعاة الثقافة الاسلامية فى اسبانيا . وكان للشطرنج مكانة كبيرة بين مخلفات الاسلام ، ويرجع الشطرنج الأوروبى فى أصله الى الشطرنج الذى نقلته أوروبا عن المسلمين ، ذلك أن لعبة الشطرنج تمثل لونا من ألوان النشاط الفكرى . ومن الذين اشتهروا بالشطرنج فى الاندلس الوزير والأديب الشاعر تمام ابن عامر الثقفى .

●●

وقد حظى الشطرنج بقسط وافر فى أدب العرب : نثرهم وشعرهم . ففى الأرجوزة الشطرنجية يقول الشاعر مهدى البغدادى المتوفى عام ١٣٢٧هـ .

إياك والسرعة فى المحاربة
لتدرك المراد فى المغالبة
يلزم للشطرنج أن يصطنعا
بيتا ثمانيا له مربعا
مجموعه الستون بعد الأربعة
وكل ابيات له مربعة
ونصفها يصبغ بالسواد
على اختلاف لاعلى اتحاد
وفى البياض منه يبقى نصف
وكل وجه فيه صف

إلى آخر الأرجوزة التى يصف فيها بدقة، فن لعبة الشطرنج .

ولعبة الشطرنج هى حرب بين جيشين يجرى فيها كل مايقع فى الحرب من هجوم ودفاع وخدعة ومبادرة وتكتيك وفيها هزيمة وانتصار وتعادل وهدنة وصلح ! ولكنها حرب سلمية ، إذا جاز هذا التعبير ، بين فكرين ساحتها الرقعة وجنودها القطع وقادتها اللاعبون.؟؟ وهى صراع فكرى يسهم فيه الذكاء والدهاء والفن والعلم . وقد اهتم بهذه اللعبة معظم شعوب العالم المتقدم فى الشرق والغرب فقامت فيها اندية وجمعيات الشطرنج ، والفت حولها الكتب . واسست فى بعض الدول جامعات وطنية ترعى شؤون الشطرنجيين وتنظم لهم المباريات وتمنحهم الجوائز والمكافآت . كما انشىء اتحاد دولى للشطرنج فى باريس عام ١٩٢٤ تحت شعار (نحن اسرة واحدة) .

●●

ومن طريف ما يروى ، دلالة على مدى ارتباط هذه اللعبة بالذكاء أن الملك الهندى اراد مكافأة الحكيم «صصه» مخترع الشطرنج ، فطلب المخترع طلباً متواضعا هو أن توضع له حبة قمح واحدة على المربع الأول من الرقعة ثم تضاعف بمتوالية ١ ـ ٢ ـ ٤ ـ ٨ ـ ١٦ ـ الخ .

وقد استهان الملك الهندى بالطلب . ولكن عند التنفيذ وبعد الحساب الدقيق تبين أن المخترع قد طلب ما يعادل محصول الكرة الأرضية لو زرعت جميعها قمحا بعد تجفيف بحارها وتسوية جبالها لمدة ستة الاف عام؟؟ هذا على ذمة الراوي !! ومن يشك فى صحة هذا التقدير فليحسب .. اذا ما اتسع وقته .. وصدوره !!

ابراهيم السمان
عمان ـ الأردن

الورقة الأخيرة

أول إنسان عربي قال الشعر من هو ؟

بقلم : حامد بدر

كيف نشأ الشعر ؟ واين ؟ ومتى ؟

اسئلة يستقبلها الذهن ، ويبحث لها عن جواب .

والجواب البسيط المرتجل الذى لا يرد عليه اعتراض ، ولا يحتاج إلى تنقيب فى مراجع الأدب والتاريخ ، هو ان الشعر نشأ مع الانسان من كل جنس وكل لسان ، فى كل زمان ومكان .

وهذا الجواب لا يتفق مع ما زعمه الجاحظ ، قال فى الجزء الأول من كتابه (الحيوان) :

« .. واما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن ، اول من نهج سبيله ، وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة ... فاذا استظهرنا الشعر وجدنا له – إلى ان جاء الله بالاسلام – خمسين ومائة عام ، واذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام »

ولو قال: إن اول شعر جاهلي جيد وصل إلينا كان للمهلهل وامرىء القيس ، لما ورد على هذا القول اعتراض ، فهو قول لا يمنع ان للعرب الجاهليين قبل هذين الشاعرين شعراً كان نصيبه الضياع ، فليس ما وصل إلينا من شعر هو كل ما قيل ، وليس هو اقدم ما قيل . بل لابد انه مسبوق بشعر اكثر منه قدما ، واقل حظا من التهذيب والصقل . فشعر المهلهل وامرؤ القيس وصل إلينا بعد شعر جاهلي أكثر قدماً ، وبعد مراحل وتجارب انتهى منها إلى هذا المستوى من الجودة

لابد أن هذين الشاعرين قد سبقا بشعراء كثيرين مجهولين ذهبت اسماؤهم نسيا منسيا كالآف الدين لم يعرفهم التاريخ ولم يعرفوه ، ولابد أن هذا الشعر الذى وعاه الحفاظ ، ودونه المدونون قد سبق بشعر كثير لم ينل حظا من الحفظ والتدوين فأودى به الضياع .

ولاشك أن للشعر العربي بذورا نبتت ونمت فى وطنها الأول وهو الجزيرة العربية ، وفي عهدها الاول وهو العصر الجاهلى . أمــا كيف كانت تلك البذور ، وكيف تعمقت جذورها وبسقت سيقانها ، والتفت أغصانها ، واينعت ثمارها .. فمن البدهيات أن البذور لكى تنبت وتنمو تحتاج إلى التربة والماء والمناخ ، فهى تتغذى بالتربة ، وترتوى بالماء ، وتشب وتترعرع فى المناخ الصالح ،حتى تصير شجرة صغيرة ، أو شجرة باسقة ، أو دوحة وارفة الظلال . فلا مانع لدينا من وجود تلك البذور والجذور قبل المهلهل وامرىء القيس.

لماذا لا يكون اول انسان عربى قال الشعر هو شاعر عاش قبل المهلهل وامرىء القيس له مثل ما لهما من الطبع والوجدان ؟ من هو ذلك الشاعر العربى الاول ؟ .. لا نستطيع أن نعرف لأن حظوظ الشعراء من وسائل التاريخ والتدوين والرواية الصحيحة المتصلة لم تكن متكافئة فى كل زمان لاسيما العصر الذى عاش فيه ذلك الشاعر المجهول .

واذا كنا نشك فى بعض ما وصل إلينا من شعر منسوب إلى العصر الجاهلى ، نشك فى من نسب إليه،هل هو قائله أم وضعه غيره ، وهل قائله الحقيقى جاهلى ام اسلامى ؟ فلا ريب أننا عاجزون عن معرفة اول شاعر عربى ، وإن وجدنا فى انفسنا الدليل على أن بذور الشعر الجاهلى موجودة قبل المهلهل وامرىء القيس .

وبنظرة بعيدة إلى الشعر عموما ، لا إلى الشعر العربى فقط ، نجد أن الشعر والحياة صنوان ، فمن الناس من خلق بطبعه شاعرا ، لا فرق فى ذلك بين عربى وغير عربى . بل ان أى مخلوق فيه حياة واحساس ، ولديه القدرة على التعبير الجميل عن حياته واحساسه يمكن أن يكون شاعرا أو شبه شاعر .

ولو رجعنا بتفكيرنا إلى تصور النشأة الأولى للانسان ، والنشأة الأولى للشعر فقد لا نرى موجبا لافتراض الفاصل الزمنى بين النشأتين . وأكاد اجزم بان اول شاعر هو اول انسان استطاع التعبير باللغة التى عرفها عن وجدانه وتأثره بالحياة تعبيراً صادقا متقنا جميلا مؤثرا . ومنذ اللحظة الأولى التى ولد فيها أول شاعر حتى نهاية الحياة الدنيا لم يخل ولن يخلو جيل من شاعر او شعراء .

وفى كل عصر من العصــــور عاش شعراء من كل جنس ، ومن كل دين ، فهم مختلفون فى لغاتهم وعقائدهم وميولهم واغراضهم . وهذا الاختلاف أمر طبيعى ما دام الشعر ترجمة للاحساس والطبع والوجدان .

فمن الأئمة شعراء ومن المتصوفة شعراء ، ومن الزنادقة شعراء . وقــد تناول الشعر كل الاغراض الشريفة وغير الشريفة .

ولأن خاتم الأنبياء محمداً صلى الله عليه وسلم بعث بأبلغ وانقى دستور سماوى ، عصمه الله من الهوى والاثم والضلال ، وطهره من كل شائبة تدعو إلى الاتهام ، فلم يعلمه الشعر . قال سبحانه « وما علمناه الشعر وما ينبغى له أن هو الا ذكر وقران مبين » صدق الله العظيم .

هل نستطيع بعد ما تقدم أن نحكم بأن البذور الأولى للشعر وجدت عند أول انسان لديه القدرة على تصوير وجدانه فى عبارات جميلة موزونة مؤثرة ؟

فان لم تكن تلك البذور الأولى قد وجدت عند أبينا الاول آدم عليه السلام ، فهى بلاشك قد وجدت عند احد ابنائه السابقين إلى هذا الفن ، أو احدى بناته السابقات إليه منذ بدء الخليقة .

حامد بدر